ومن الرماد مايكوي

رواية

جهاد نصر مقلد (نبيل)

الطبعة الأولى

2020م ـ 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقق حلمك

عنـــوان الكتاب: ومن الرماد ما يكوي

اســـم المـؤلف: جهاد نصر مقلد " نبيل "

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 22507 / 2020

الترقيـم الدولي: 5 - 37 - 6749 - 977 – 978

تـصـميـم الغلاف: م. شيماء منير

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

ومن الرماد ما يبكي

رواية

جهاد نصر مقلد " نبيل "

2020

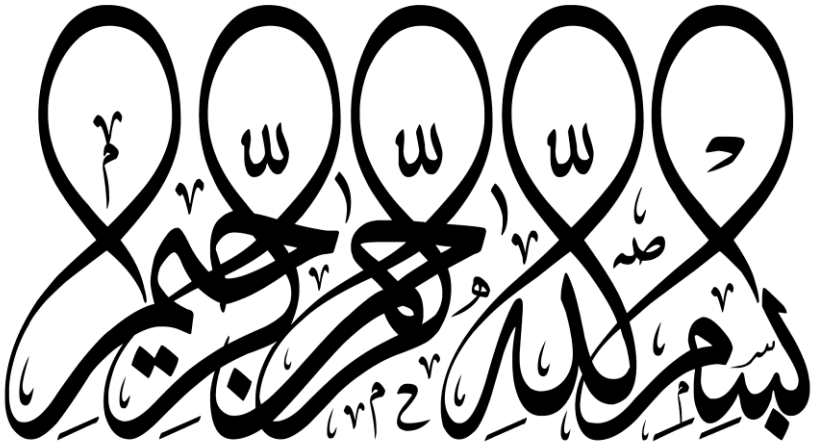
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كلّ محب ومحبة وإلى كل من ينظر إلى الدنيا على حقيقتها... (دنيا دنيئة)، وأنها لم تكن في يوم من الأيام عُليا إلا بعد الخروج منها...
أهديها إلى كل من يبحث عن العلم ويجعل منه هدفاً لرقيه، وإلى كل إنسان يبحث عن مستقبله بشرف وأمانة، وإلى كل من يكافح في دنياه للبحث عن لقمة العيش بصبر وهدفه الكرامة، مهما كانت مرارتها وصعبة، ومنالها عسير.

إهداء خاص

إلى دار ديوان العرب للنشر والتوزيع وإلى إدارتها المتمثلة بصاحبها الأستاذ المحترم محمد وجيه صاحب الدار ومديرها الأول
الأستاذة المحترمة فادية محمد هندومة
الأستاذة المحترمة هبة ماردين
وإلى أسرة الدار وعمالها في الطباعة وملتزمات النشر والتوزيع
وإلى المجموعات الأدبية المتفرعة من الدار

وإهداء يخصني

إلى جميع أهل بيتي ومن شجعني
إلى عمود بيتي وسنده... القائدة الماهرة... زوجتي نضال مقلد
وإلى أولادي: الدكتور ظافر
وإلى ابنيّ المكافحين في غربتهما... يامن، وطارق
وبنتيَّ... لمياء وراميا
وإلى كل فرد من أفراد عائلتي... دعائي لهم بالتوفيق

ومن الرماد ما يكوي

جهاد نصر مقلد _ نبيل

****

مقدمة

يقول مثل شعبي يخص المرأة عامة: (البطن بستان)
في عُرف الحياة وما يقال في مجتمعنا العربي... بطن المرأة كالبستان الحي، فكما ينتج البستان الصالح والجميل ينتج بطن المرأة مثله... الفرق أن البستان بمجرد النظر يريك حقيقة ما فيه، أما بنو الإنسان فلا يظهرون على حقيقتهم إلّا من خلال التعامل معهم.
لم يخطئ من ترك لنا منذ القدم أمثالاً متنوعة في جميع مجالات الحياة، فكانت خلاصة لأحداث تأكدت لنا من خلال تجاربهم عبر آلاف السنين، لا يمكن لأحد تكذيبها أو تجاهلها... نعم البستان فيه الأثمار ومنه الإثمار... فيه الورد والشوك... وفيه المفيد والضار.
روايتنا هذه تدور بما فرضت الأقدار على الأسرة الواحدة من اختلاف في الميول والأخلاق والطبائع.
حقيقةَ أنّ الإنسان دائماً رهن قدره وحظه، سواء في مولده أو في دينه أو اسمه أو لونه، ولا يستطيع أن يتحكم بشيء من الصفات تلك، بل يبقى أسيراً لهما ما عاش، ولكن يستطيع أن يضيف عليها بهارج علمه وطيب عمله وما ينطوى في نفسه من نوايا، وما يقدم من جهد لخدمة نفسه

ومجتمعه، وكل ما يسوق له عقله أثناء حياته... خاصة عندما يصل إلى سن يستطيع فيها أن يتحكم بشهواته ورغباته... منهم من يبدع في عمل الخير، ومنهم من يدمن الفساد... تعزى بعض تلك التناقضات في الأسرة الواحدة إلى تأثير البيئة الأسرية والمنبت، وإلى التربية البيتية... فيقدم كل فرد على حدة صورة حقيقية عن الأسرة والمنزل... مع هذا كلّه يبقى طبع الفرد هو الغالب، حتى ضمن الأسرة الواحدة.

ثمّ يأتي دور المدرسة لتكمل ما بدأته الأسرة... وهناك أمر آخر لا يتناقض مع ما سبق حين يتكسب الفرد من رفاقه وأصدقائه في بعض الأحيان طبائعهم السلبية، أو الايجابية.

ثمّ يأتي الدين ليقدم للطفل منذ نعومة أظفاره أساليب التعايش بين الأفراد، من حب ومساعدة وتحلي بأخلاق حميدة ...

قد يكون كلّ ما قلنا منطقياً وواقعاً ملموساً، لكن في النهاية يجب ألّا ننسى أنّ الله وهب لكلّ إنسان عقلاً يعمل به، وسلّمه الإرادة ليعمل بما يوحي له هذا العقل في كل مرحلة من مراحل عمره...

وفي الختام ليس لنا إلا أن نقول: لمن شذّ بعمله أو نجح، إنّ كلا الأمرين ناتجين عن الطريقة التي استعمل الإنسان هبة الله، ومِنحته له... (عقله).

هذه الرواية لا تحوي أسماءً حقيقية ولا أسماء مدن محددة أو مواقع، وما فيها عبارة عن صور لأماكن موصوفة... الرواية بطابعها تنسحب على المجتمع الشرقي العربي بالذات... فلا تقتصر أحداثها على أسرة مكناة، أو

مدينة أو قرية، أو بيئة... قد تحدث في كلّ مكان من الوطن العربي والإسلامي، وغيره من الأديان.

أبطال الروايـة

1_ فؤاد ربّ الأسرة.

2_ سعاد زوجته.

3_ سهاد ابنتهما.

4_ عفاف ابنتهما الثانية.

5_ بسام.

6_ يوسف.

7_ غنوة.

8_ بدران.

الباب الأول

زخارف الحياة

الفصل الأول

زواج تقليدي

كان زواجهما تقليدياً... فؤاد وسعاد... لا غراميات مسبقة... لا موعد ولا سلام ولقاء، بين ابن القرية وابنة القرية! فؤاد وسعاد المتباعدين في العمر بفارق بسيط... المتقاربين في الأهواء؛ المتناقضين في النظر إلى الدنيا والمجتمع.

فؤاد جرّه طموحه منذ نعومة أظفاره إلى التوجه نحو دول الخليج للعمل، ثمّ أراد بعد ذلك أن يكمل نصف دينه بالزواج، وسعاد فتاة كانت تحت إرادة والديها لا تستطيع أن تكمل نصف دينها إلا مأمورة أو مجبورة... كغيرها من فتيات مجتمعنا الشرقي الملتزم... والدها إمام وخطيب جامع القرية، وأمها تسير بتيار زوجها المتفرغ لعمله في هداية الناس إلى حبّ الله ورسوله والتعايش بين مكوناتهم...

البنت تنتظر العريس بصبر كصبر أيوب... وفي النهاية أتى...

لم تعارض سعاد ما أراد والداها من مستقبل لها مع ابن قريتها فؤاد... الشاب المغترب الباحث عن رزقه... بصفاته الحميدة

أعجبهما الطموح فيه، وحسن الأخلاق واليسرة المادية، إضافة لجيرة عمر ناجحة بين الأسرتين...

تم عقد القران بغياب العريس... وأرسلت له عروسه إلى مكان إقامته في الخليج... المعرفة بسيطة قديمة بينهما، لا تتعدى الطفولة، وزمالة مدرسة بسيطة مضت، عندما كانا تلميذين في المرحلة الابتدائية، وبما مدح الأبوان بها من جمال وسلوك، وعفة.

من المعروف أنّ أقصى ما يتمناه الأبوان لابنتهما الستر بالزواج... وكان سفرها إلى خطيبها للزواج في بلاد الغربة، بسبب عمله هناك ووقته الخارج عن إرادته...

وأخيراً بعد ما يقارب مرور سنة على وصول زوجته إليه، فرضت الظروف على فؤاد أن يعود من تلك البلاد إلى قريته.

اصطحب زوجته الحامل سعاد... بعد أن وصلت إلى شهرها الثامن من حملها، وعندما اقترب موعد ولادتها ارتأيا معاً العودة إلى قريتهما، عند ذلك تغير حاله واطمأن باله... في بلاد الغربة كانت توقظه كلما أحست بألم في بطنها حتى ولو كان نوبة مغص، أو حركة طبيعية للجنين! فؤاد الجنين يتحرك... فؤاد اقتربت ولادتي... فؤاد هل الجنين حيّ؟ فؤاد هل الجنين ميت؟ إنه لا يتحرك...

حتى ملَّ اسمه، وبات يشعر أنّ عمله أصبح آخر همٍّ له... كان يعذرها بنفسه لأنّ حملها هذا كان أول حملٍ لها، وأول تجربة لولادة قادمة.

ولكلّ هذا وجدا الأنسب لهما العودة بها إلى قريتهما، لتتم ولادتها بين أهله وأهلها وأقاربهما، وفي الوقت نفسه كان يعلم أن قربها من أهلها يسهل

عليهم متابعتها والعناية بها، خاصة وأنها ستصبح تحت رعاية أمها مباشرة، والكل يعلم بأنّه لا يوجد أشفق ولا أحن من الأم على ابنتها... لذلك فضل فؤاد زوجها أن تكون ولادتها الأولى هذه تحت إشراف الأهل ورعايتهم، وهذا ما كان.

بقدر ما كان يتخوف من تبعات الولادة ومشاكلها على صحة زوجته بحملها هذا، وولادتها للمرة الأولى... كان يخاف على المولود... وفي النهاية كانت رعاية الله أشفق عليهم من الجميع... لم يكن أحد منهما يتوقع أن تتم الولادة بتلك السهولة.

وقف فؤاد أمام نافذة الصالة في بيته في قريته، ينتظر بلهفة وأمل، يصغي لأصوات زوجته الخائفة المتألمة ومعاناتها عندما بدأت تطلق... أخذ بين الحين والآخر يسجد لربه ويبتهل قائلاً:

_ يا رب سهل أمرها... يارب خفف عذابها وسلّم لنا حياتها وحياة جنينها...

تصرخ من هنا، فينتفض من مكانه مع كل صرخة تصدر من غرفتها... وما حيلته إلا أن يضع يده على قلبه، ويستغيث بربه.

كان من يراه تلك اللحظة يشعر بقلقه من خلال حركاته المترددة، وهو يقطع صالون بيته ذهاباً وإياباً ولسانه حاله لاينفك عن الدعاء لله سبحانه، أن يعينها على آلامها وأن تتم الولادة بيسر وسلامة، ويرجو ربه أيضاً بعد السلامة لها أن يكون المولود سليماً بكامل تكوينه، يمشي ثمّ يعود إلى

حيث كان يقف... يحاول أن يشغل فكره بقضايا جانبية ليصرف الخوف من قلبه... دون جدوى.

تأخذه ذكرى داعبت خاطره وجعلته يبتسم قسراً عندما تذكر لحظات وصول القابلة ودخولها إلى الغرفة لكي تكشف على زوجته، لم يتحرك من مكانه وزوجته تخلع ثيابها أمام القابلة... لكن القابلة نهرته وطلبت منه الخروج من الغرفة...

شعر أنّ من واجبه عدم البقاء، لذلك نظر إلى زوجته ضاحكاً وبخاطره شيء كان يود قوله... إلا أنه صمت ولم يرِد حتى سمع زوجته تناديه بعد أن أدار ظهره، فتوقف عند الباب عندما سمعها تناغيه بدلال قائلة:

_ خائفة حبيبي فؤاد... أنا جد خائفة...

تظاهر أمامها بالشجاعة والجرأة، بينما كان قلبه يتحرق ألماً وفزعاً... رد مشجعاً:

_ لست أول من ولَّد يا حبيبتي وكلهنَّ خفنَ مثلك وربما أكثر منك!... توكلي على الله...كلنا أنجبتنا أمهات.

_ لكنني أخاف شدة الألم... قالوا لي:

_ إنّ الولادة الأولى صعبة ومؤلمة... وتعمدت لحظة سكون، ثمّ قالت مبتسمة:

_ حبيبي لا أعرف كيف سأصرخ عندما ألد... علمني؟! قهقه قليلاً ثمّ رد عليها ممازحاً:

_ منذ أيام شاهدت صدفة قطتنا تلد، وكانت تصيح مياو... مياو... أكثر من هذا لا أعرف، ثمّ أردف... تريدين أن أعلمك أيتها المفترية! كيف أعلمك؟ ثم أراد تلطيف الجو، وأن يخفف عنها بمزاح تصنع فيه قدرته على التحمل وبالذات كي يخفي قلقه:

_ اسمعي حبيبتي... لا تقلقي وجدت طريقة لتخفيف ألم الولادة عنك... ردت بلهفة:

_ ليت هذا صحيح يا حبيبي... أرجوك... أرجوك، قل لي بسرعة.

_ لا عليك... بل أجدها طريقة نافعة... سأساعدك بها بقدر استطاعتي... أنت شدّي أثناء الولادة حتى يخرج المولود، وأنا أصرخ متألماً بدلاً منك... ضحكت وأخذت تناغيه... تقدم إليها كي يقبّلها قبل أن يخرج، وما إن انحنى على وجهها حتى أمسكت شفتيه بين السبابة والشاهد وهزتهما بقوة، ثم دمعت عينيها وهي تريد أن تقول كلمتين... لم تستطِع أن تزيد عليها حرفاً واحداً، بعد أن منعتها الدموع من النطق، لكنها قالتهما بصوت يرتجف:

_ حبيبي... هل سأموت؟

لم يرد... بل خرج من الغرفة التي كان فيها، والغصّة تعتصر حنجرته ويشرق بلعابه!

ترك للقابلة أن تجهزها للولادة، وعاد هو ليقف من جديد أمام نافذة الصالة... ثمّ أخذ يشغل نفسه بالنظر من خلالها على سهول القرية الخضراء، وفي قلبه أحاديث عمرٍ مضى فيها... ومشاريع مستقبلية... ينتظر ولادة

زوجته الآن في المكان نفسه الذي كانا يجلسان معاً قبل أيام يتحدثان بما يحلمان...

الآن لم تعد تلفت نظره الطبيعة الخلابة الظاهرة من نافذة بيته الريفي... بيته الجميل المبني من الإسمنت على أحدث طراز، خلافاً لبيوت القرية التي تجاوره، التي تظهر عليها بساطة الريف وعفويته.

في هذا البيت وضع فيه شقاء سنوات طويلة من الكد والجهد وحده... ما جعله يتميز عن بيوت البلدة التي يراها... متواضعة جداً أمام بيته، البيوت الفقيرة التي تفتقد إلى جمال الشكل والتنسيق... يستعيد بفكره تعب والده بمتابعة العمال والإشراف على تنفيذ المخططات التي كان يرسلها له، وما تكلف من أموال كان يرسلها لوالده لأجل بناء هذا البيت الذي خرج كتحفةٍ بين بيوت قريته!

يعود إلى حديث قلبه المتلهب، لكنّه يصور له الشقاء أكثر من البقاء؛ ما يجعله يردد في ذاكرته:

_ جارتنا أم سالم ماتت أثناء الولادة! وعاش المولود... أم شوقي جارتنا الأخرى مات مولودها، وعاشت هي... أم رافع، ماتت هي ومولودها... يا رب أبعدني عن تلك الخيارات... هل ستعيش سعاد؟ ثلاثة خيارات أمامه تفزعه... الأم... المولود... الاثنان... لكن ما أرعبه أكثر حين خطرت بباله تلك الخيارات...

تمتم وهو يشرق بدموعه:

يا ساتر استر... يا إلهي ماذا سأفعل إذا لا قدر الله فقدت أحدهما أو كليهما؟

تدحرجت على خديه دمعتان... لكنهما سرعان ما توارتا بين شعيرات ذقنه التي أهمل حلاقتها منذ أيام... وتمتم: يارب عفوك والسلامة من عندك، وكل بعيد آتٍ.

لم يطل انتظاره كثيراً... انقطع صراخ زوجته وساد المكان سكون قاتل، لحظات وأحس أن قلبه شارك ذلك الصمت... لقد وهنت دقاته بعد أن كان يسمعها بأذنيه قبل لحظات... اقترب من باب الغرفة يجرّ قدميه فزعاً يتنصت... لا شيء يقطع هذا السكون المرعب الآن...

فجأة تهلل وجهه حين سمع صرخة طفلٍ تخرج من بين جدران الغرفة، قال في نفسه:

_بقي الكثير لتكتمل فرحتي؛ يجب أن أعلم ماذا جرى لسعاد؟

تعلق نظره بمقبض الباب ينتظر لحظات خالها دهراً... ينتظر خروج القابلة لتبشره وتخبره... بولادة زوجته وسلامة مولودها.

هذه القابلة كان قد طلب حضورها خصيصاً من المدينة إلى القرية... كان يخشى أن تصاب زوجته بمضاعفات غير محسوبة أثناء ولادتها... خاصة وأنها الأولى، لذلك لم يعتمد على الداية الشعبية المعروفة في المنطقة... المرأة العجوز التي أخرجته إلى الدنيا، وأخرجت أكثر أهل قريته عبر نصف قرن... المرأة التي ورثت مهنتها كابراً عن كابر.

دقائق كثيرة مضت... حَسبَها الزوج دهراً... بدأ الآن مقبض الباب يدور... أطلَّ وجه القابلة ضاحكاً... تحمل بين يديها حلم حياته... انفرجت أساريره حين واجهته باسمة حيث كان ينتظر، يسبق صدرها صراخ وليدٍ عارٍ إلا من قطعة قماش بيضاء لُفَّ بها، وتحمله بلطف بين يديها الاثنتين... بينما فمها يلهج بالبشارة، مدَّ يدين مرتجفتين... وضعته عليهما لحظة وهي تقول:

_ مبارك... مبارك، طفلة كالقمر... الحمد لله على سلامتهما... الأم والطفلة... يا لها من طفلة جميلة ولطيفة للغاية... تركتها بين يديه لحظات، ليلقي عليها نظرة النظرة الأولى وعيناه دامعتين، قبل أن تعيدها لحضن والدتها وتتابع رعايتهما... من جديد تبسم زهواً وهو يسمع صراخ الطفلة من خلف الباب... لكنه تساءل بنفسه:

_ لماذا تبكي الآن؟ ثم يجيب نفسه: حتماً جائعة تريد أن ترضع.

وكانت المفاجأة الكبرى... خرجت القابلة من جديد بعد بضع دقائق، وبين يديها مولودة...

لم يخطر في بال فؤاد أو يتوقع سوى أن تكون الأم ماتت... لا أن تكون غير الأولى، وأن زوجته كانت حاملاً بتوءمين... حملها، وسأل مرعوباً:

_ هل أصاب أمها مكروه؟ لماذا تعيدينها إليّ؟

_ هههه... ههه... إنها أختها... توءمين يا ظالم... أعانك الله يا سعاد على تربيتهما...

حملها كما حمل أختها قبلها بدقائق.

عادت القابلة بالطفلة... أما هو فملأ قلبه السرور والزهو بنفسه يفتخر كيف أصبح اليوم أباً لطفلتين دفعة واحدة! لم يكن فؤاد من النوع الذي يفضل الصبيان على البنات؛ بل كان يقول دائماً:

_ لا اعتراض على ما يرسله الله لنا... ما جاء من عنده فهو بركة...

أخذ فؤاد يتذكر... عندما كان الطبيب يتابع زوجته في بلاد الغربة لم يرفض حداثة الطب عند الكشف على زوجته أثناء الغربة، لكن لماذا لم يخبره أنها حامل بتوءمين... هل كان هذا بناءً على طلب زوجته مع أنه شجعها على عمل إيكو غراف كي تعرف نوع المولود! كانت زيارتهما للطبيب للاطمئنان فقط عن صحتها وسلامة حملها ليس أكثر.

ثم بدأ يتذكر أيام الخطبة وما كان يجد أمامه من صعوبات للقاء خطيبته قبل الزواج بسبب بعده عن بلده، يستعيد جمال الفرحة التي غمرته أثناء جلوسه على مرتبة الزفاف في غربته، لكن الحسرة كانت تملأ قلبه لعدم وجود أهله وأقاربه! لقد أُرسلت له عروسه بالطائرة... كان مستقبليها أصدقاؤه وبعض الأسر المقيمة في الغربة مثله، إلّا أن جميع تصوراته السابقة لا تساوي واقعه الآن بسلامة المولودتين وسلامة أمهما... زوجته.

يحمد ربه الآن، ويستعيد بذاكرته ما كان يجتاحه قبل قليل من خوف عليها وعلى مولودها منذ لحظات، وكيف كانت أنظاره تحدق بمقبض باب غرفة نومهما، الغرفة التي اختاراها معاً لتتبارك جدرانها بأول صرخة مولود،

وها هو، باركه الله وأكرمه اليوم بصراخ طفلتين فيها، كما لم تتبارك من قبل بالليلة الأولى التي لم يلتقيا فيها كعروسين.

قليل من الدقائق القصيرة التي بدت زمناً طويلاً من الانتظار؛ مرت قبل أن تسمح القابلة بدخوله إلى غرفة زوجته لتهنئتها بسلامة ولادتها، وليرى ابنتيه من جديد.

ما أن سمحت القابلة له بالدخول إلى الغرفة... حتى شكرها وهو يقول لها ممازحاً والسعادة تظهر في وجهه بابتسامة ارتسمت على شفتيه:

_ هل فتشتِ جيداً؟ لعلك تجدين مولودة أخرى تختبئ في إحدى الزوايا... كنت أرى بطن زوجتي كبيراً جداً لدرجة أنّه يتسع لفريق كرة سلة... وتلك هوايته المفضلة.

قبَّل زوجته بلطف، وهنأها بسلامتها وسلامة المولدتين، وحمد ربه على خلقتهما التامة، وقبل أن يخرج من عندها ذكّرته القابلة بوجوب تسجيل المولودتين خلال أيام عشرة... وإلا سيتعرض لمخالفة قانونية.

عندها توقف وسأل زوجته:

_ الله... الله بالجملة! لكن ماذا سنسمي ابنتينا يا سعاد؟ كنا أثناء حملك نختلف على اسم مولود واحد ولا نعلم ماذا سيهبنا الله؟ ذكراً أو أنثى؟ أما الآن...

فقاطعته بصوتها الواهن باسمة:

_ سأسمّي الأولى باسمي، وأنت سمِّ الثانية بما يروق لك.

_ حسنٌ، لا مانع... ماذا؟! أجابته ضاحكة:

_ سأسميها باسمي... عاد وسأل مدهوشاً:

_ ماذا؟ قال هذا وهو يظهر استغرابه!

_ ألا يعجبك؟

_ بلى... بلى، ثم قهقه وهو يقول:

_ سعاد... سعاد، أجمل الأسماء وأغلاها... ولكن حبيبتي... لا يصح التسمية باسم الأم... سيكون ثقيلاً عليّ وعليها... أنادي سعاد وترد عليّ بنت سعاد... وأنادي بنت سعاد وترد عليّ أمها... حتماً هي ستتضايق من اسمها بعد أن تكبر... حبيبتي اختاري غير هذا الاسم، وابتعدي عن الأسماء الأجنبية... هناك في مراكز الأحوال المدنية، أي النفوس غير مقبولة الأسماء الغربية... بل ربما يسخرون منا! سيقولون هل عزتّ الأسماء العربية وفقدت؟.

_ لا... لا تخف... اسمي أنا بالذات بعد تخفيفه...

_ أف... خلقتِ مشكلة جديدة الآن فوق خفة دمك؟! حرام عليك هذا يا حبيبتي... ستجعلين ابنتنا تطير في الهواء... هيا كوني جادة... اختاري اسماً يعجبك... غداً سأذهب لتسجيلهما في مركز المدينة؟

_ لم تفهمني! أقصد اسمي بدون حرف العين.

_ حبيبتي ما هذه الألغاز؟ ساد... ساد؟ ماذا يعني؟! إنه مرض يصيب العين وقد يعميها!

_ سهاد يا حبيبي... سهاد... وأنت سمّ الثانية كما تشاء.
_ أووووه جميل جداً سهاد! نعم... أنا سأطلق عليها اسم أمي... عفاف سأسمي ابنتنا هذه باسمها... عفاااااااااااف.
_ الله... الله، اسم جميل جداً، ليس ألطف من حماتي واسمها... يالك من ظالم تسمي على اسم أمك وتمنعني أن أسميها على اسمي؟!
انحنى ليقبلها على خدها بلطف، لكنه عظها عظة خفيفة... نبهته بصوت واهن:
_ انتبه... انتبه، إنهما تريانناً، وأشارت إلى توءميهما... ثم أضافت لا تنسَ أختي أم راضي التي تحادث أمك ها هما تنظران إلينا بطرف عينيهما.
خرج فؤاد الآن بحالة جديدة، ومعنويات عالية بعد أن أصبح أباً... خرج من غرفة زوجته والدنيا لا تتسع له من شدة الفرح، وأخذ يترنم باسمي ابنتيه...
صحيح أن إجازة الأشهر الثلاثة طويلة ومملة على المهموم، لكنها تمر على السعيد وعلى من كانت همومه قليلة وباله مرتاح كفؤاد كلمح البصر.
نعم... مرت الإجازة بسرعة، وأصبح لا بد له من العودة هذه المرة بمفرده إلى عمله حيث يعمل في إحدى دول الخليج.
فمنذ اليوم لم يعد بإمكان سعاد مرافقته مع الرضيعتين في السفر... أصبحت العوائق كثيرة تتنوع ما بين مشاق السفر على الأم وطفلتيها، وما سيطلب منه قبل ذلك استخراج فيزا من السفارة للطفلتين، وأن يرسل لهم وثائق

سفر من هناك... ثم يأتي الأهم من تلك العوائق... من سيقوم برعاية زوجته وطفلتيها هناك؟ وبالذات عندما يكون متغيباً في عمله؟! خاصة وأن الرضّع أمراضهم كثيرة... يشكون ويبكون ولا يعرف أسباب شكواهم سوى الأطباء...

لذلك طلب منها البقاء في القرية قرب أهلها وأهله؛ كي يستطيع أن يسافر إلى عمله مطمئناً لوجود من يرعاهم جميعاً...

وأخيراً جاء موعد سفره... ودعهم، ورجع تاركاً زوجته وابنتيه في القرية، قاصداً عمله ورزقه في بلاد الغربة، وفي قلبه يحمل همومهم، وفي فؤاده صور طفلتيه وصورة زوجته التي يعبدها.

على هذا المنوال مرت السنون... كبرت الطفلتان... خلال تلك المدة تربّتا في حضن أمهما ورعاية أبيهما الذي كان يأتي إلى زيارتهم كلما سنحت له الفرصة، وعندما لا يتمكن من الحضور يتصل بزوجته للاطمئنان عنها وعنهما.

دخلتا مدرسة القرية الابتدائية المتواضعة... هذه القرية الفقيرة، التي لا تتعدى أعمال السكان فيها الزراعة، ولا مصدر للدخل عند أكثر سكانها غير ذلك... باستثناء قلة من الشباب امتهنوا السفر إلى دول الخليج، ومن ساعده الحظ منهم، عاد وانتقل من الخليج إلى إحدى الدول الأوربية... ومن بين أولئك الشباب الذين سافروا واستقروا في الخليج فؤاد، الذي سافر

مع من سافر من أهل قريته، ثم حالفه الحظ بعمل جيد... بعدها تزوج من سعاد كما علمنا واستقر هناك...

فؤاد شاب مؤمن بقيم الدين لا يُغضب الله بعمله ولا بكلامه... لطيف المعشر جداً... صادق في علاقاته مع أهل قريته... وكذلك في تعاملاته مع أرباب عمله في الغربة، حيث بدأ عمله في مجال تخصصه في شركة هندسية... كمساعدٍ فني...

ومن بين شباب أهل القرية، هناك من سبقه قبل سنوات، رجل من قريته يدعى سمعان... هذا الرجل سافر مع من حالفهم الحظ من القرية إلى دول الخليج، ومنها إلى إحدى الدول الأوربية... إلى دولة (البرازيل) وهناك لم يتخلَّ الحظ عنه لعدة أسباب، أهمها إصراره على الكفاح لأجل لقمة العيش، وابتعاده عن كل ما يسيء لغربته أو يعطل هدفه في تكوين نفسه... بعدها عاد سمعان إلى قريته وتزوج منها، ثم أخذ عروسه معه وكوّن هناك أسرة كبيرة... على إثر ذلك الاستقرار جمع هناك ثروة كبيرة، ما ساعده على هذا النجاح طموحة الواسع، وسعيه الدائم لتطوير عمله، بما كان يبذل من جهد وإخلاص في عمله وتعامله مع الآخرين.

ما أن كبر ولده يوسف ورأى سمعان أن من الممكن الاعتماد عليه حتى استدعاه أحد الأيام، إلى مكتبه ودار الحوار التالي بينهما... بدأ الأب حديثه:

_ أين تضيع وقتك يا يوسف؟ تكاثرت شكاوى العمال عليك... المفروض ألّا تتغيب عن العمل... إن تأمين طلبات العمال مباشرة يسهم في تطوير الشركة... يشتكون من تأخرك في تأمين بعض حاجياتهم...

_ كلا يا والدي، أقوم بعملي على أكمل وجه... ولكن أعمال الشركة كثيرة ومنشآتها عديدة... وكل فئة تريدني أن أكون بينهم في كل لحظة... أنت تعلم توزع العمال في الأقسام... الأمر يحتاج إلى مساعد معي وأنا أعمل وحدي كما تعلم...

_ نعم يا ولدي أعلم كل شيء... فعلاً تحتاج إلى أكثر من مساعد، لقد تركتك تنوء بالعمل كي تتدرب وتعرف قيمة العمل... لكن هذا اليوم قمت بتعيين مسؤول لكل فرع للشركة ليقوم بتأمين المواد والمراقبة...

_ الله... الله، ماذا يعني هذا؟ مفصول من الشركة!

وبصوت يملؤه المزاح قال:

_ نعم... اتخذت قراراً بفصلك من العمل... فتح يوسف فمه ليتكلم، لكن والده قاطعه:

_ لا تتعجل انتظر حتى تسمع السبب وما أريد منك... يا ولدي نحن نعيش هنا منذ أكثر من ربع قرن، وليس هذا وطننا كما تعلم، وطننا هناك الذي تزوره وتذهب إليه للسياحة كل بضع سنوات... أما الحقيقة فسياحتنا هنا... وهناك بلدنا ومسقط رأسي ورأس أمك... اليوم خطرت على بالي فكرة جيدة ربما تفيدنا وتفيد بلدنا... سندرس موضوع توسيع نشاطنا كمرحلة أولى بفتح فرع للشركة هناك...

_ ليت هذا يحدث يا والدي... وفعلاً أتمنى أن نكون بين أهلنا وأقاربنا في قريتنا...

_ نعم... نعم لا تسل كم تهيج بي الذكرى إلى قريتنا وحواريها البسيطة، خاصة عندما كنت أجلس على الربوة، أنا وأطفال الحي نراقب، ونتراهن فيما بيننا.

_ علامَ كنتم تتراهنون؟

_ كنا كلما رأينا مجموعة قادمة باتجاهنا نتراهن على مَن مِن القادمين سيتجه نحو الكنيسة التي تقرع أجراسها؛ من سيتجه نحو المسجد الذي يدعو المؤذن فيه الناس للصلاة... نعم لا يميز الرجال ولا النساء ثوباً ولا قبعة... الغترة والعقال مشتركة على رؤوس رجال القرية... وغطاء الرأس الحريري للنساء... عدا إمام الجامع وقس الكنيسة... آه يا ولدي كم أشتاق لبساطة العيش وهدوء الطبيعة هناك.

كرهت الضوضاء ومللت الإتيكيت، كرهت الحرية المطلقة في هذه البلاد... جهز نفسك يا ولدي لتنفذ ما أرغبه أنا وما تحلم أنت به... المال وافر لدينا... ابحث هناك عن أراض في المدينة... أو في أي مكان لتنفيذ أي مشروع تختاره...

_ فكرة رائعة... نعم سأجهز نفسي وأتصل بأبناء عمومتي في القرية ليساعدوني في الموضوع... عندها ضحك والده وقال:

_ لا تنسَ الأهم... إن أعجبتك فتاة هناك فلا تتأخر في خطبتها، لكن أرسل لنا صورها لنتعرف عليها... نحن موافقون هنا سلفاً، لقد كلمت أعمامك في القرية ليساعدوك فيما تحتاج إليه... اسمع يا ولدي... إن أردت أن يتم الزواج هناك لا مانع، ولكن لا تنسَ إجراءات السفر إلى هنا لاستقدامها كي تكسبها جنسية البلد هنا، ثم تعود إلى هناك لمتابعة عملك في المشروع الذي اخترت... المهم أخبرنا إن وجدت ضالتك لأتصل بعمك

هناك ليقف معك ويخطبها لك... طبعاً كان قصد سمعان والده أن يتعرف يوسف جيداً على عادات بلده وتقاليدها، بزواجه من إحدى فتيات القرية.

سافر يوسف إلى مسقط رأس عائلته في القرية التي نبني حكايتنا فيها، لإقامة مشاريع جديدة هناك وفي الوقت نفسه الزواج وكي يتعرف على أقاربه وعادات وطنه.

ما إن وصل إلى القرية حتى بدأ فعلاً يتأقلم مع أهلها، وكان قد زارها في الماضي أكثر من مرة...

هذه القرية المتميزة بطيب أهلها وتمازج عاداتها، قرية مختلطة... معروفة بتعدد الأديان واتحاد القلوب والقومية، وهي (العربية) خلافاتها لا تتعدى عنزة دخلت أرض أحدهم ورعت بزرعه، أو طفلاً ضرب ابن الجيران... حفل عرس تشاجر به بعض الأطفال... المهم لا شيء يستحق المقاطعة بين أهالي القرية... تسوّى الأمور بينهم بأبسط السبل... صحيح أن أهالي القرية يدينون بأكثر من ديانة ومذهب... لكن هذا لم يكن عائقاً أمام تجاورهم وتعاونهم ومحبتهم المتبادلة.

الفصل الثاني

عائلة فؤاد

بعودة قصيرة إلى الوراء لبداية روايتنا، إلى فترة معينة من الزمن... إلى التوءمين سهاد وعفاف، وإلى مسيرة حياتهما بالذات، عندما كانتا طفلتين صغيرتين لم يتجاوز عمر إحداهما السنوات السبع.

في ذلك الوقت جمعهما مع راضي مقعد دراسة واحد، ومنذ أن قام السيد فؤاد بتسجيل ابنتيه في اليوم الأول في المدرسة الابتدائية الوحيدة في القرية... فهي مدرسة مختلطة بين الذكور والأناث... أيضاً سجل ابن خالتهما راضي الأكبر منهما بأشهر فقط معهما في المدرسة، ودفع فؤاد من جيبه الرسم المطلوب الذي يقال له رسم التعاون.

في الأساس جمعت راضي صلة قربى بهما، أبناء الخالات، إضافة إلى القرية الواحدة، والجهة الواحدة من القرية.

خلال تلك السنوات القليلة لم تبقيا_ أيّ سُهاد وعفاف_ وحيدتي والديهما، فقد رزق الله والديهما توءمين من الذكور... رامي وحماد، ويهمنا رامي منهما، لأن الأب والأم حملا اسمه لقباً... أبو رامي، وأم رامي.

وكما عرفنا بأنّ والد الفتاتين يغترب إلى دول الخليج ليبحث عن لقمة عيشه ورفعة أسرته... وقد نال أكثر أحلامه... وها هي الغربة ميّزته عن أهل قريته بثراء المال ويسرة المعاش، والسكن الحديث.

كان الأبوان يدلّعان ابنتيهما... سهاد بسوسو.. وعفاف بعفعف. أما بطل روايتنا الذي نحن بصدده، فهو ابن خالة الفتاتين الطفل راضي ابن القرية... فهو ابن فلّاح ريفي مثابر على مهنته، والد لم يترك المحراث من يده يوماً، إلّا ليستلم الفأس أو المذراة...إلخ.

كان راضي الأخ الأصغر بين خمسة أطفال أكبر منه... قرر والداه تعليمه، في حين لم يوفق إخوته في الاستمرار في المدارس... لقلة رغبتهم في المدرسة والعلم...

فُرض على راضي كل صباح أن يمر على سُهاد ابنة خالته لمرافقتها إلى المدرسة... فهو ابن خالتها ويخاف عليها، طبعاً ليس من الذئاب، ولا من أن يعتدي عليها أحد... ولكن الحرص واجب كما كان يبرر فؤاد لعديله أبي راضي سبب طلبه.

أما أختها فكانت تسير معهما قبل أن يسبب المرض تركها المدرسة، لكن عفاف كانت قد تميزت عنهما بالشقاوة والشغف باللعب، وقلة الاهتمام بمواعيد المدرسة، ولسوء حظها أصيبت بمرضٍ سارٍ في السنة الثالثة، حينها منعت من متابعة الدراسة، لكن أخيراً شفيت منه بعد عدة سنوات وعلى هذا انقطعت نهائياً عن المدرسة، بعد أن عاشت خلال سنوات مرضها

الثلاث أقرب للموت منها إلى الحياة... لكن قدرة الله على كل شيء شفتها، ما أعاد البهجة لوالديها بشفاء ابنتهما... لكنها ما أن شفيت حتى تركت المدرسة...

خلال فترة مرض عفاف فُرض على راضي، بل أصبح من واجبه مرافقة سهاد والسير معها يومياً إلى المدرسة، سواء في الذهاب أو العودة... كانت المدرسة بعيدة عن بيتيهما إلى حدٍ ما... طريقهما واحد، ووقت الذهاب والعودة واحد، وكان لا بد من أن يسيرا معاً، وليس غريباً ذلك فهما كما قلنا أبناء الخالات ومن الحيّ نفسه.

في ذلك الحين لم تكن سهاد سوى طفلة صغيرة ليس لعقلها القدرة على التفريق بين الغنى والفقر، أو أنّ الأمر لم يكن يهمها في ذلك الوقت... يسير الاثنان في طريق المدرسة معاً كل صباح مع بقية الأطفال... على الطريق الترابي الموحل شتاءً...

يصل راضي إلى باحة المدرسة بحذائه المقطع كأكثر تلاميذ القرية... ثم يدخل معهم إلى الفصل الذي يحوي أكثر من صف ويدرّس فيه أستاذ واحد لكل مرحلتين أو أكثر في الفصل نفسه، لسببين أولهما قلة المعلمين، وقلة التلاميذ، وقبل الدخول إلى غرف الصفوف، ينادي الأستاذ بالتلاميذ:

_ أفرغوا أحذيتكم من الماء خارج الباب قبل الدخول... فيضحك راضي بينه وبين نفسه ويقول:

_ الحمد لله حذائي يفرغ نفسه تلقائياً... لقد أصبح نعله أشبه بغربال والدي! وسعيد الحظ ذاك الذي يلبس برجليه جزمة مطاطية.

تأخذ سهاد معها في جيب مريولتها صباح كل يوم قطعة من البسكويت أو الحلوى المغطاة بالشوكولاته والمغلفة بورق الألمنيوم، يجلبها والدها معه من بلاد الغربة؛ وبالمقابل يدفع الفقر راضي ليحشو جيبه ببعض الحُمّص المسّلوق الذي أضيف إليه بعض الملح فيملأه ليتسلى به في وقت الفسحة.

ما كان يجعل جيب مريولته مبتلة بالماء دوماً... مع هذا لم يكن يشعر بالحرج، لقد كان أكثر تلاميذ المدرسة من أطفال القرية مثله...

ينتظر راضي قرع جرس الفرصة بين الدروس... ليأكل من حمّصه وعيناه تنظران بشهية إلى البسكويتة السمراء التي تقضم منها سهاد... فيأكل معها بعينيه... لم تكن تجهل سهاد غايته من التحديق بها وهي تأكل، لذلك تقتطع أحياناً من أسفلها قطعة صغيرة تقدمها له، وفي الوقت نفسه يمنح رفيقته قبضة صغيرة من حمّصه المملح مقابل تلك القطعة الصغيرة من البسكويتة التي كان يتلذذ بطعمها أكثر من طعم حمّصه، بينما كانت سهاد تسعد بطعم الحّمص أكثر من البسكويته التي قايضتها به...

أثناء العطلات كانت سهاد تزور بيت خالتها أم راضي بشوق شديد، لتلعب مع زميلها راضي وإخوته، ما بين الحديقة تحت الأشجار، وبين الخراف والدجاج في حوش البيت. كانت تحس بسعادة غامرة هناك مع وجود البساطة الواضحة في بيت خالتها الفقير التي لا تعرف سبباً لها، وإن كانت

هي لا تعرف من الفقر سوى اسمه... لا يهمها أن ترى الفرق بين أناقة لبسها، وما يلبس بقية أطفال القرية في المدرسة.

لقد كانت تتميز عن رفاقها التلاميذ بنظافة ثوبها المدرسي الرسمي (المريولة السوداء)، وهو الزي الموحّد لوناً... ولم تكن النظافة أو الأناقة في تلك الأيام تمنع التلاميذ من متابعة الدراسة... المدرسون يشددون على قص الشعر وقص الأظافر، والنظافة العامة... لكنهم أدرى بحال سكان القرية!

تلبس هي وبعض الفتيات الموسرات كالعادة مريولة سوداء حالكة كالليل يزينها عند الرقبة ياقة بيضاء من القماش مزركشة (الزي المدرسي تلك الأيام)، فتعطيها جمالاً على جمال طفولتها البريئة.

ويلبس راضي مثلها أيضاً مريولة سوداء، لكن لونها مع كثر الاستعمال تحول إلى لون الجرذان التي لا تفارق بيتهم... مريولة آلت إليه بالإرث عن إخوته، الذين تداولوا على لبسها عدداً من السنوات حين لم تطل إقامتهم في المدرسة... لعدة أسباب أهمها عدم رغبتهم بالتعلم، والتحاقهم بأعمال الزراعة لمساعدة والدهم... فكانوا يرون فيه سيد الرجال عندما يحمل أدواتها، فيتمنون أن يكبروا ليكونوا مثله.

ومع المدة تركوا المدرسة واحداً واحداً، فعندما يصبح أحدهم كما يقال: (يفك الخط) تكون هي مرحلة أعلى الشهادات بالنسبة له، فيجد بذلك الكفاية لمستقبله في الزراعة... أما راضي الذي كان طامحاً لأكثر من مصائر إخوانه... فكان عكسهم تماماً... أشد ما يخافه أن يلزمه والده بترك

المدرسة... أحبّها وأحبّ العلم، وأحبّ الأساتذه بثيابهم الأنيقة النظيفة... وكان ما شجعه على ذلك؛ زيارة أحد المهندسين الزراعيين لقريتهم للبحث عن سبل لتطوير الزراعة في القرية، وتقديم النصائح للفلاحين، وتوجيههم نحو أفضل الطرق لتحسين منتجاتهم.

لشد ما أُعجب راضي بالقبعة البلاسيتكية البيضاء التي يضعها المهندس على رأسه... وما كان يقدم إليه من احترام له من قبل أهل القرية، وكم كانت تدغدغ أحلام راضي كلمة:

_ يا باش مهندس... فيحس بنشوة تعم في جسده وكأنه وصل إلى تلك المرتبة! ومن الناحية الأخرى من خلال رفقته لابنة خالته سهاد، كان ينتاب عقله شعورٌ سنه أصغر من أن يدري كنهه! وهو الطفل الذي لم يتجاوز العاشرة في تلك الأيام... لنقل نحن أنه أحبها كرفيقة وقريبة وصديقة، ويبدو أن هذا السبب أصبح من أهم الأسباب التي جعلته يرغب في المدرسة ويحبها.

قبل أن نخرج من هذا الفصل علينا أن نعود قليلاً ونتابع حياة راضي وبؤس أسرته المادية، ونتعرف على ذلك من خلال ملبسه...

كانت مريولته لا تتبدل حتى مع حلول العام المدرسي التالي... ربما يخلعها لإعادة ترميمها ورثيها أو رقعها، المريولة التي كانت تتميز بكثرة الرقاع على رقاعها، ومن المؤكد أن كل طفل من إخوته ترك بصمته عليها من رقاع أو رثوات...

بدأت سُهاد تكبر، وراضي يكبر معها... كانت الفتاة تزداد جمالاً وصحة، وراضي يزداد طولاً ونحافة.

والدها يجلب معه كلما عاد من سفره ما هو نادر في محلات وبقالات القرية من أزياء ومعلبات وأحذية... أمّا والد راضي فكان يتحف أسرته باللحم مرة في السنة... أحياناً في فصل الخريف عند (ذبح المعاليف)... خراف تسمّن لعمل الدّهن (قاورما)، وأحياناً عندما تُكسر رجل شاة لا أمل من شفائها، فيرى والده أن من الخير للشاة ذبحها وإطعامها لأسرته، أفضل من أن تنفُق وتأكلها الوحوش... وإن كان لا يحدث هذا الأمر دائماً، ولكن ليس بالنادر... أما الفتاة فهي من الجنس الآخر المعروف أنه ينمو بسرعة كما يقال عن الأنثى... فمع الأيام فاقته صحة وسمنة... ومع الاعتذار لجنسهن لذِكر المثل الشعبي المتداول في بعض الأرياف العربية (الفتاة كالمزبلة... تكبر بسرعة)!

كبرت سهاد وبدأت تستوعب ما يدور حولها، شعرت بفقر ابن خالتها، جيداً، وتحول موقفها منه إلى شفقة وعطف... ما إن أصبحا معاً في السنة السادسة أي الأخيرة من المرحلة الابتدائية، وكانت قد وصلت إلى العمر الذي يقربها من البلوغ، وأصبحت تميز فيه الغث من السمين وتفرق بين سكن أهلها وبيت خالتها، حتى بدأت تبتعد عنه... وتتحاشى اللعب معه، لقد تغيرت اليوم!

كان راضي لا يجهل أن آباء بعض التلاميذ في مدرسة القرية الذين أسعفهم الحظ بالسفر؛ قد انعكس حال أولادهم تبعاً لهم نحو الأفضل، (وإنّ الطيور على أشكالها تقع) لذلك بدأت تصادق بناتهم وتبتعد عنه، فرض عليها ذلك، سخرية صديقاتها من ثيابه الرثة، وحياته بين الأبقار والأغنام.

لم تعد تنتظر مروره... بل أصبحت هي تمر على زميلاتها مبكرة صباح كل يوم، كي تتحاشى السير معه... خلاصة القول إنها بدأت تخجل منه ومن السير معهي... وبالتالي بدأت تقلل من زيارة بيت خالتها تدريجياً، وفي النهاية قطعت زياراتها تماماً.

وكما قلنا إن أكثر ما كان يخجلها منه، هي ثيابه المرقعة، أضف إلى أنها بدأت ترى أن الحياة مقرفة في بيت خالتها، الذي يعج بالحشرات والذباب لكثرة المواشي التي تكاد تشارك الجميع فرشهم.

كبرت الفتاة وأصبحت تميز جيداً بين بيت أهلها، النظيف المتحضر نوعاً ما... البيت الذي جعلت منه غربة والدها قطعة من الجنة، بالقياس إلى

بيت خالتها الريفي الذي يعج بالحيوانات، المبني من الطين... مثله مثل بقية بيوت قريتها الفقيرة، القرية البسيطة التي تبدو وكأنها قرية بدائية جداً...
أخيراً انتهت المرحلة الابتدائية، وأصبح لا بد للناجحين من متابعة الدراسة الإعدادية في المدينة، في وقتٍ كانت مدارس القرى لا تحوي أكثر من الصف السادس الابتدائي، نهاية المرحلة.
هنا بدأت المرحلة الجديدة من التعليم... ومعها وصلت سهاد إلى سن البلوغ والصبا... كان هذا ما رآه والدها في شخصها... ما جعله يقع في حيرة أقلقته، وهو كيف ستكمل تعلمها حتى الثانوية وما بعدها؟! أخذ يقيس الأمر على نفسه ويقول لو أنني تابعت في الجامعة لكنت الآن أعمل مهندساً وليس تحت يد المهندسين، كان يحب العلم، لكنه الآن بات يخشى على ابنته من حياة المدينة وبهرجها... بدأ يبحث عن حل... لا يريد أن يحرم ابنته سهاد العلم... كعفاف التي اضطرت إلى ترك المدرسة...
التوءمان اللذان رزقه الله بهما ما زالا صغيرين لم يدخلا المدرسة بعد، كيف سيؤمن على ابنته في المدينة؟! وحار في الأمر... وبعد تفكير وجد أمامه الحل... إذاً لا بد من قريب يحرص عليها ويقف معها ويحميها... وليس أصلح من ابن خالتها راضي... وهو الحل الذي قرر أن يتبناه... كان راضي يضيق بتصرفاتها، وأحس بتغيرها نحوه، ومع ذلك لم يبالِ بالأمر لأنه أمر لا يستطيع تبديله.

أما هي فمع كل نفورها من رفقته لم تخرج من قفصه العاطفي... لم تكرهه... لم تعشقه... لقد كانت أفكارها دون هذه المرحلة التي تصيب جنسها أثناء سن المراهقة... لكن لديها شيئاً يشدها نحوه ولا تعرف كنهه!

ومن هنا تبدأ أحداث قصتنا، بعد أن أطلنا في التفاصيل قليلاً؛ كي يعيش القارئ ما كانت تعكسه حياة القرية على أبطال قصتنا هذه، والتناقض المعيشي بين رفاهية الغني وبؤس الفقير.

كما لا شك أن الكثير من القراء ضمن مجتمعنا العربي عانى سابقاً، أو ما زال يعاني من هذه الفروق من خلال بيئتنا الريفية أو حتى قاطني الأحياء الشعبية في المدن... مجتمعنا الذي ورث تركته عن المستعمر الغاشم في القرون الماضية... فأفسده في دينه ودنياه.

الفصل الثالث

مدرسة جديدة

انتهت المرحلة التعليمية الأولى لهما في القرية كما قلنا، ومع الحل الذي اختاره، قرر فؤاد أن يرسل ابنته إلى المدينة لتُكمل تعليمها حتى نهاية جميع المراحل الدراسية، إلى أن تتخرج من الجامعة وفي نيته أن يتركها تدرس المراحل العليا أيضاً إن رغبت، هذا إذا تمكنت من الحصول على درجات تؤهلها لدراسة العلوم الحقيقية كالطب والهندسة وغيرها... إذ لا يريد أن يقوقعها في علوم التاريخ والجغرافيا والشريعة والدين...

لم يوافق رأي أقاربه من أهل القرية، الذين كانوا يشيرون عليه أن يقتصر بتعليم ابنته على معاهد تحفيظ القرآن والحديث فقط.

ولم يكن فؤاد متعصباً دينياً ولا يؤمن بكره الآخر من غير دينه... تربى في مجتمع تشاركي في هذه القرية المختلطة بين المسلمين وبعض مذاهبهم، والمسيحيين وبعض مذاهبهم أيضاً...

بيوت القرية متلاصقة... أراضيها متجاورة... بيادرها شبه مشتركة... وأهم ما فيها معابدها المتقاربة بحكم حياة التآلف بينهم وصغر القرية... يهنئون

بعضهم بأعيادهم... يباركون لبعضهم بأفراحهم... يشاركون بعضهم بأحزانهم...

وما يذكر في هذا المجال... كانت الكنيسة قديمة وصغيرة، حيث بنيت في القرية منذ مئات السنين أيام كان عدد سكان القرية بسيط جداً، وكان المسجد قديماً في القرية واليوم ضايق بالمصلين، ولم يعد يتسع لهم.

وكانا يقعان متقاربين في جهة واحدة من القرية...

يذكر أنه في أحد الأيام اجتمع أهل القرية وقرروا توسيع المعبدين؛ عندها وقف إمام الجامع يطلب من أصحاب الأراضي التي تجاور بيوت الله... الجامع والكنيسة أن يسمحوا بتوسيعهما على أراضيهما مقابل ثمن رمزي تستطيع الهيئة الدينية جمعه ودفعه لأصحاب الأراضي.

سألوا صاحب الأرض المجاورة للمسجد وهو الذي عرفناه في البداية وهو أبو يوسف... كان تلك الحادثة قبل سفره إلى أمريكا الجنوبية... وقف حينذاك وقال:

_ خذوا مجاناً ما شئتم من أرضي لتوسعة المسجد تكفي لصلاة مسلمي القرية ومسيحييها فيه...

بعدها وقف الرجل صاحب الأرض المجاورة للكنيسة وقال:

_ خذوا من أرضي مساحة كافية لتوسعة الكنيسة ليصلي فيها مسيحيو القرية ومسلموها...

هذه صورة بسيطة عن الحياة الاجتماعية وما اتصف به أهل القرية من حب وتآلف بينهم.

لا بد من نبذة قصيرة عن واقع القرية:

مرض إمام المسجد وهو الذي عرفناه بوالد سعاد زوجة فؤاد (أي جد سهاد وسعاد لأمهما)... ولهذا السبب، توقف ذلك اليوم عن إمامة مسلمي القرية والصلاة فيهم... وكان لا بد من رجل يستطيع أن يقوم مكانه، ويتفرغ لهذه المهمة... فكلف أحد الرجال من أبناء القرية، أمّ بهم ذلك اليوم، ووقف بين المصلين يؤدي فروضه... ما إن انتهت الصلاة حتى قام رجل من بين المصلين كان يصلي معهم دون أن ينتبه له أحد ممن حوله، فصعد إلى المنبر، ونظر طويلاً إلى المصلين حتى أنهى آخر واحد منهم فروضه، ثم قال:

_ أيها المسلمون... لا أحد يخرج من المسجد قبل سماع قولي، وأخذ يدعو الناس إلى ما سوّل له عقله من نوايا، وما أخفى معها من فكر يتبناه... رفع يديه إلى السماء وقال:

_ هل تسمعونني يا معشر الإسلام... في هذه القرية يهان الدين وتهان أحكام الله، ويدعى للضلال... الحكمة يا أمة محمد... الحكمة فيما أرى... حكموا عقولكم في دين الله... صمت الجميع... ينتظرون أن يكمل ما يريد قوله حتى قال:

_ إن ما يحدث في قريتكم من تصرفات مع جيرانكم من غير ملتكم، لا يقبلها شرع الله... ومع صمت الحضور؛ صمت هو لحظات حتى تأكد أن الجميع أخذ ينصت له... ثم أردف: أنا لا أريد نشر الخلاف بينكم وبين جيرانكم المسيحيين في هذه القرية، ولكن أنتم تتصرفون بما لا يجوز

شرعاً... يجب أن تتوقفوا عن تهنئتهم بأعيادهم وحضور مآدبهم، ومشاركتهم حفلاتهم وجنائزهم...

وقبل أن يكمل خطبته قفز الإمام المريض، الذي بالكاد كان يستطيع الصلاة... قفز إلى المنبر وجره من ثوبه حتى أعانه الله فأنزله بالقوة وهو يقول بصوته الواهن:

_ أيها المفتري على دين الله... من دعاك لتقول هذا؟ ولماذا تفرض أفكارك على أناس تعايشت قروناً بعد قرون... تجاورت... تهادنت... جمعهم الخير والرحمة! وما دليلك؟ رد عليه الرجل:

_ بل أنت المفتري على شرع الله وسنته يا من تسمي نفسك إماماً!

كاد أن يتحول الأمر بينهما إلى شجار داخل بيت الله، إلا أن أحد الحضور اقترح عليهم إقامة مناظرة بينهما أمام الجميع، على أن تكون بالأدلة والبراهين... وأن يكون كتاب الله هو الحكم بينهما... وضعا موعداً لها قبيل عيد الأضحى حيث كان يصادف حين ذاك قبيل عيد الميلاد بأيام ويأتي كل منهم بمن يدعمه بالدليل، والخاسر يرحل من القرية، حتى ولو كان الإمام ابن القرية الذي أنكر على الشيخ رهيب تحمسه لنشر الكره بين السكان، حينما سمعه يكفّر من يقيم علاقات اجتماعية بين مسلمي القرية وبين مسيحييها...الشيخ الذي قام هنا واعظاً بفرض فكره فجأة، ودون دعوة من أحد ممن في القرية! مع العلم أن إمام جامع القرية هو رجل

دين متمكن يفهم الإسلام على حقيقته... ودائماً يقول إن الوطن قطعة من أرض الله مانحها للجميع ووارثها من الجميع.

عند المناظرة كان النقاش بين إمام القرية وبين الشيخ رهيب من خلال الأدلة والبراهين من القرآن الكريم، وكان هذا الرجل يظهر التعصب بما يضمر من حقد وكره لكل ما هو غير مسلمٍ، وقد جرى الحوار بينهما بما أنزل الله من آيات الله كريمة.

تعمّد الشيخ رهيب في حواره أن يتخذ دليله سنة رسول الله (ص) والأحاديث النبوية الشريفة؛ ما بين صحيح النسائي والشيخان وبقية فقهاء الأمة الإسلامية، وكان رد إمام القرية ببعض آيات الله... وقول العالم الإسلامي محمد الغزالي:

_ إن من أهم أسباب ما وصل إليه الإسلام من فرقة وخلاف ترك آيات الله وعدم الإسناد على ما أرسل الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن، من التعاليم الداعية إلى صحيح الإيمان والتعامل مع الآخرين... ففي آيات الله الكثير التي تدعو الله إلى المحبة والتآخي بين صنوف البشر... ثم قال:

من يؤمن بالإسلام هو حر؛ ومن يؤمن بغيره من الأديان كذلك هو حر، وفي القرآن الكريم الدليل مثل (والباقيات الصالحات... الآية) المهم صلاح العمل والوصول به إلى الله بأية وسيلة، وإن الأدلة في آيات القرآن كثيرة... تلك التي لا تلغي الآخرين (لا إكراه في الدين.... ولو شاء ربك لآمن جميع

من في الأرض... من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر...) صدق الله العظيم في كل ما قال... ويقول الفقيه محمد الغزالي:

_ لقد هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث، ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة، ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين، ثم هجروا أسلوب المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخبطهم... وهذا ما أوصلنا إلى ما نحن فيه... هذه القرية سكنها الجميع منذ مئات السنين بجميع أطيافها... ولا يمكن طرد أحد منها... وسنبقى على ما نحن فيه إلى ما شاء ربك...

طلب منه الرحيل من القرية قبل أن يُفسد علاقاتهم الاجتماعية المشتركة، وهذا ما كان... لم يطل الأمر كثيراً حتى انتقل والد سعاد إلى رحمة الله بعد معاناة من المرض لم تطل كثيراً... وكان قبلها قد وافق على خطبة ابنته إلى المغترب فؤاد، وتزوجا بعد أشهر من وفاته.

الفصل الرابع

صفقة متعادلة

بالعودة إلى بعض أبطال روايتنا... كان القرار النهائي عند السيد فؤاد، هو إرسال ابنته إلى المدينة لتكمل تعليمها، وكان لا يأمن على بقائها وحدها في المدينة دون وجود من يرعاها بأنظاره على الأقل، ويدافع عنها إذا احتاج الأمر لذلك...

الأب يتخوف طبعاً من حدوث مكروهٍ ما لابنته إن أقامت وحدها في المدينة، لتكمل دراستها وليس معها من يصونها ويشرف عليها، أو أن تنزلق إلى هاوية مشينة من خلال صداقاتها لبعض الفاسدات دون أن تدري... أو دعاية مغرضة تمس شرفها أو كرامتها بأي سوء... تردد فؤاد كثيراً في البداية... ولكن رغبته الشديدة بتعليمها، دفعته لأن يتخذ قراراً حازماً، إضافة إلى معرفته برغبتها وشوقها لإتمام دراستها، فذهب على الفور إلى عديله أبي راضي بزيارة مفاجئة... وبعد السلام عليه، حاول استدراجه ليعرف رغبته إن كان يريد استكمال تعليم ابنه في المدينة، وهو على ثقة من أن حالتهم المادية لا تسمح ولكن كان يحمل الحل معه.

وبدأت المقابلة الودية بين الاثنين بأحاديث مختلفة... عن القرية والموسم والأمطار... الخ إلى أن بدأ أبو رامي بالحديث:

_ في الحقيقة جئت لأبارك لك بنجاح ولدك يا أبا راضي... ولكن لدي سؤال يحيرني... هل سترسل ابنك إلى المدينة ليكمل تعليمه؟

_ بارك الله بك يا أبا رامي، وأشكرك وقد علمت من راضي أن سهاد ابنتك نجحت أيضاً، ألف مبارك... أتمنى لها النجاح المتواصل وأن يرسل لها العريس الذي يسعدها... ثم تبسم قائلاً: ولكن لماذا تريدني أن أرسل ابني راضي إلى المدينة؟

_ أشكرك يا أبا راضي... إنما نجاح سهاد لم يكن متميزاً... (بالكاد شحطت نفسها نحو النجاح) أما ولدك راضي فقد علمت أنه تفوق، وكان الأول على تلاميذ القرية... إنما أسألك إن كنت سترسل ابنك إلى المدينة ليكمل تعليمه بعد أن نجح في امتحان الشهادة الابتدائية!

قهقه أبو راضي حتى بانت أسنانه السوداء وبينها السن الذهبي المصنع بيد أحد أولئك الذين كانوا يلفون قديماً على قرى الريف على دراجات نارية أو على البغال يدورون في أزقة القرية وينادون:

_ (مطهر أطفال... حلاق... ختّان أطفال وأناث... تركيب أسنان ذهبية...الخ) ولا بد لمن عاش جيل الخمسينيات ومطلع الستينيات في الريف العربي أنه لم ينسَ المغاربة... والغجر الذين كانوا يتنقلون بين القرى، ومن بينهم من كان إضافة لتلك المهن يستبدل جلود الماشية بالصابون والعطور والعلك المصنوع من الصمغ العربي المضاف إليه المسك... كانت أعمالهم كثيرة غير تغطية الأسنان بل يصل بهم الأمر

لتركيب وجبات فم كاملة، وفي الوقت نفسه يمتهنون حلاقة الشعر وختان الأطفال والبنات لمن يسمح أهلهن بذلك... وآخرون يصنعون المفارش من صوف الأغنام وكانت تسمى(العجميات) ومفردها عجمية.

رد عليه أبو راضي منتقداً نفسه لتسرعه بالضحك من سؤال فؤاد:

_ أعتذر منك يا أبا رامي... آسف جداً... وكأن هذا الرد أغضب أبو رامي الذي استاء من تصرفه وقال:

_ ليس في كلامي ما يضحك يا أبا راضي! ثم قام من مكانه يريد الخروج وقد بدا الغضب على وجهه واضحاً.

_ عفواً يا أخي أنا آسف جداً... أضحك على فقري وبؤسي... أرجوك اجلس، لقد أغضبتك أليس كذلك؟ وقام نحوه... ثم قبل رأسه طالباً السماح عن خطئه... ولم يتركه حتى قبل اعتذاره.

_ حسنٌ يا أبا راضي لم تجبني؟

_ أنت تعلم يا أخي حالتي المادية وما هي قدرتي... أحمد الله على أنني تحملت الجزء القليل من مصاريفه في الابتدائية وألف شكر على مساعداتك الخيرة له... من تعاون وقرطاسية والحمد لله أن الدولة تتحمل قيمة الكتب وألا لما استطعت أن أتحمل ثمنها!

_ حسنٌ... هناك في المدينة أيضاً لن تتكلف شيئاً... فقاطعه قائلاً:

_ سبحان الله... من أين لي أجور السكن والطعام لراضي في المدينة... وأثمان الكتب الدراسية، والقرطاسية والمواصلات... والثياب اللائقة؟! أنا أعرف المدينة ومتطلباتها الكثيرة.

_ لا لن تتكلف شيئاً من هذا... كل هذا مقدور عليه... لن أدعك تدفع قرشاً واحداً.

_ الله... الله، سيهبط كله من السماء؟!!

_ كلا بل أنا من سيتكفل به حتى يتخرج من الجامعة.

_ كرم حقيقي نُحسد عليه!! والمقابل؟

_ أولاً أساعد طالب علم وهذا أوصى به الرسول الكريم. وثانياً، تدفعني صلة القربى، أن أشفق عليه وأعلم أنه راغب في العلم ولا يتحقق هدفه بسبب المادة. وثالثاً، إن الإنفاق على طالب العلم الفقير يحمل خيرين الأول طلبه العلم والخير الثاني مساعدته في فقره... إن كنت لا تعلم... ففي مساعدة الفقير خير واحد فقط ومساعدة طالب العلم فيها خيران... وجزاء الخيرين أثمن وأفضل... ثم سيكون له فضل آخر، وهو أن يحافظ على ابنة خالته من أي شيء قد يمسها بسوء، فهي عرضه وفيها كرامته... وستذهب إلى مدينة لا نعرف أحد فيها.

_ نعم... نعم... سيكون هذا واجبه قبل كل شيء... سهاد ابنتنا وعرضنا وشرفنا... لا أمانع إن كانت هذه هي الغاية، وسأحاول أن أمده بما أستطيع عند بيع المحصول...

_ نعم... يتوجب عليك من الآن أن تمده بالكثير... لم يمهله كي يتكلم حين رآه يفتح فمه وكأنه سيعترض على شيء ما، فأكمل... عليك أن تمدهما بما تستطيع من الدعاء لهما بالنجاح والأمان والصحة... هذا ما عليك فعله فقط... وبهذا منك الكفاية لهما.

_ لكن كيف... سيسكنان معاً؟! مستحيل لا يجوز هذا... عندها تمتم أبو سهاد همساً:

_ متى تفكر بعقلك أيها الجاهل قبل أن تتكلم؟ ثم أردف بصوت فيه بعض السخرية المبطنة:

_ لا تخف هي أخته... لكن أبا راضي قاطعه على الفور:

_ ولكن الشيطان؟ الشيطان، يا أبا راضي لم يمت الشيطان... لم يدعه أبو رامي يكمل... قطع عليه حديثه قائلاً:

_ غداً سأذهب إلى المدينه وأسجلهما في إحدى المدارس الإعدادية في مركز المحافظة.

_ مختلطة؟؟ لكن والد سهاد تمتم دون أن يسمعه ما يقول:

_ ليت عقلك لا تختلط عليه الأمور... كلا لا يوجد اختلاط هناك... سأستأجر لابنتي مع بنات القرية اللاتي سيدرسن هناك... فهن حوالي خمس فتيات... وسأبحث لولدك عن سكن له مع مجموعة من الطلاب قرب سكن ابنتي... وربما أجد له ذلك مع أبناء القرية الذين سيدرسون في المدينة، وفي الوقت نفسه يتابعها ويحميها...

_ الله الله كم أنت مفكر يا عديلي وذكي؟! لولا بصيرتك المفتوحة لما تغلبت علينا عندما سافرت لجمع الرزق، لم ترضك حياتنا وذلّها... ليتني سمعت نصيحتك لي يومها...

_ كلها قسمة يا أبا راضي... ثم وقف وهو يودعه، ثم خرج، وقبل أن يخرج فؤاد من الباب تابع حديثه وسأله:

_ وابنتك الأخرى عفاف... ألن ترسلها أيضاً؟

_ كلا لا يحق لها... لقد خرجت من المدرسة في السنة الثالثة الابتدائية بسبب مرضها المفاجئ!

_ مسكينة ستبقى وحدها... أرسلها لتتعلم أيضاً، وما المشكلة أحوالك المادية طيبة... سجلها معهما في المستوى نفسه... ثم عاد يقول: كلا... كلا يجب أن تبقى لتساعد والدتها على حملها الثقيل... وهنا ضحك أبو رامي ولكنه لم يرد عليه، بل تمتم هامساً:

_ يا لسذاجتك يا عديلي وبساطة تفكيرك! عسى ألّا يكون ابنك مثلك... لكن لا أعتقد ذلك! فهو من المتفوقين... هذا هو الفرق بيني وبينك، لو كنت أحمل أفكارك لكنت مثلك أعمل في الأرض بشق النفس، وأنتظر الموسم حتى ألبس حذاء من المطاط تفوح رائحته مع تعرضه لحرارة الشمس.. وكان أبو رامي طيلة الزيارة يكلمه وهو يتأفف من رائحة رجليه، مع أنه يبدو قد غسلهما.

سُرَّ أبو رامي كثيراً، لأنه استطاع أن يقنع عديله بإرسال ولده للدراسة مع ابنته في المدينة؛ بالتالي شعر بالراحة والاطمئنان، مع أنه سيتكفل هو بنفقات راضي الدراسية والمعيشية، حتى نهاية جميع المراحل الدراسية وحتى الجامعة... أضف إلى ذلك سيقوم بالإنفاق أيضاً على مصاريفه الخاصة...

الفصل الخامس

حياة جديدة

في المدينة حياة جديدة لا يتعود عليها ابن القرية بصعوبة لأنه سيكتشف سهولة الحياة فيها... كل شيء جاهز... فقط تدفع هناك تحصل على ما تريد، عكس القرية كل ما تريد ستشقى حتى تصل إليه... فيها المادة مسيطرة، لا حديث سوى العمل... استثمار... تجارة... الحياة الاجتماعية مقيدة بالوقت... الكل مرتبط بعمله... هذا من الناحية الإيجابية... أما من الناحية السلبية... فتجد فيها الفوضى والفساد لمن لا يريد ألّا يتعب نفسه بالعمل... تناقض لأبعد الحدود... ثراء فاحش وفقر مدقع... قلما يعرف الجار جاره... شقق للإيجار... غرف للدعارة... المعبد قرب الخمارة... السكر... المخدرات، كل شيء متاح وإن كان غير مباح... الملاهي... المراقص... نوادي الرياضة وكل جديد لا يعرفه ابن الريف... فيها كل شيء مثير... سينما حدائق عامة...

أقامت سهاد مع عدد من الطالبات في غرفة استأجرها والدها لها ولبنات قريته... جمعهما بشقة صغيرة، ثم جلبهن مع أغراضهن بشاحنته الزراعية.

كما وجد لراضي أيضاً سكناً في شقة صغيرة في الشارع نفسه مع مجموعة قليلة من الطلاب الناجحين في القرية... استأجرها لهم فؤاد أيضاً...

وكالعادة بدأ الجميع بالذهاب إلى المدرسة صباح كل يوم دوام... أما راضي فكانت له مهمة إضافية، تحمّس لها في بداية الأمر، لكنه مجّها بعد فترة يسيرة!

أن ينتظر مرور الفتيات اللواتي تسير معهن سهاد، وبعد ذلك بدقائق يلحق بهن من بعيد ويتابعهن، بحيث تبقى أنظاره معلقة بابنة خالته، كانت الفتيات صغيرات السن، وفي بداية سن المراهقة... دائماً ينظر إليهن بأدب وخوف... الخوف من أن تفسر نظراته إلى حيث لا يريد، ما يؤدي ذلك إلى وقف تمويله من والدها.

كان لا يجرؤ على التصريح بما يعتمل في نفسه من عواطف... لكنه بات يشعر أنه في عالم جديد لا يراقبه فيه سوى ضميره... وكان يدفعه لأن يبعد تفكيره عن كل ما يشتعل في صدره من عواطف نحو ابنة خالته... ثم يحادث نفسه:

_ بعد هذا كله... هل سأترك سهاد لغيري؟ من ذا الذي سيتمتع بذلك الوجه الملائكي؟ يا إلهي كم تبدلت سهاد؟ ... لقد تحولت من طفلة صغيرة بسرعة إلى أنثى.

ينظر إليها حينما يراها تسير أمامه متحسراً على وضعه الذي كبله فيه زوج خالته بقيود قاسية! لذلك كان الخوف من أي خطأ يرتكبه نحوها ولو كان بسيطاً، يسبب له الاضطراب المستمر.

كان يعلم أن كلمة واحدة من سهاد لوالدها تتهمه فيها بأبسط الأشياء، قادرة على تحطيم آماله ومستقبله العلمي، وهو الطالب المجتهد الباحث بكل جوارحه عن أسلم الطرق للوصول إلى النجاح وبالذات الوصول إلى كلية الهندسة، حلمه، طموحٌ عالٍ يشغل فكره... عندما يخلو لنفسه... يضع إبهاميه تحت إبطيه، ثم يدفع ببطنه إلى الأمام ليبدو أنه صاحب كرش منفوخ... ثم يتمتم حالماً وكأنه يعيش واقع... كيف حالك يا باش مهندس؟ ثم يخاطب نفسه بفكره:

_ من سأل عن الباش مهندس راضي؟ يغرق في حلم الشهرة والثروة، هل يتنازل عن كل ما حلم به مقابل حلم لا يحق له حتى التفكير فيه... هي سهاد ابنة الثري... والدها ينفق عليه كل شيء يحتاجه، من ثياب مدرسية... حتى ملابسه الخارجية والداخلية كلها مدفوعة من قبل زوج خالته هذا... يحرص على نفسه ألَّا يُخطئ... وفي الوقت نفسه لا يريد أن تكون سهاد لغيره... لكنه يطمئن نفسه ويقول:

_ الفتاة ما زالت صغيرة على الزواج... وأنا متأكد أنّ أهلها لن يزوجوها بهذا السن الصغير، وحتى لو تقدم والدي ليخطبها لي من نفسه... سأرفض حتماً... بل أنا على ثقة أن والدها سيستخف بطلبي وربما يقطع تمويلي وأعود لأعمل مع والدي بمهنة الزراعة، وله الحق بذلك... أظن سيقول لي ساخراً:

_ من أين لك القدرة على أن تصرف عليها وعلى أسرة؟ أين ستُسكنها؟ من أين ستلبي لها طلباتها... استفاق من أحلامه، وتمتم وهو يتمعن بجمال قامتها من بعيد:

_ سأتدبر الأمر مع خالتي التي تحبني سأقول لأمي أن تسأل أختها سراً كي تحجزها لي، وتمنعها قبول من يتقدم لخطبتها. لكن ما يحيرني، هل ستحبني؟ هل ستقبل بي، كل ما أطلبه اليوم الوعد فقط من أمي، وبالتالي خالتي، وسأنتظر مهما كانت شروطهم للمدة...

لحظات ويستفيق إلى واقعه في كل مرة... تمتم:

_ يالك من غبي يا راضي... أمامك ما لا يقل عن عشرة سنوات حتى تتخرج كمهندس... صحيح ستتخرج، ولكن كمفلس في البداية! ثم كم ستحتاج من الوقت حتى تعمل؟ وتستطيع أن تؤمن السكن اللائق لك ولها؟

ابتلع ريقه وهو يقول يائساً:

_ لا أمل لك يا راضي! ستتزوج سهاد خلال تلك المدة... بل ربما يتقدم لها أحد الأثرياء أو أحد من موسري القرية ممن ساعدهم الحظ في الغربة... عندها ستخرج يا راضي بخفي حنين! الحل أن تزيل الفكرة من رأسك وتترك الأمر لمدبر هذا الكون.

الفصل السادس

عفاف

لنترك أمور سهاد وأحلام راضي وننتقل إلى أختها عفاف شريكتنا الأولى في أحداث الرواية وما دبر القدر لها...

بعد زيارة فؤاد والد سهاد لعديله بأيام، قرر السفر والعودة إلى عمله في الخليج... وكما علمنا أنه منذ أن وضعت زوجته التوءمين، أخذ يسافر وحده دون أن يأخذ سعاد والأولاد معه، فكان كلما دعاه الحنين لأسرته، يعود بإجازة محددة كي يعود ليتابع أحوال بيته وأطفاله... وفي الوقت نفسه على اتصال دائم بهم.

اليوم ملّت زوجته عظم المسؤولية التي تحملها على عاتقها وحدها، ما دفعها كي تقترح عليه الاكتفاء والاستقرار في القرية؛ وفتح أي مشروع في القرية يستعيض به عن السفر... أو حتى في المدينة؛ المهم أن يبقى قريباً من أسرته... لكنه كان دائماً يؤجل البحث في هذا الموضوع ويبرر التأجيل قائلاً:

_ حبيبتي ماذا سأعمل بمبلغ بسيط، لا يكاد يكفينا لفتح بقالة متواضعة... أنا رجل أعمال وصحتي ما زالت جيدة وسني صغير... أفضل أن

أتابع العمل حتى أستطيع جمع مبلغ من المال يكفي لتأسيس شركة خاصة أو مساهمة... أنت ترين أن عائلتنا زاد عددها بعد ولادتك الثانية بتوءمين جديدين... كما في المرة السابقة... هؤلاء جميعاً سيحتاجون فيما بعد لمصاريف هائلة، من مأكل إلى ملبس، ثم تعليم... وبعدها زواج... أنا معك الوحدة صعبة، ومسؤولية الأولاد أصعب، ولكن اصبري إن الله مع الصابرين... حبيبتي... لكل شيء آوان كما تعلمين يا بنة المرحوم الإمام.

في الحقيقة كانت تصرفات زوجته تدل على الوعي، وعلى أنها امرأة عاقلة... تزن الأمور بدقة... لذلك كانت في كل مرة تفتح الموضوع تصمت بعد جوابه، ولا تصر على رغبتها لأنّ رده منطقي وصريح... فتقول:

_ أنت محق فيما تقول... علينا أن ننتظر فرجاً من الله...

بقيت حياتهما كما هي خلال السنوات الطويلة ما بين وداع وفراق، وشوق ولقاء... حتى جاء اليوم الذي تقدم أحدهم خاطباً لابنتهما الثانية عفاف، توءم سهاد...

اتصلت سعاد بزوجها تطلب رأيه... ومع أن الأب كان رافضاً للفكرة لعدة أسباب، من بينها عدم وجوده في القرية، والأهم أن الوقت ما زال مبكراً على زواج عفاف، وأن الفتاة ما زالت صغيرة على الزواج... فقد كانت الفتاة في حقيقة الأمر تلتهب شوقاً للزواج لعدة أسباب... أهمها أن مستقبلها العلمي حدده مرضها السابق الذي أدى إلى عدم متابعة التعليم وبقيت

دون الابتدائية، ويبدو أنها هي لم تعد لها رغبة في الاستمرار بعد أن تخلفت عن رفيقاتها وأختها، وشعورها العام أن نهاية الفتاة هو الستر بالزواج.

كان الخاطب شاباً ثرياً جداً، اسمه بسام يقيم في القرية ويرتبط بأعمال والده الكثيرة في المدينة... وهو وحيد لوالديه، ووالده يمتلك عدداً من الشركات في المدينة والعديد من العقارات في القرية وأماكن أخرى...

وجدت عفاف في الشاب منتهى أحلامها في الزواج من شابٍ ثريّ، ووحيد لوالديه، ولا أحد يقاسمه ثروة أبيه... والأهم لا ينازعها أحد على حريتها في المنزل... لا يوجد زوجات إخوة وليس هناك من تغار منهن أو يغرن منها!

وافقت على الفور وأخذت تضغط على أمها بشتى الوسائل، حتى أقنعت والدها بالموافقة المبدئية على الزواج شريطة أن يُكتب الكتاب فقط ريثما يعود والدها من الغربة لتستكمل إجراءات الزواج.

دام الحوار بين الزوجين فؤاد وسعاد على الهاتف كثيراً... كانت الأم موافقة، وكان رفض الأب يعود لعدة أسباب، كما أسلفنا... سنها الصغير وعدم وجوده في القرية...

في النهاية بعد محاولات كثيرة من الأم والابنة تمت الخطبة في غيابه، وتم الاتفاق على زواج الفتاة في العام القادم... وعلى هذا قُرئت الفاتحة، وتمت الخطبة بحفل متواضع، لم يُدعَ إليه سوى الأهل والأقارب من الطرفين، أقيم الحفل في منزل الأب الذي بارك لابنته وعريسها ودعا لهما بالتوفيق، مع أنه كان في شوق لحضور خطبة ابنته عفاف، إلا أن ظروفه لم تسمح له.

بدأت زيارات بسام إلى بيت خطيبته تزداد، وأكثرها دون موعد مسبق مما أثقل كاهل الأم كثيراً... لكنها لم تظهر أي نفور أمامه... كان أهم ما يضايقها في زياراته، تقديم الضيافة له... وبسبب صغر القرية وعدم توفر جميع المواد الأساسية في جميع الأوقات... ومن المفروض أن تُكرم خطيب ابنتها في كل مرة يزورهم، لذلك كانت تضطر لأن تذبح دجاجة من القن وتطبخها في البيت وما يتبع ذلك من معاناة لها... وما يضطرها للقيام وحدها بنتفها وتنظيفها، ثم طبخها لتكريمه وتقديم الواجب له، بينما عفاف تجالسه وسهاد في المدينة لا تزورهم سوى مرة واحدة في الشهر...

ومن المعروف أن أعمال المنزل كثيرة جداً، وحاجة صغيريها إلى رعايتهما باستمرار... فجميع ذلك كان يثقل كاهلها.

ومع أنها محافظة إلى حدٍ ما ولا تحب الحرية المبالغ فيها، خاصة وأنها ابنة المرحوم إمام الجامع الوحيد في القرية... وما كان يزعجها أنها تضطر في أغلب الأحيان لأن تترك الشاب مرغمة مع ابنتها وحدهما بعيدين عن أنظارها ورقابتها.

حقيقة كان ذلك يقلقها ويوقعها في حيرة دائمة... هي لا تستطيع أن تطلب منه أن يقتصر زياراته على أوقات محددة... ثم أن المشكلة الأكثر تعقيداً، أنه يملك سيارة حديثة يأتي متى يشاء حتى ولو كان قادماً من عمله في المدينة، فكان أكثر الأحيان يفاجئهم بالحضور... وهي لا تجد من المنطق أن تمنعه من الجلوس مع خطيبته، خاصة بعد أن قُرئت الفاتحة وأعلنت خطبتهما

على نية الزواج بانتظار حضور الأب وبلوغها شرط الزواج المتفق عليه الذي اقترب موعده...

في البداية لم تلحظ سعاد في الشاب ما يعيبه خُلقاً ولا خلقاً لذلك خضعت للأمر...

بدأ الحب يدغدغ قلبي المخطوبيّن... لكن كان هناك فرق كبير بينهما من ناحية الانفتاح على الحرية... الشاب لا تخلو حياته من تجارب، فقد تجاوز العشرين من عمره، ويده مطلقة في مال أبيه... ينفق على لباسه وملذاته دون حساب... وبالمقابل كانت أفكار عفاف أقرب إلى أنها ما زالت طفلة صغيرة ولو أنها دخلت سن المراهقة، ومع أنها تربت في بيتٍ محافظٍ إلى حدٍ ما، لكن تنقصها ثقافة علم المدرسة... لذلك كانت كلماته اللطيفة تتغلغل في أعماق قلبها البريء من شوائب الخداع والنفاق، تصدق كل ما يقول... مع العلم أنه لم يكن يخدعها في شيء، صادق في كل حديثه، لكنه متحرر في أسلوب التعامل معها...

لكن هذه الحرية المطلقة في تصرفاته المتحررة من أية قيود اجتماعية كانت تزعج الأم كثيراً... خاصة عندما يغافل الأم أحياناً ليداعب خطيبته... يستغل لحظات قيام أمها لترد على الهاتف، فيختتطف قبلة، وإن قامت تفتح الباب حين يُقرع، يضع يده على كتفها... أمور لم تعتد الأم عليها، فلم ترضاها ابنة إمام جامع القرية المعروف بتمسكه بأهداب الدين، وأخلاقه العالية وقدرته على الحوار المنطقي والإقناع بصواب رأيه الرزين

المستند دوماً على العقل... كان هذا ما غرس بابنته من تلك الخصائل الحميدة التي اعتادت عليها وتمسكت بها... أما فؤاد زوجها، فمن المعروف عنه أنه لم يكن متشدداً... لذلك طلب من زوجته أن تسمح لها بحرية الملبس الحضاري والسفور المنطقي حسب رغبة العريس... وهذا ما لم ترضَ به سعاد، وبقيت على تمسكها بما تربت عليه.

أخيراً كان لابد لها من الحزم مع خطيب ابنتها بعد أن ضاقت بحركاته المبطنة، واستغلاله لفرص قلة انتباهها كي يتمادى في تصرفاته بأكثر من المألوف عندها...

وما أشد ما كان يزعجها عندما ترى عفاف سعيدة بمداعباته لها، وأنها لا تمانعه أو تزجره...

ربما كان ذلك لأنها مطمئنة إلى أنه بعد أشهر قليلة سيغدو زوجها... أو لأنها عديمة الخبرة...

تتكرر المواقف... ولم يردعه تأنيب حماته له أكثر من مرة، وما توجه له من ملاحظات قاسية في كل زيارة، على اعتبار أن ما يفعله بعيد عن عادات المجتمع في القرية والشرع، خاصة حينما تراه يجلس قرب ابنتها، ثم يتزحزح من مكانه ببطء حتى يلتصق بها، وأحياناً يتصنع الحديث فيضع يده على ركبتها أو على كتفها... كان يتصرف بحرية يظنها حضارية، وقد تكون عادية بالنسبة له... لكنها غير مألوفة في مجتمع هذه القرية... يلاصقها عند جلوسه قربها... يتحسس خديها في غفلة من الأم، أو يسرق

قبلة عجولة منهما كلما سنحت له الفرصة... أما هي فكانت تشعر بلذة وتحاول ردعه بدلال وغنج بتنحية يده وإمساكها والضغط عليها.

كان خوف الأم من سهولة نيله مثل تلك الفرص، وأن تؤدي إلى مزيد من العبث الشبابي ليوسع مسرح مداعباته لخطيبته... ومع أن الأم لم تكن تلاحظ في أكثر الأحيان سوى نهايات تلك التصرفات، حين عودتها العجولة، فتبتلع ريقها وتسكت، وأحياناً تتجاهل الأمر، كونها لا تريد إغضابه وبالتالي تتحاشى غضب ابنتها... وأحياناً تثور عليه بلطف... لكن ما إن تنتهي زيارته الطويلة، حتى تبدأ المشاحنات بينها وبين ابنتها، فتقدم لها دروساً عميقة في الأخلاق والإيمان،

كان أكثر ما يزعج الأم أنهما يتجهمان عند دخولها، وينظران في وجهي بعضيهما بابتسامة ساخرة تعني جيل متخلف! ويتمتم بصوت تكاد تسمعه الأم:

_ دقة قديمة... اليوم هي خطيبتي وغداً ستكون في أحضاني!

أخذت الأم تشدد مراقبتها... وككل أم تخاف من سقوط ابنتها في فخ الخطأ سواء بحسن النية أو سوئها... لذلك قررت عدم ترك المجال أمامهما مفتوحاً... لقد تعطلت بسببهما أكثر أعمالها المنزلية...

تجلس قبالتهما تحيك الصوف أو تطرز بالسنارة، وبعض الأشغال اليدوية... ما جعلها تهمل أعمال بيتها وأسرتها.

طبعاً كانت تتضايق من تضييع وقتها بسببهما؛ كما كانا يتضايقان من وجودها إلى أبعد الحدود.

اليوم حلّت الصاعقة هذه المرة مع دخولها إلى الصالون حيث كانا يجلسان، وصعقتها المفاجأة التي أرعبتها وأطارت بصوابها... جُنَّ جنونها عندما رأته يداعبها في أماكن حساسة من صدرها، وفي الوقت نفسه لم ترَ في عفاف ضيقاً من تصرفه، وأنها تمنعه بدلال لكن بلا ممانعة، وكأن الأمر يجد قبولاً عندها!

صمتت الأم مكرهة... اكتفت بإرسال ابنتها إلى عمل ضروري في المنزل يشغل الكثير من وقتها، وقررت ألّا تتصرف بشيء قبل أن تخبر زوجها، بعد أن لاح لها أن الحل هو بفسخ الخطبة.

انتظر العريس طويلاً عودة خطيبته من المهمة التي أرسلت لها... لكنه فهم من أنها أرسلتها لتبعدها عنه، فاستأذن وخرج... بعد هذه الحادثة لم يعد يستطيع الصبر وبدأ يحث الأم على الإسراع بعقد القران والزواج... بينما الأم كانت تستمهله ليعود والدها من غربته.

أحبته عفاف وسرها كلامه، وصدقت وعوده، وأُخذت بما كان يغدق عليها من هدايا، وبما كان يدغدغ عواطفها من كلامه الحلو اللطيف... لكن أهم ما كان يعجبها فيه، هي الرفاهية التي يعيش فيها، وتأمل أن تعيشها عنده... كانت ترى ظاهرها في فخامة سيارته وأناقة ثيابه... تعددت بالطبع زياراته، وبالتالي تكرر جلوس الأم معهما...

سمعت الأم صوت إحدى جاراتها تنادي: يا أم رامي... فخرجت مسرعة تستطلع الأمر، وكانت الفرصة له... بسرعة البرق حضنها وأخذ يقبلها بسرعة... وجاء دخول الأم مفاجئاً ليفوت عليه الفرصة وليشتعل أتون غضبها عليه... لم تكد تلمح هذا المنظر حتى زعقت بهما بأعلى صوتها وهي ترتجف غضباً وقالت:

_ هكذا يا بسام أهكذا تكون حرمة البيوت؟ لا احترام ولا حرمة لنا أو لها عندك؟

رد عليها بتأتأة من هول المفاجأة:

_ لكنها خطيبتي يا حماتي هذه... وقريباً سنتزوج...

_ نعم ولكنكما لم تتزوجا بعد... وقتذاك هي لك افعل ما تشاء بما حلل الشرع لك... انتظر حتى تصبح في بيتك... ثم صرخت بابنتها بغضب شديد:

_ أما أنت أيتها الغبية... لي كلام آخر معك...

ردت عليها وهي تدافع عن نفسها، وتتصنع البكاء:

_ هو من اقترب مني...

أراد تسوية الموقف قبل أن تتخذ حماته قراراً يحطم أحلامه... تقدم عندها نحو حماته وقبل يدها معتذراً:

_ نعم... أخطأت يا حماتي... وأعتذر منك وهي آخر مرة...

وبعد محاولات عديدة ووعود بالتوبة من التكرار واحترام البيت والبنت عفت عنه، وعن تصرفه على ألّا يكرر الأمر مرة أخرى... فقالت وقد خف غضبها:

_ حسن لن أمنعك من زيارتها... ولكن منذ الغد تزور خطيبتك مرتين في الأسبوع، ضمن وقت معين ولمدة محددة، ثم ترحل بعد الغداء مباشرة... هذه المرة سأتغاضى وسأسكت وأمري لله... لن أخبر والدها، أو أتصرف بما يليق بفعلك... ثم انتبه، إن لم يعجبك رأيي هذا ستسبقك جميع أغراضك إلى بيتك... بعدها لا تأمل بعروس لك عندنا.

كان تأثير دموع عفاف على الأم كبيراً مما هيج عواطفها، وزاد من شفقتها، خاصة عندما أخذت عفاف تبكي وتعتذر عنه وعن نفسها... لذلك لم تجد الأم مناصاً من التظاهر بالغضب فقالت مهددة:

_ للمرة الأخيرة يا عفاف أقول لك اصمتي... سيكون لي كلام آخر معك بعد قليل... خرجت عفاف من الصالة تنشج وتتأوه بصوتٍ مسموع؛ وجاءت الفرصة سانحة للأم التي انتفضت فجأة حين انفردت بخطيب ابنتها، فأخذت تصب جام غضبها عليه... ثم أمسكته من ياقته وهزته بعنف، وهددته قائلة:

_ اسمع يا بسام... لا يهمني أين وكيف عشت وعلى ماذا تربيت... تهمني ابنتي أولاً، وإذا تكرر الأمر منك، سأطردك شر طردة وأفسخ الخطبة... ثم ضمت قبضتها وهوت بيدها نحوه كمن يهدد بالضرب، مما اضطره لأن يتقدم

نحوها من جديد، ويكرر اعتذاره منها ويحاول تقبيل جبينها، وهنا ثارت براكينها... دفعته بيدها بقوة إلى الخلف... لو لم يوازن نفسه بسرعة لسقط على الأرض! وأخذت تصيح به:

_ ماذا تفعل أيها الغبي... ابتعد... ابتعد من هنا... هيا هيا.

وقف المسكين لحظات! وقد عصاه لسانه عن الرد، ثم أخذ يلوح بكفيه ويزم شفتيه متسائلاً:

_ يا إلهي ماذا فعلت؟! هل أجرمت... أردت الاعتذار منك فقط يا حماتي!

في النهاية لم يخرج بسام من بيت خطيبته حتى ضَمن رضاء حماته، بعد أن تعهد وأقسم لها بأن لا يتكرر الأمر وألّا يمسها، وأن يجلس بعيداً عنها، ويحدثها دون أن يلمسها... ثم قام وركب سيارته عائداً إلى بيته وهو يوازن بين فعلته المتسرعة وواجبه الاجتماعي... لكنه أدرك تعجله بالرحيل قبل أن يهدأ خاطرها... وأنْ كان من واجبه أن يبقى ويكرر اعتذاره حتى تقبل اعتذاره، وهو يعلم كيف ستكون ردة فعل الأم على ابنتها، في مثل تلك الحالات في مجتمع شبه منغلق كهذا.

ولكن حدث كما توقع... ما إن ابتعد بسام، حتى نادت الأم ابنتها عفاف وأمسكتها من شعرها وصرخت في وجهها:

_ لماذا؟ لماذا هذا التصرف يا عفاف؟ ألا تدرين أنك تغامرين بشرفك وسمعتنا؟ ألا تعلمين أنه قد يحطم مستقبلك إن استسلمت له... ألا تدرين إن تكررت تلك الحركات سيظن أنك رخيصة وسهلة المنال، ويستطيع أن

يصل إلى ما يريد منك، ثم يرميك بعدها رمية الكلاب، وفي خاطره أن من فرطت بنفسها هكذا لن تحافظ عليه مع غيره بعد الزواج! لماذا قبلت معه أن يلمسك؟ أنت صغيرة وستجدين من يرمي نفسه تحت قدميك فيما لو غضب بسام ورحل عنك... هل خفت أن يتركك؟

يا بنتي الحياة تحتاج إلى كرامة وصبر... لماذا؟ لماذا قبلت معه أن يتصرف بك هكذا؟! يا إلهي لو لم أدخل في الوقت المناسب... لكانت مصيبة...

ردت عفاف وهي تبكي:

_ لا يا أماه... أنت مخطئة... لن أجعله ينالني أبداً...

_ اخرسي لأنك غبية... أنت صغيرة... طفلة لا تفهمين واجبك... لكن الذنب ذنبي والخطأ خطئي عندما وافقتك وأقنعت أباك على خطبتك له في هذا السن... ألا تعلمين أنك عندما تستسلمين لشهواتك وتسمحين له أن يبدأ بعدها ستسمحين له أن يصل إلى ما يريد... ليت أباك كان هنا ورأى ما رأيت... لكنت الآن ترقدين في المستشفى أو في القبر... على جميع الأحوال سأتصل بوالدك ليرى رأيه بكما... ومع صمت عفاف المطبق ودموع البراءة التي تنساب على خديها كحبات لآلئ نقية... انتقلت معها عدوى الصمت والدموع إلى أمها لحظات... ثم خرجت عفاف عن صمتها خشية أن يتضاعف غضب أمها وتنعكس على حالتها الصحية... فهي تعاني من بعض أمراض مزمنة كالضغط ونقص التروية.

قامت من مكانها وبدأت تقبل يديها وتطلب صفحها، وتعدها بعدم تكرار ما حدث... والأهم بالنسبة للأم... جاءت تلك الحادثة فرجاً لها، من حيث حددت بسببها مواعيد زيارته إلى بيتها وأوقاتها... ولم تعد عشوائية كما في الماضي.

ظل بسام يستعيد الحادثة طوال الطريق وهو يفكر، وأحس أنّ الأم محقة بغضبها، ولكن ما أزعجه منها أنها بالغت بالتعبير بغضبها كثيراً وأهانته إلى درجة كبيرة... لكن القضية بنظره الخاص وعقله المتحرر لا تستدعي كل هذه الثورة والغضب... كان يبرر لنفسه ويقول:

شابٌ يقبّل خطيبته، أو يداعبها وفي بيت أبيها وأمها، هل هناك ما يستدعي كل هذا التشدد؟ ليتها تذهب إلى الحدائق العامة في المدن وترى... ماذا ستقول... حين ترى الشاب يقبّل خطيبته أو صديقته أو يسير وهو يطوق عنقها بيده... أو أنها تذهب إلى الحدائق الأوربية، فهناك ماذا ستقول عندما ترى ممارسة الجنس دون حياء أو خجل؟!

في الوقت نفسه أخذ يتمتم مستاءً ومتعجباً من ضعف خطيبته أمام رغبته!! واستسلامها لمداعباته بهذه السرعة... ويردد في نفسه ما فكرت به الأم وعاتبت ابنتها دون أن يدري... أما هو فكان يقول في نفسه:

_ الفتاة صغيرة السن وأستطيع أن أعجنها وأخبزها كما أشاء... عفاف شريفة ومن بيت شريف إلى درجة كبيرة... ولا أرى أنها من الفتيات المتحررات جداً؟ لا أعتقد أنّ فيها ما يشينها، ولدي من التجارب الكثير مع

حواء... إنما ما يزعجني ويقلقني لماذا تسلم نفسها بتلك البساطة؟ لماذ لم تمانع في تقبيلها؟ ومع هذا لا يعقل أن يكون السبب هو ماضياً مشيناً لها... أفكارٌ حائرة تُظهر له العراقيل والحلول معاً... ثم يخرج بنتيجة:

_ سأتحمل غضب أمها وعفويتها وتشددها... ثم يعود من جديد يبرر ضعفها أمامه فيقول:

_ الفتاة تسعى للخلاص من عزوبيتها ومن منزل أهلها، تريد أن تستقل وتعيش امرأة ذات كيان وحضور... تحلم ببيت وحرية مطلقة، وتتصرف بإرادتها دون إملاءات من أمها أو أبيها.

ثم قد تكون خائفة أن أتخلى عنها؟ وتخشى إن عاندتني أن أتركها لذلك لا تريد إغضابي.

أفكار متضاربة وخواطر كثيرة تمر في باله، مع ما يتآكل أمامه من مناظر الطريق، إلى أن تذكر دخول أمها المفاجئ فأردف يقول:

_ كان يجب أن أتوقع دخول الأم المفاجئ، لكنني لا أثق بقدرتي على الصبر أمام جنسهن... عليّ أن أسوّي الأمر مع حماتي بسرعة...

مرت الأيام على النهج نفسه الذي حددته الأم في مواعيد زيارته لهم، لكن بعدها أخذت زياراته تتباعد... ما أدخل الخوف على قلب الأم، والرعب في قلب البنت من أن يكون قد تغير عليهم... أو من أن يكون قد ضجر منهم...

في زياراته التالية لم يلحظا عليه شيئاً من ذلك... كل شيء كما تعودتا منه عليه خلال الفترة التي تلت تهديد الأم له وتنبيهه.

بدأت المياه تعود إلى مجاريها بينه وبين حماته المستقبلية، وكذلك بين الأم وابنتها، وهو يقلل من زياراته... وحين يجلس مع خطيبته تجلس الأم في المكان نفسه، بعيدة قليلاً عنهما... لم يعد يلاصق خطيبته أثناء الجلوس معها كما كان في السابق... ومع أن هذا كان يزعج عفاف كثيراً ويثير غضبها... أما هو فكان يقول في نفسه وأحياناً على مسمعها:

_ لماذا الحرمان إلى هذه الدرجة هل يعقل أن نبقى هكذا متباعدين؟ لا زواج ولا خروج معاً ولا قبلات... ها هي أمك تمنعنا أيضاً من الخروج معاً حتى إلى حديقة منزلكم! هذا لا يجوز يا عفاف... أحبك يا عفاف، نريد الجلوس وحدنا... نخطط لبناء مستقبلنا... نتناقش كيف نبني عش زوجيتنا... طيلة الجلسة يداي الاثنتان في حضني... أتكلم معك ووجهي في وجه أمك! فترد عليه بتمتمة تكاد أن تكون وشوشة:

_ وماذا في يدي يا بسام؟ اصبر... عندما نتزوج أكون ملكك، ولك وحدك وأنت لي وحدي... نعم هانت... عندما يعود والدي من سفره هذه المرة نعقد قراننا ونتزوج على الفور ثم تنهدت، وأخذت تدعو الله أن يستجيب لها ويحقق مطلبهما ويسعدهما في حياتهما.

مع مرور الأيام زاد حبها له وعشقته، وعشقها وأصبح كل مناها وأصبحت نور دنياه... تمر أيام وأشهر، ويضطر والدها أن يتأخر عن موعد العودة لأسباب طارئة، وترفض الأم أن يعقد القران دون وجود أبيها.

وبالمقابل بدأت تعمل على إرضائه، وتتصنع البرود في مسألة جلوسه ملاصقاً لابنتها، ولم تعد تعبر عن غضبها كما في السابق، ودفعها الوضع الحالي لتخفيف القيود عليهما خشية أن يقوم بفسخ الخطبة... خاصة أنّ الموعد المتفق عليه حل وتجاوز، وباتت مسؤولية التأخير منهم...

على هذا بدأت تعود زيارات بسام إلى عشوائيتها، وأخذت تتقارب مواعيد زياراته لبيتهم أكثر من السابق، ولا حول للأم في مراقبتهما ولا قوة... ومع أن أعمال المنزل كثيرة جداً لكن رسخ في ظنها أن الدرس الأول ربما كان كافياً لإصلاح مسلكه...

ويبدو أن دوره قد جاء اليوم... بدأ يُظهر غضبه، وينفعل أمام الأم وابنتها لأتفه الأسباب، ويستعجلهما لعقد القران، حتى دون حضور الأب... إلا أن الأم كانت ترفض بشدة وتستمهله، وفي النهاية أخذت تخيره بين الصبر والانتظار أو فسخ الخطبة... فيبتلع ريقه ويسكت على مضض وكأنه في نفسه قرر شيئاً ما؟!

جاء أحد الأيام في زيارة كعادته... واستغل غياب الأم في حديقة منزلها، لكنها لاحظت وجود سيارته قرب المنزل فهرعت للدخول بسرعة...

ثارت ثورتها عندما وجدتهما في وضع غير لائق... يضمها إلى صدره بقوة، ويده تعبث بجسدها، بينما عفاف تحاول التملص منه وهي تشعر بالرعب من حركته... جُنَّ جنون الأم... ضربته بعصا مكنسة كانت تحملها بيدها تلك اللحظة... وقفت تغلي وهي تنظر إليه... الشرر يكاد أن يتطاير من عينيها، كما يبدو أن صبرها نفد وفقدت أعصابها... صاحت به:

_ هيا اخرج من هنا أيها القذر...

ونظرت إلى بندقية صيد معلقة على جدار الصالون، ثم نقلت نظراتها إليه! هنا شعر أن موقفه لا يحتمل التأني... توجه نحو الباب وقال:

_ لم أخطئ كنت أتصرف بحقي... الكتاب مكتوب، وأنتم أخلفتم بمواعيدكم، وما تقومين به هو الخطأ بعينه، وأنا متنازل عن الطبل والزمر، وحقوقكم وصلت كاملة، من مهر وصيغة وكل شروطكم...إلخ، ليذهب بعدها الحفل والرقص إلى الجحيم... سأرسل لكما الآن من أهلي بضع نساء يقدن زوجتي إلى بيتي، فهي في حكم ذلك. صاحت به:

_ يا لك من قذر... هذه هي طبائع الذين لا تهمهم كرامة ولا شرف... للمرة الأخيرة أقول لك... اخرج وكف بلاءك عنا... هيا اخرج، ثم تقدمت نحوه ودفعته نحو الباب... لقد طُرد هذه المرة شر طردة، وأنذرته وهي تغلي غضباً بعدم دخول المنزل... فرد عليها مباشرة:

_ تطردينني من منزلك يا أم رامي... أقسم أنك ستندمين...

_ أتهددني أيها المنحل؟

_ لا يا بنة إمام الجامع... بل أنبهك على الخسارة التي أوقعت نفسك وابنتك فيها...

_ ابنة إمام الجامع شرف أعتز به وتتمناه كل ابنة أصل...

_ لا أعيرك بأبيك فهو في الجنة ويستحق أن يُرحم... أعيرك بجهلك بأصول الحياة، والواجب الذي لا تعرفينه والمفقود عندك... إمام الجامع أنت لا تتشبهين به، فهو يقدر حقوق الناس... هل كان يعيبه أن يزوج ابنته دون مدعوين ومعازيم ونحر ذبائح، وتكاليف لا داعي لها...

_ اخرج قبل أن يسمعنا الجيران... لن أزيد... اطمئن... ستعاد إليك جميع هداياك...

_ جاهلة والله... لا تهمك سعادة ابنتك! والدي يمتلك ربع أراضي القرية ولديه شركات وعقارات في المدينة، وأنا مديرها، والمتصرف بها اليوم... وستؤول إليّ في نهاية الأمر...

_ اسمع حتى ولو كنت تبيض جواهر؟ لا أريدك أن تدخل منزلي ثانية...

_ سترين يا أم رامي... أكثر من ألف فتاة يتمنين الزواج مني...

_ اذهب إليهن وانتقِ منهن من تكون مثلك، وترضى برعونتك... نعم ستجد الكثير ممن على شاكلتك، ولا تعد إلى بيتنا أبداً... أكرر لا عروس لك عندنا بعد اليوم...

خرج بسام وما إن أصبحت قدمه الثانية خارج الباب، حتى ارتج المكان بصفقه بكامل قوتها، وقالت بصوت أقرب للصراخ:

_ (درب يسد ولا يرد) أيها المنحل...

خرج بسام غاضباً وعقله يضطرب من الموقف الذي كان فيه... أحس بالإهانة... أراد التصرف بسرعة كي يثبت لها أنه لن يرفض من أي فتاة أو أن هناك من يصد في وجهه من أهلها.

لم يكد يمضي ذلك اليوم حتى كان يقرع أحد بيوت الحي نفسه، ترافقه والدته وأخواته لطلب يد فتاة أخرى قدره أرسله لها، وحتى قبل أن تعاد له هداياه من بيت أبي رامي!

الفصل السابع

سقوط الحلم

صباح اليوم التالي طلبت والدة عفاف حضور أحد أقاربها، بعد أن جمعت في الليلة السابقة جميع ما أهدى بسام إليهم، وإلى عفاف أثناء فترة الخطبة، وجميع ما قدم لعفاف من نقود، ثم أرسلت كل ذلك معه ليعيدها لبسام...
فسخت الخطبة، وفي الوقت نفسه عاقبت ابنتها بالضرب الموجع والتوبيخ! مع النصائح التي فات أوانها... لو، لو، لو... وأنت غبية ووقحة ولا تستحقين التكريم... ومع أنها أخذت تدافع عن نفسها قائلة:

_ ما إن فتحت الباب ودخل إلى الصالة... حتى قال:

_ الحمد لله أمك في الحديقة، ولم يمهلني حتى أرد، بل حضنني بكلتا يديه وأغلق فمي بفمه...

_ المهم رحل وعليك نسيانه.

استسلمت عفاف إلى قدرها... لم تتنازل عن الخطبة والخطيب بسهولة، لكن الأم فرضت ذلك عليها على الرغم منها.
تدخل الأقارب من الطرفين، لإعادة المياه إلى مجاريها لكن بقيت الأم مصرة على موقفها حتى النهاية وكان ردها عليهم:

_ أنا لن أغامر بشرف ابنتي مع هذا المنافق وأرفض أن لا يقام حفل زواج لابنتي إلا بحضور والدها، كما لن أتركه يعبث بأخلاق ابنتي وشرفها بحجة أنه خطيبها... ثم قررت أن تخبر زوجها بالأمر.

وهناك في الطرف البعيد من روايتنا... وقع فؤاد زوجها في مشكلات مالية كبيرة لعدة أسباب، من بينها ركود في المبيعات إلى درجة لا تحتمل... أدى ذلك في النهاية إلى إفلاس الشركة التي يعمل فيها وفي الوقت نفسه كان شريكاً بنسبة لا بأس بها برأس المال.

ومع أنه كان يتمنى العودة إلى بلده بأقرب وقت... لكن المشكلة الكبيرة التي واجهته، أنه لا يستطيع أن يترك أتعابه ويغادر البلاد، مما اضطره لتأجيل سفره حتى تنتهي القضية وتباع معدات الشركة، وأصولها بحيث يأخذ حصته منها.

ترددت زوجته قبل أن تخبره بفسخ خطبة ابنته في وقت حدوثها، فهي لا تريد أن تشغل باله بقضية جانبية، ولا تريد أن تراكم عليه المشكلات فوق ما يعانيه من قضايا في غربته.

في أحد الأيام أخبرها على الهاتف أن الأمور آخذة طريقها إلى الحل، عندها ارتأت أن تخبره بما حصل... اتصلت هاتفياً بزوجها لتطمئن عنه وفي الوقت نفسه تطلعه على الجديد في مسألة عفاف:

_ حبيبي كيف حالك... متى العودة بإذن الله؟

_ قريباً... أحاول أن أجمع ما تبقى من ديون للشركة لآخذ حصتي منها... هل هناك ضرورة؟

_ كلا... كلا، لا تشغل بالك حبيبي، ولكن باختصار فسخت خطبة عفاف من بسام.

_ أُفٍ... لماذا؟ ما الذي حدث؟ أعرف عقلية عفاف... مؤكد ادعت أنها لم تعد تحبه، أليس كذلك؟ أو أن هناك سبباً غير هذا؟

_ نعم هناك عدة أسباب...

_ هاتي أولها...

بدأت تخبره بالقصة بهدوء، لكنها لم تستطِع بل انفجرت غاضبة في النهاية... أخذت تشرح له الأمر بعصبية شديدة، وتقول:

_ لقد رأيتهما أكثر من مرة في وضعٍ مخلٍ بالأدب...

_ أُفٍ... ألهذه الدرجة؟!

_ نعم وأكثر...

_ شغلتِ أفكاري هاتي لنرى... ماذا كانا يفعلان؟ أخبريني بالله عليكِ؟

_ رأيته في المرة الأولى يقبلها...

_ ثم؟...

_ يداعبها على صدرها... ثم يجلسها على ركبته... على الفور حذرتهما وأنذرتهما... و و و...

أسكتها محاولاً مقاطعتها وهو يسمعها تغلي من الغضب فقال بهدوء:

_ والثانية؟ لكن كلميني كما أكلمك بهدوء...

_ أيضاً... كرر فعلته بعد أن وعد ألّا يفعل ذلك ثانية، لكنه لم يصدق في وعده، وفي النهاية أصرّ على الزواج قبل حضورك، عندما علم أنك ستتأخر في العودة...

قاطعها، وقال ساخراً:

_ ثم ماذا بعد يا حرمنا المصون؟ ماذا حصل بعدها؟ وكيف تصرفتِ؟

_ لقد طردته شر طردة وعاقبت عفاف بالضرب المبرح... ثم أرسلت له مع أحد أقاربنا جميع هداياه إضافة إلى خاتميّ الخطبة.

_ الله... الله كم أنت قوية... لا حول ولا قوة إلا بالله... أتظنين أنك تعيشين في عصر الحريم يا بنة الماضي، وهل تظنين أن ما يصلح قبل نصف قرن يصلح اليوم؟ عندما كانت العروس لا ترى عريسها إلا في غرفة النوم!

_ أنا لا أطيق هذا التحلل الخلقي... أنت تعلم كيف كانت خطبتنا... لم أسمح لك حتى بلمسي طيلة الخطبة! بينما أنا سمحت لهما بالجلوس معاً واللقاء في بيتنا، وتغاضيت عن الكثير.

_ يا أم رامي اللطيفة... يا حبيبتي... أخذت من علاقتنا مقياساً... أليس كذلك؟ لا يوجد خاطب محبّ لا يعبر عن حبّه ببعض المداعبة... الأمر معك كان مختلفاً تماماً... أنت ابنة المرحوم جارنا إمام جامع الحيّ، ولم يمضِ على خطبتنا بضعة أيام حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى.

اسمعي يا بنة حواء... أنت تعيشين في مطلع القرن الحادي والعشرين وليس في القرن الماضي... قبلها؟ يا للعجب! الفتاة قُرئت فاتحتها عليه... والشاب مثقف وأعلنت الخطبة على الملأ، وقلت عنه... أنّ له حضوراً طيباً ولبقاً... وهو ثري ونشيط في عمله... يتابع مشاريع كبيرة في مركز المحافظة... رائع... ثري... شباب... والأهم من هذا كله... درس في أوربا المتحضرة وعاش حياة المدنية هناك وسكن المدينة المتفتحة هنا... ماذا كنت تتوقعين منه؟! هل تريدين أن يحمل سجادة الصلاة في جيبه عندما يزوركم ويئم الصلاة بك وبابنتك؟! ثم أردف ساخراً:

_ يا إلهي... قبّلها؟ يا للمصيبة يا سعاد... ألم يُقبّلك أنت أيضاً؟!

_ لا تستغرب... نعم حاول أن يقبلني وهو يناديني بأمه لكنني منعته...

_ اسمعي هذا الأمر عند هذا النوع من الشباب سيان... يالها من عقلية متأخرة تحملينها... ثم ابنتك ليست طفلة... لماذا لم تحرصي أنت على مراقبتها... ثم هل هناك فتاة عديمة الإحساس... خاصة عندما تعلم أن زواجها من عريسها بات قريباً على الأبواب.

حتماً لن تفرط في نفسها ولكن ربما ما اشتهاه هو تشتهيه هي... ألم تقولي لي بنفسك يوماً المثل الشعبي (الرجل بشهوة واحدة والمرأة بتسع وتسعين شهوة يمنعها الحياء من إظهارها)؟ ردت عليه:

_ ولكن... ولكن... لمَ هذه المحاضرة؟

إلّا أن زوجها قاطعها ولم يدعها تكمل وقال:

_ اسمعي يا حبيبتي... هيا دعي عفاف تتصل بخطيبها وتبدي حبها له... وأنّ ما حصل كان خارجاً عن إرادتها وهو حتماً إن كان يحبها، سيقبل عذرها... أنا أرى أنّ الشاب لا يقدر بثمن، فلا تفرطا به... ولو أنه جريء أكثر من شباب مجتمعنا، فكما قلت أنّه تربى في مجتمع متفتح... دعيها تخبره أيضاً أنها اتصلت بي ووسطتني كي تعود المياه إلى مجاريها، وعلمت بأنني قادم في أقرب وقت...

لكنها قاطعته ساخرةً:

_ هه... هه... فاتك المُولِد يا حبيبي، وأنا أحمد الله على ذلك... منذ أيام أرسل الشاب لنا بطاقة دعوة كيدية لحضور حفل زفافه... طبعاً كردة فعل منه ونكاية بنا، لقد خطب بسرعة وتزوج بسرعة من غِنوة ابنة قريتنا...

_ قسمة يا حبيبتي... مِمن؟ من هي العروس... يا لك من ظالمة...

_ يا إلهي! ماذا تقصد؟

_ أقصد الكثير، الكثير... الخيرة فيما اختاره الله، ادعي له بالتوفيق...

_ يا إلهي... صارحني بالله عليك ما الذي تعرفه عنهم؟

_ لا تسألي أكثر ودعي الأمور مستورة... البيوت أسرار...

_ الله... الله أتخفي عني يا حبيبي؟

_ كلا ولكن دعي الأمر بيننا... الفتاة أكثر من عشرينية وسمعتها بين الشباب فتاة عشوائية لعوب... صداقاتها عديدة من الجنسين... أهلها لا يتدخلون في خصوصياتها ولا يعترضونها في شيء! راضون بما تعمله من

تصرفات، بحجة الثقة التامة بها وبثقتها بنفسها، ويبدو أنها هي رجل البيت الذي يسعى... ووالدها شبه عاجز وأمها عاجزة ولا تعمل... البنت وحيدة والديها، وأعتقد أنهما لا يدريان بشيء من تصرفاتها خارج البيت! أو أنهما يتعاميان عما تفعله!

ردت زوجته بغضب مصطنع:

_ وما أدراك أنت؟ لا شك أنك أحد أصدقائها؟!

أجاب ساخراً:

_ نعم... نعم وكما تعلمين كل ليلة أسهر معها حتى الفجر... ثم قال بجدية: افهميني... أنا أسكن مع مجموعة من شباب القرية في شقة واحدة، وبيننا عزاب غير متزوجين... إذاً على نفسها جنت براقش... ليتحمل بسام ما أوقع نفسه... صدقيني هذا المأزق كبير جداً! من خلال أحاديث الشباب التي تتداول بينهم... كما أنتن النسوة تتداولن في أحاديثكن، والفرق بيننا أنكن لا تتركن ستراً مغطى... المهم ما لنا ومال الناس... طمئنيني عن ابنتنا الأخرى سهاد...

_ إنها بخير وتأتي إلينا في جميع العطل المدرسية والرسمية... يرافقها راضي ابن أختي... الشاب المؤدب الأمين...

_ على أية حال قريباً سأعود إليكم، وسأحكم وصولي يوم خميس لأمر في طريقي على سهاد وأحضرها معي ومن الممكن أن أجلب سيارتي معي

كذلك... وهناك احتمال أن أترك السفر نهائياً، وأفتح المشروع الذي ترغبين... هذا إذا لم أجد هنا شريكاً لتأسيس مشروع آخر عندي.

_ رافقتك السلامة ونراك بألف خير إن شاء الله... أتمنى ألّا تفكر بالسفر ثانية...

_ اسمعي حبيبتي سجلي عفاف في مدرسة القرية من جديد ربما تتلهى بالقراءة والكتابة وتنسى بسام...

_ حسنٌ فكرة جيدة... عساها تقبل ذلك لكن شجعها أنت أيضاً...

بعد فشل مشروع زواج عفاف وافقت على العودة إلى المدرسة... لتكمل المرحلة الابتدائية، ليس رغبة منها بالعلم... لكن لتملأ وقتها، وفي انتظار أن يرسل الله عريساً آخر...

علمنا خلال فترة وجود والد سهاد في القرية، وأثناء العودة من إحدى سفراته؛ اتفق مع والد راضي على أن يقدم العون لابنه في كل ما تحتاجه حياته الدراسية، وما يلحق بها من مصاريف شخصية....

لذلك سنعود إلى الوراء قليلاً إلى تلك الفترة حيث تركناه، كي نتابع مسيرة سهاد وراضي، خلال تلك الفترة التي تجاوزناها بحديثنا عن عفاف...

جدَّ فؤاد قبل انتهاء إجازته وعودته للذهاب إلى عمله في الخليج، في البحث عن مكانين للسكن، حتى وجدهما واستأجرهما... أسكن ابنته مع رفيقات لها من القرية في أحدهما... وأسكن راضي وأولاد قريته في المكان الثاني... بعد أن تبرع بأن تكون جميع نفقات دراسة راضي ومعيشته على حسابه الخاص... ومقابل أن يقوم راضي على متابعة سهاد، كما علمنا بما قد تحتاج من متطلبات في حياتها في المدينة، كالحماية والإشراف، وما لا تستطيع الفتاة تأمينه بنفسها.

الفصل الثامن

في الطريق إلى المدرسة

كان لا بد من تكرار هذا المشهد كل يوم... سهاد تذهب إلى المدرسة مع رفيقاتها، وراضي ينتظرقليلاً بعيداً عنهن، ثم يتبعهن بعد لحظات... بعد أن يبتعدن قليلاً عنه، يسير خلفهن بحيث لا تشعر رفيقاتها أو المارة به.

لذلك لم تكن أي منهن تعلم أنه يتبعهن يومياً سواها... فهذا هو طريق إلى المدرسة المعتاد.

أما في الحقيقة فكانت سهاد محرجة جداً من هذا التصرف... تنظر إلى عمله هذا على أنه تدخل بحياتها الخاصة لكنها مرغمة على السكوت والتغاضي... لذلك بدأت تحمل في قلبها الكثير من القهر والغضب، ولا تستطيع البوح بما يعتمل في صدرها لأحد... تفكر وتتعمق لكنها أحياناً تعذره لأنه مرغم على ذلك، وتم تكليفه من قبل أبيها... ومع ذلك لم تحمل في نفسها على راضي أي ضغينة أو حقد... بل بالعكس كانت تعتز وتفتخر بالعلاقة والقربى التي تربطهما.

تشعر أن راضي غير راضٍ عن عمله هذا ولكنه ملزم به؛ مستقبله معلق بهذه المهمة وفي الوقت نفسه تعلم أن واجبه حماية ابنة خالته، وصيانة عرضها لأنه من عرضه.

في الطريق كان راضي يتجاهلها، ولا يكلمها، ولا يقترب منها أثناء سيرها مع رفيقاتها، أو حتى يشعرهن بسيره خلفهن، طبعاً كانت سهاد على دراية بما يقوم به لكنها لم تخبر رفيقاتها بذلك... لكن إحساسها الدائم بأنها مراقبة، يحرجها ويغضبها في آنٍ واحد.

لذلك انتظرت أولى زيارات والدها لها، عندما جاء للاطمئنان عليها، فأخبرته بضيقها من هذا الأمر، ومع أن والدها تظاهر بالتعاطف معها... لكنه سُرَّ بالأمر، عندما تأكد له أن راضي يقوم بمهمته على أكمل وجه... لهذا لم يُظهر لها والدها أو يبادلها الشعورنفسه بأن الأمر محرج لها، لأن هذا ما كان يسعى إليه، أي توظيف راضي في تلك المهمة! وفي الوقت نفسه، كان هذا منتهى أمله وغاية مناه، أن يحافظ على شرف ابنته، وبالتالي كرامته من فوضى المدينة وبهرجها، وأقاويل الناس... لذلك رد عليها مواسياً:

_ تحمّلي يابْنتي... الوقت يمر بسرعة، وستنتهي المرحلة الإعدادية كلمح البصر وستعتادين على رهبة المدينة... بعدها تصبح لديك القدرة على حماية نفسك أكثر... أنت ابنة قرية، ومجتمع متآلف يختلف عن مجتمع المدن... هنا كل شيء جديد عليك، مشكلات المدن كثيرة وتجهلين ما يتعرض له الفرد من مفاجآت... اصبري يابْنتي، في القرية الخوف لا يتعدى صوت كلب ينبح... أو عواء ذئب يقترب من حضيرة المواشي ويهرب عند نباح كلب أو ضوء مصباح... يابنتي هنا كلاب تعض وذئاب تنهش من لا يستطيع حماية

نفسه، لقد وضعتك هنا أمانة تحت رحمة الله وعينيّ ابن خالتك... فهو شاب مؤدب حريص وذكي، ولا يعيبه ما يعيب الفتاة... اصبري يابْنتي... تحملي.

بعد هذا الحديث سارت حياة راضي وسهاد على الوتيرة نفسها ما يقارب ثلاث سنوات أخرى في المرحلة الثانوية! لا لقاء بينهما إلا فيما ندر... ولا يتصادف لقاؤهما إلا حين يلتقيان في بقالة الحيّ القريبة لابتياع ما يحتاجانه من طعام... ومع ذلك كان حديثهما ليس أكثر من السلام برفع الأيدي أو ملامح بسمة من الشفاه... أو تمتمة لا صراحة فيها...

وجاء صباح ليس مثله صباح! كان راضي يسير في أحد الأيام خلف الفتيات على مسافة بعيدة، كعادته كل يوم أثناء الذهاب إلى المدرسة، فجأة... استوقفه شاب، ثم أمسكه من ياقته وأخذ يصيح في وجهه بصوتٍ غاضبٍ:

_ ألا تخجل من السير خلف الفتيات ومعاكستهن يومياً؟ ألا تستحي من نفسك... يومياً على هذه الحالة!

نظر راضي إليه مستغرباً هذا التطاول المفاجئ!!، ثم حاول أن يبين له صلة القربى بينه وبين إحداهن، وأن أكثرهن من بنات قريته، وأشار بيده إلى سهاد ابنة خالته.

لكن الشاب ما أن رآه يرفع يده حتى وجدها حجة لما كان ينوي عليه... فصاح به من جديد:

_ ماذا؟؟! تريد ضربي، ولم يعطِه فرصة ليتفوه بكلمة واحدة، بل قام بتوجيه لكمة مفاجئة قوية أصابته في وجهه دون أن يتوقع أن يصل الأمر

منه إلى هذا الحد... لم يكن راضي قد تهيأ للدفاع عن نفسه، بل كان يحاول مناقشة الأمر معه، وتوضيح سبب سيره خلف الفتيات!

لكن المعتدي لم يصبر؛ فأعقب ذلك معركة بالأيدي بينهما دارت على رصيف الشارع أمام المارة وكانت المفاجأة، نصرة الشاب من قبل عدد من زبانيته، الذين أمسكوه ومكنوا المهاجم من توجيه عدة لكمات إلى وجهه!

لم يطل الأمر كثيراً فقد تدخّل من تواجد في تلك اللحظة من المارة، واستطاعوا الفصل بينهما...

إنما أُخذ كلام الشاب المعتدي الذي يتهمه بالتحرش بالفتيات على محمل الجد، مما أثار غضب أكثر الحضور على راضي، وجعلهم يصدقون ادعاء الشاب المعتدي أكثر من كلام راضي!

والحقيقة التي يؤسف لها في طبيعة البشر هي الانتصار للغالب والقوة، بتصديق صاحب الصوت المرتفع! على مبدأ المثل الشعبي (الفاجر يأكل مال التاجر).

انتهت المعركة لغير صالح راضي، الذي خرج منها بعد أن تعرض لعدة لكمات مؤلمة ومؤذية أصابته في وجهه...

تفرّق الجمهور الحاضر بعد أن أبعدوا الشابين عن بعضهما البعض، وأبعدوا المعتدي قبل أن يستطيع المعتدى عليه إعادة هيبته، ولو بتوجيه لكمة واحدة للشاب تعيد له بعض اعتباره، أو تشفي غليله.

عندها قام أحد الموجودين باقتياده إلى المحل القريب الذي جرت المشاجرة أمامه... بينما كان في البداية يريد اقتياده إلى مخفر الشرطة للتحقيق معه.
تشاء المصادفة البحتة أن يكون راضي أحد زبائن المحل الذي يشتري منه أحياناً لوازمه، وبالتالي صاحب المحل يعرفه ويعرف سلوكه جيداً.
أشفق عليه صاحب المحل، وشكر الرجل الذي سحبه من بين الموجودين خاصة من بين الذين نصروا المعتدي على راضي.
وبسرعة... ذهب جميع من ادعى نصرة الشرف والدفاع عن عرض الفتيات؛ بينما في الحقيقة ربما كان الكثير منهم بعيدون عن تلك الخصائص... ويظهر فعلهم هذا أنه تملق وغيرة مصطنعة.
وفجأة بعد لحظات دخل شخص بحركة سريعة شبه مسرحية إلى الدكان، وهو يدّعي النخوة ويصيح:
_ أين هو؟ أين الذي كان يتحرش ببناتنا... ثم أمسك براضي من ياقته وأخذ يشده إلى الخارج... تجمهر بعض المارة من جديد في محاولة لنصرة الرجل، ومساعدته... إلا أن صاحب الدكان استطاع أن يجره من بين أيديهم في البداية؛ ثم من يد الرجل الذي كان يدفع به أمامه ليسوقه إلى المخفر!
الرجل كان يصر على ألّا يتنازل عما نوى عليه... إلّا أن صاحب الدكان خلصه من بين يديه وهو يقول:

_ دعه يا أخي... هؤلاء شباب في سن المراهقة... يختلفون الآن وبعد قليل يتصافحون! والخاسر من يؤيد طرفاً ضد الآخر... وهذا الشاب أنا أعرفه جيداً وأعرف أخلاق وأمانته.

_ كلّا لن أدعه قبل أن ينال عقابه... بل يجب أن يسجن.

_ غير صحيح... هذا طريق عام في الحي وجميع الطلاب يسيرون في مثل هذا الموعد... وجهتهم مدارسهم... اسمع يا أخي بالله عليك... لا تضخم الأمور فهي لا تستحق، المعتدي ذهب وهذا الشاب أعرفه...

_ لا بل يجب أن يحاسب على فعلته وجريمته...

_ ألا ترى أنه مصاب ويجب علاجه أولاً!

_ ستعالجه خيزرانة الشرطة على قفاه أو عند الفلقة على أراضِ قدميه، ليتأدب ولا يكرر فعلته مرة أخرى.

_ ما هي فعلته هذه؟ كان سائراً في الطريق، لكن الرجل لم يمهله ليكمل وصف الحادثة، فقاطعه قائلاً:

_ لا أحد يمنعه من السير في الطريق وأنا كنت أسير مثله... ألم ترني؟ ولم يضربني أحد... ولكن ماذا فعل؟ ألم يسرق من دكانك أيضاً؟ إنه فاسد ولص... أليس كذلك؟

_ أبداً لم يدخل دكاني اليوم سوى الآن، وهو زبون دائم عندي، ثم أنت تدعي عليه بمعاكسة الفتيات، ما دخل دكاني في الأمر وهو لم يسرق مني شيئاً؟! سكت قليلاً ثم عدل التهمة:

_ كان يحاول الاعتداء على فتاة مارة بالشارع، لهذا السبب ضربوه.

_ نعم معك حق، ولكن هل تعرفها كي تشهد معك في المخفر.

_ كلا لم أرَها ولكن لماذا كان الكل يحرض عليه؟

همس البائع لنفسه متسائلاً... بعد أن شك بسلامة عقل الرجل الذي يجهل سبب المشاجرة:

_ لماذا هذا الرجل مصر على الادعاء على راضي؟ هل يعرفه؟ هل بينهما ثارات قديمة؟ فتقدم نحوه في محاولة منه لأن يقبل رأسه وينهي المشكلة... ولكن ما أن قرب البائع رأس الرجل من وجهه، حتى كانت رائحة الخمر تفوح من فمه، فعلم أنه في حالة سكر... عندها كان لا بد له من مسايرته... فقال له:

_ أنت فعلاً رجل شريف... أما زلت مصراً على أخذ الشاب إلى المخفر؟ هيا أين سيارتك؟

_ ليس لدي سيارة... ولكن لابد أن ينال عقابه.

_ إذاً اسبقني إلى هناك، سأغلق دكاني وألحق بك بسيارتي وسآخذه معي...

خرج الرجل من الدكان يلوح يمنة ويسرة، لشدة فعل الخمرة في رأسه، وما أن ابتعد الرجل حتى قاده إلى داخل الدكان ليرتاح من تبعات المشاجرة التي حدثت، ومعالجة الجروح والكدمات الكثيرة في وجهه، معتبراً تلك الأفعال لا تعدو تصرفات مراهقين... بالطبع حماه من تبليغ السلطات عن المشاجرة كما رأينا... سأله بكلام يميل كثيراً إلى العاطفة والرأفة بحاله:

_ لماذا يابُني تعرض نفسك للخطر؟ وأنت تعلم أنك لا تستطيع التغلب بمفردك على هؤلاء الفتيان؟ وأنت تعلم أن الكثرة تغلب الشجاعة أليس كذلك؟ وكما رأيت... الشاب شرس جداً وعديم الأخلاق! وتحميه ثلة أسوأ منه... لتساعده على الشر.

_ ليس لي أي ذنب بما حدث... لقد اعتدى عليّ فجأة، ودون أي خلاف مسبق بيني وبينه... لكنني فهمت أنني أعطل عليه مشاريعه، ويريد إزاحتي عن طريقه.

_ لكن يا ولدي، في الحقيقة لن أكذب عيني... أراك يومياً تتبع الفتيات والسير خلفهنّ من بعيد، وفي العودة الشيء نفسه... ومع هذا لم أرَ منك أي تعرض لهن... لكن يابُني افرض أن أختك معهنّ أو إحدى قريباتك! أيصح ذلك منك؟ أنت شاب المفروض أن تكون مهذباً إلى أبعد حد، جئت من قرية لتنهل العلم والأدب، واستأمنك أهلك على مالهم ووقتهم... المفروض فيمن هو في مثل حالتك... أن لا يهدر وقته على تفاهات وغراميات لا طائل منها، وتجرك إلى معارك جانبية!!

انتبه يابُني، مرة أخرى لا تورط نفسك في أمور أكبر منك... ألا ترى أنك ما زلت صغيراً على الحب والغرام... ربما أنني فهمت السبب... لكن جميعنا مررنا بتلك المرحلة، والأمر إرادة، وأولويات.

_ نعم إنّ جميع ما تقوله صحيح، ولكن لعلمك قريبتي تسير بينهنّ فعلاً وهي ابنة خالتي، وكلفني والدها بالسهر عليها، ثم واجبي أن انتبه لها وأحميها.

_ لماذا اعتدى عليك إذاً؟

_ لقد عرفته... لأنني أعطل مشاريعه، توجد فتاة بينهن اسمها سميرة يتابعها في أكثر الأحيان، وربما تبادله الابتسام لذلك يريد إزاحتي عن طريقه...

_ومن سميرة هذه؟ وهل أنت تعرف الشاب؟

_ نعم أذكره، ولا توجد صداقة بيننا... كنت أراه في المدرسة كل يوم... لكن لا عليك أقسم أنني سأنتقم منه وأسحق رأس هذا القذر... يغدر بي فجأة مع عصابته! اليوم أنت رأيت بنفسك أنه يحتمي بثلة من الزعران أمثاله... أمسكوا بي حتى مكّنوه من ضربي على وجهي! ولكن ماذا تفعل القوة مع الكثرة كما تفضلت أنت؟! ثم مسح راضي بيده على وجهه مكان إحدى اللكمات... فأحس بلزوجة الدماء تملأ وجهه!

لنترك الآن راضي وصاحب الدكان وحديثهم، ونعود إلى حيث توقفنا كي لا نبتعد عن توءم روايتنا الأخرى... لنعود إلى عفاف، وقد علمنا أن أمها لم يعجبها تصرفات خطيبها بما فيه خروج عن الواقع الأدبي والمنطقي فيما تعودت عليه.

وأنها لاحظت بتصرفات ابنتها أكثر من مرة، سكوتها عن تطاوله معها، وأنها تسلم نفسها للخطأ مع خطيبها... ولذلك قامت أمها بفسخ الخطبة وطرد العريس، ثم أغلقت أبواب الصلح بينهم، ورفضت عودة المياه إلى مجاريها.

علمنا أنّ عفاف عادت إلى المدرسة بناء على أوامر والدها، مع العلم كانت هي راغبة بذلك بسبب الملل الذي دبَّ في قلبها، والفراغ الذي لم تعد تعرف كيف تقضيه بعد فسح الخطبة... عندها لم يعد لها من شاغل سوى مساعدة أمها في أعمال المنزل بعد أن تحطم حلمها... أما بقية أوقات فراغها فكانت تقضيها بالنوم والأحلام.

لاحظنا من خلال متابعة حياة الفتاتين؛ أن سهاد شقيقتها كانت قد سبقتها بثلاثة أعوام في الدراسة خلال فترة مرضها، ثم انتقلت بعدها إلى المرحلة الإعدادية، وأصبحت طالبة في السنة الأخيرة من هذه المرحلة... أي الإعدادية.. أما عفاف فعادت إلى المدرسة بعد أن أبلّت من مرضها، كتلميذة في الصف الرابع الابتدائي، مما أفقدها الرغبة الحقيقية في متابعة

الدراسة، فما أن أتمت هذه المرحلة تركت المدرسة نهائياً؛ واختارت الجلوس في البيت، بانتظار عريس في علم الغيب!

الفصل التاسع

عفاف مرة أخرى

مرت السنوات مسرعة، وأصبح هم عفاف أن تحقق حلمها... حلم كل فتاة لا ترغب الاستمرار في الدراسة بعد أن اكتفت بالمرحلة الابتدائية كما قلنا، وأنها توقفت عن متابعة تعليمها نهائياً... شاغلها اليوم وكل يوم انتظار ابن الحلال على قول أمها... الذي لم يأتِ بعد، وككل فتاة في سنها كانت تنظر إلى الحياة بأمل، وإلى مرور السنين برعب وخوف.

شاغلها النظر إلى شباب الحيّ من وراء الستارة، والانتظار أمام الحظ علّه يتعثر بها ويحقق حلمها، كانت تنظر إلى تعانق الورود مع هبات النسيم في الشجيرة، فتحسدها على ما هي فيه، وعندما تمر رفيقة كانت تلعب معها يوماً من الأيام، فتشاهدها أصبحت تحمل اليوم بين يدها طفلها، أو أخرى يسير بطنها أمامها... تتلمسه بيدها كلما رأت صديقة لها ممن لم يأتيها الحظ بزوج أو خطيب.

عندها كان ليس لها إلّا أن تدير رأسها جانباً وتلعن بؤس حظها، وكأنها لا ترى أحداً يمر من أمامها... تجلس كل يوم لتنتظر أن يتقدم لها عريس جديد، بعد فسخ خطبتها في المرة الأولى لأسباب لا يجهلها القارئ.

وكما أن للقدر دور في مسيرة حياة كل فرد... جاءها القدر بنفسه... تعرفت على شاب اسمه يوسف، تعرف أن أصله من القرية نفسها جاء من أوربا... منذ أشهر إلى بلدته بطلب من والده لإقامة مشاريع استثمارية لتشغيل بعض أمواله في مشاريع مختلفة يفيد بها مسقط رأسه وكي يبقي الأولاد متعلقين بوطنهم.

كان تفكيره أن يستغل بعض الأراضي التي حول القرية... وفي الوقت نفسه يقوم بتشغيل بعض أبناء القرية...

مر يوسف... ابن الدلال الاسم الذي أطلقته أمها عليه كلما رأته يمر بسيارته الفارهة أمام بيتهم...لم يخطر ببالها من هو وإلى من ينتمي ابن الدلال هذا... فالشباب العائدون من السفر لقضاء إجازاتهم بين أهاليهم كثر! بينما ابن الدلال هذا لم يكن سوى أمل الحياة الذي تنتظره عفاف... كانت تسر في داخلها عندما تسمع وصف والدتها له بتلك الصفة، لم تكن تعرفه ففارق العمر كبير بينهما، لكنه سحرها بسيارته قبل ابتسامته التي لاتفارق شفتيه، وبأناقته وما اتصف به من ثراء... كانت تتمنى أن يتقدم إليها... وإن كانت من المستحيل أن توافق أمها إن تقدم لها، والسبب لأنها تعلم أنه أكبر منها في السن، والأهم أنها سمعت أنه جاء يبحث عن زوجة ويأخذها معه مباشرة إلى بلاد الغربة وهذا ما لم تعد تطيقه...

عفاف لا تريد أن تعرف من الشاب سوى الثراء والجسد الجذاب، والقامة الممشوقة والسيارات الفاخرة التي يركبها وتتغير كل يوم.

ثم الأموال الطائلة التي يشاع عن امتلاك أسرته لها في أوربا... والأراضي الشاسعة الموروثة التي يمتلكها والده منذ القدم في القرية... كانت ترى في وجهه الرجولة، لا يهمها الصليب المعلق بسلسلة ذهبية التي لم تلحظه أمها في البداية، فكان الكثير من شباب القرية العائدون من الغربة يتزينون بما يحلو لهم بصرف النظر عن صلته بدينهم أو معتقدهم (موضة)...

يسلب عقل عفاف السلسلة الثخينة المعلقة في عنقه، فتبالغ بوصفها وتقول في نفسها... إنها تكاد أن تصلح لربط مرساة قارب على شاطئ النهر القريب من القرية... ومع كل الاختلاف في الديانة لم تكن ترى فيه سوى الشاب المثالي فتى الأحلام... كانت تبهر أكثر به كل ما رأت ابتساماته الجذابة، يتعمدها عندما يخفف سرعة سيارته السبور الحمراء أمام بيتها حين يتعمد المرور من أمامه صباحاً ومساء... لكن باتزان، وعكس ما يقوم به بعض الشباب المراهق من سرعة وتشفيط أمامها... لجذب انتباهها.

بل كانت عجلات سيارته بالكاد تلف أمام بيتها، يسير نتفة... نتفة، كما يقال، وهو يلوي ذراعه على نافذة السيارة المُتكئ عليها، ويده الأخرى على المقود، فتظهر السلسلة الذهبية الثخينة هي الأخرى التي تلف معصمه...

يخفف سرعته إلى الحد الذي تتمكن نظراته من اختراق أعماق قلبها... لا يعلم سوى الله ذلك اليوم السبب... هل كان انفجار العجلة أمام بيتها ضربة حظ أرادها لهما القدر؟! أم أنها مصادفة أتت لتجمعهما؟

توقف يوسف ينتظر مرور من يساعده على تبديلها... لا أحد حوله... وضع رافعة السيارة تحتها... أخرج العجلة الاحتياطية متأففاً، وحده... لكن وا أسفاه... كانت هذه أيضاً مفرغة من الهواء... أخرج هاتفه النقال واتصل بأحد الأشخاص، ثم جلس ينتظر.

الوقت منتصف النهار... الحرارة آتية كأنها تخرج من أتون ملتهب... يزيد لهيبها ما تحمله الزوابع من رمال، تضرب في وجوه المارة... يتقونها المشاة بانحناء رؤوسهم، ولكن كيف بابن الدلال مع هذا الجو؟

جلس في سيارته... نظر إلى الفتاة التي أخذت تتأمله وهي تفتح بوابة بيتها بتأن شديد، ثم تهم بالدخول ... تلاقت نظراتهما... دعته للاحتماء داخل بيتهم من حرارة الجو المفرطة...

حدق بوجهها... أخذ يحادث نفسه: يا إلهي ما أجملها! لقد سرقت من البدر لونه... شبه بياضها بلون الثلج في يوم مشمس... وفي قلبه لم يكن ينتظر أكثر من هذه الدعوة... عندما سمعها تقول:

_ تفضل يا أخي استرح في الداخل.

_ السيارة مفتوحة ولا يمكن الابتعاد عنها.

_ لا تخف القرية ليس فيها لصوص يسرقون السيارات.

_ لا ليس لهذا... نزل من سيارته ببطء وهو يتمتم بصوت تعمد أن يجعلها تلتقط منه ما أحب أن يصل منه إلى سمعها... بل أخشى سارقي القلوب...

ثم تابع مصححاً... كلا، كلا بل أخشى أن يقوم أحد الأطفال بالعبث بالرافعة، لربما تسقط السيارة عليه... قالت في نفسها:

_ بكلامك جرأة غريبة تحسد عليها! انتظر قليلاً سأحضر لك كرسياً تجلس عليه...

_ لا تتعبي نفسك... سيأتي صديقي بعد قليل يأخذ العجلة ليصلحها... ردت عليه:

_ حتماً سيذهب ليصلحها ثم يعود... أليس كذلك؟ وفي نفسها... ليته ألّا يعود... هل من المعقول أن تبقى واقفاً أمام البيت كل تلك المدة؟

_ الحق معك... بحث عن طابوقة وضعها تحت السيارة تدعم الرافعة، ثم سألها:

_ إذا سمحتِ: آتيني بكرسي إذاً من الداخل.

_ بل تفضل إلى الصالون انتظر في الداخل.

_ من في الداخل؟

_ ليس سواي... وسوف أنادي أمي من الحديقة... أدخل، تفضل... نادت أمها، وأخبرتها بما حصل... بينما جلس هو تحت النافذة المطلة على الشارع يراقب سيارته بصمت؛ إلى أن سألته الأم:

_ هل أنت من القرية؟ فأجابها: بنعم... ردت عليه قائلة:

_ أنا لا أتذكرك، وتقول أنت ابن القرية!

_ بل أنا أتذكرك... أيام المدرسة قبل أكثر من ربع قرن... أنا ابن أبي يوسف جاركم في الأرض الزارعية، كنت زميلاً لك أيام المدرسة الابتدائية في القرية... ما أن سمعت بالاسم حتى وجمت قليلاً! ثم نهضت من مكانها بحجة جلب ضيافة له وهي تقول:

_ يؤسفني يا أخي لا أتذكرك جيداً، ثم نادت ابنتها لتنقذ موقفها، ولا تريد أن تتركهما معاً.

ما إن لحقت بها عفاف حتى بدأت تغلي وتكاد أن تنفجر، إلى أن انفردت بها عندها جذبتها من شعرها بقوة وعنف على غير مرأى من الضيف، وهي تقول:

_ أيتها الغبية... أن تستضيفي عندنا شاباً لا نعرفه، ولا يوجد في البيت رجال! هذا الأمر لن أتغاضى عنه... متى تعقلين يابْنتي؟ متى؟ هيا صبّي له فنجان قهوة واصرفيه فوراً، سأقف قرب الباب حتى أتأكد... ردت عفاف قائلة ولا تريد أن تعّرف أمها على ملّته لكنها تلمح فقط:

_ متى يا ربي نعمل بعقولنا وعواطفنا وليس بموروثنا الحاقد... أولئك جيراننا منذ سُكنت القرية... وجيران أبيك وجدك يا أمي... منذ القدم بينهم علاقات تجارية وزراعية ومقايضة... يتزاورون في الأعياد ويتشاركون في المناسبات... هكذا كان جدي الذي هو والدك يحكي لنا ونحن أطفال صغار... لماذا يا أماه ترفضين ما كان يرضى به أباؤنا... لماذا يا ابنة

إمام الجامع الذي كان سيد العلم والفقه، لماذا؟ كانت عفاف تمهد لما في رأسها؟

ردت الأم وهي تنتفض غضباً:

_ نعم لن أقبل شاباً غريباً في بيتي عندما لا يكون فيه رجل... ثم ابنة إمام الجامع... ابنة إمام الجامع؟!! خافي الله... هل هناك ما يعيبني بوالدي؟ أو بمهنته؟

المهم، وباختصار... اصرفيه بأي طريقة... لن أقبل وجود غريب لا أعرف أصله ولا فصله في بيتي...

_ كلا يا أماه فقط... أذكّرك أن جدي لم أسمع أنه كان يفرق بين أحد من أهل القرية مهما كان دينه ومعبوده... يقول: كلنا بشر والفرق بأعمالنا فقط... وأخذت تلمّح من جديد وتركز على تناقض الأديان.. لقد كان جدّي يقول:

_ في السماء رب يُعبد... ولم يوكّلني ربي على عقاب أحد... ثم تركت أمها حزينة وعادت إلى الصالون حيث كان يوسف يجلس... لكن الأم بقيت على ما توقعته من كون الشاب غريباً فقط.

ما إن ذهبت عفاف لتقدم صينية القهوة له، حتى أنقذ الموقف دخول أحد أخوالها، الذي رحب كثيراً بالشاب وهو يقول:

_ شغلت عليك حين رأيت سيارتك متعطلة في الشارع... توقعت أن تكون في ضيافة بيت صهري... شرب يوسف قهوته وخرج مع خال عفاف، في الوقت الذي جاء فيه اتصال من الشخص الذي كلفه بجلب العجلة...

وكما عرفنا: كانت مهمة يوسف التي جاء إلى القرية لأجلها... دراسة إمكانية إقامة مشروع إنشاء مزرعة متكاملة لتسمين الحيوانات الأليفة... تحتوي على حظائر، وتستوعب عدداً كبيراً من الأبقار والمواشي... يشغل فيها عدداً من سكان قريته ويعهد بإدارته إلى أحد رجال القرية المؤتمنين المتعلمين.

فمنذ جاء من أوربا قبل مدة بسيطة، وهو يقيم عند بعض أعمامه في القرية... على إثر ذلك تعرف يوسف على سكان القرية ومن بينهم الفتاة هذه التي كان يراها تقف أمام بوابة منزلها قبل أيام... وكانت ترد على ابتسامته كلما نظر نحوها مبتسماً! في الحقيقة أنها أعجبته، وأحبها قبل أن يلتقي بها اليوم ويدخل بيتهم.

زاد على تلك المعرفة فيما بعد، مشاركته بأكثر حفلات القرية من أعراس ومآتم ومآدب... وعندها بدأ يستعيد مفقوداته من العادات المتأصلة في القرية، وكان يعتبر تلك المشاركات فرصة لزيادة التعارف بينه وبين أهل قريته، التي هي بالأصل مسقط رأس أهله، التي هجرها والده قبل ثلاثة عقود... صحيح أن يوسف ولد هنا لكنه خرج منها ابن الثامنة من عمره... وهناك أكمل دراسته ثم تعليمه العالي حيث استقر والده في البرازيل.

الفصل العاشر

حبٌّ وتآلفٌ

كم كانت سهرة تلك الليلة ممتعة جداً! سهرة أقيمت بمناسبة زفاف أحد شباب القرية على فتاة من أقارب فؤاد في القرية، دعي إليه أعمام يوسف وحضر برفقتهم... وكانت البداية الحقيقية... بداية التلميح المباشر... خلال هذه السهرة أخذت النظرات المتبادلة بين عفاف ويوسف توحي بأكثر من الإعجاب بينهما... بل تفضح أحاسيس مخبوءة تنتظر ما يحركها.

ودائماً تأتي الأقدار مصادفة كما جاءت في تلك الليلة... عفاف تبحث عن شريك لحياتها يفهمها ويحقق أمانيها، ويوسف الذي كبلت عواطفه فوضى فتيات الغرب، وسهولة انقلاب مشاعرهن لأتفه الأسباب.

يعيش خلالها حياة مختلفة جداً على مجتمع وطنه... أهمها أنه يقبع هناك تحت رحمة أمزجة متبدلة، متقلبة! لا ثبات في حب ولا في صداقة... لأي ظرف طارىء يتغير محتوى القلب... وتنتهي معه عشرة سنة أو سنوات...

هناك في الغرب حياة متفتحة كثيرة الأبواب للخروج من أقفاص الزوجية، وكثيراً ما يكون الجسد في الداخل، والقلب يدق خارجه؛ لأول هفوة يقفز منه.

وكان اليوم هذا اللقاء ما هو إلا همسة حظ لكليهما جلبته الصدفة... أو هذا ما شعرا معاً به اليوم في بداية تعارفهما... وتشاء المصادفة البحتة أن تزداد تلك المعرفة هذه الليلة، بمشاركتهما في تلك المناسبة التي جمعت أهل القرية كالعادة بما يميز سكانها من محبة وحسن جوار، وغضّ الأنظار من قبل الجميع عما يفرق بينهم من دين ومذهب كما سبق وأشرنا.

أشرنا إلى أن الجار في القرية لا يكاد يعرف دين جاره، إلا من خلال الذهاب إلى دور العبادة الخاصة به حين يذهب ليؤدي فرائضه! إلى الجامع للمسلم، وإلى الكنيسة للمسيحي.

ككل استلطاف بين فتاة وشاب يبحثان عن هدف واحد وهو الزواج... بدأت تتحول المعرفة بينهما إلى صداقة عميقة... ثم ميل متبادل... الواحد إلى الآخر، ثم بعدها إلى حبٍّ وعشقٍ وأمانٍ وأحلام.

مع أنها كانت تعلم أن هذه الأحلام يغلفها سور حديدي من عوالق الزمن لا يمكن هدمه بسهولة، هذا الحاجز المتأصل والموغل في القدم... علمتهم إياه المدارس، وكرسته التعاليم الدينية... لم يصنعاه، ولم يصنعه أبواهما أو جدودهما... كان موروثاً متواتراً، يقف بين الاثنين عائقاً متيناً، فرضته أقدارهما، ولايمكن تجاوزه ببساطة أبداً.

كان الخلاف والاختلاف بينهما في الدين من خلال المعتقدات... لكن هدف عفاف كان ثابتاً لا يتزعزع تستخرج له الحلول بما تفكر به وما يمهد له أصحاب الشأن، علمت أن هذا الحاجز لا يمكن القفز عنه إلا في

حالة خاصة ونادرة جداً... أن يقبل يوسف بالتحول عن دينه، أو ربما تتجسد المشكلة برفضه هذا الحل، وهذا ما لا تريده، ومع هذا قررت أن تجرب حظها وتغامر... تعلم أن الحل في أن يتبع أحدهما الآخر... ولا حل سواه... وهنا عليها دور الإقناع لمن حولها... هل أسهل على الرجل أن يقوم به؟ أم أن المخلوق الضعيف كما يقال عن المرأة هي من سترضى به؟

نعم هنا تكمن المشكلة... هي على دين الإسلام وهو على دين المسيح أسوة بأقاربه القاطنين في القرية منذ قرون مضت... كان هذا الحاجز الطبيعي الذي فُرض عليهما بقوة التاريخ والانتماء يوشك أن يمنعهما من تحقيق حلميهما... جربت... رمت رميتها؛ أصابت الهدف... حين رد يوسف عليها قائلاً:

_ هو الله... أعبده بأسلوب قومي، وأنتقل إلى عبادته بأسلوبكم... نعم ليس إلا هذا... أعلم أن معتقدكم يمنع ويكفّر ويقتل من يتخلى عن دينه... وعلمت أن جدك لأمك كان إمام القرية، لكن أصبح في جوار ربه، ومن جاء بعده قد يقيم القيامة عليك ولا يقعدها، ثم قبل هذا كله لا بد من موافقة أمك وأبيك أولاً.

_ سأجرب مع أمي وأتصل بوالدي، لا أعتقد أنهما سيقفان عائقاً أمام سعادة ابنتهما... ولكن أنت كيف ستتصرف؟ رد عليها بطريقة الواثق من نفسه:

_ لا تشغلي بالك من ناحيتي، فزمام الأمر بيدي...

اليوم تغيرت الأحوال وتمتنت العلاقة بينهما...

لم يعد الأمر كما كان قبل اللقاء الأول حين تعطلت سيارته أمام بيتهم، عندما لم تؤاتِ الشجاعة أحداً منهما لأكثر من تبادل ابتسام مبطن لا يكاد أن يظهر أمام أحد صراحةً على الأقل؛ عندما كان يوسف دائماً يحاول رسم ابتسامة على وجهه بقدر! ثم يحاول إخفاءها قدر المستطاع، وبعدها يقطعها فجأة ولا يجرؤ على متابعتها! أما عفاف التي كانت تتلقف شبح الابتسامة بقلبها دون أن تُظهر ما يعتمل في نفسها من شعورٍ لا يخدع أمنياتها، كفتاة عشرينية عركتها تجربة مع خطيب سابق مالت إليه وانتُزع منها بعنف أمها، لخوفها منه؟

تغيرت الأحوال اليوم وكُسرت القيود... وأثناء حضورهما لحفل جديد تعطلت الموانع، وحملا هدفاً جديداً لحياة جديدة!

ما إن بدأت الفرقة تعزف مقطوعة موسيقية غربية صاخبة، حتى جذبت من الحضور الراقصين والراقصات... ليرقص الجميع أمام مرتبة العروسين.

تجرأ يوسف وتقدم يدعوها لهذه الرقصة التي كانت الصالة تضج بصخب موسيقاها... جفلت عفاف قليلاً من طلبه لحظة، بينما هي تمنتها أن تتم من كل قلبها... نظرت إلى والدتها الجالسة بجانبها وقالت:

_ الله كم أحبّ أن أرقص على هذه الموسيقى... أتسمحين يا أماه؟ وعلى الفور هرعت بخطوات عجولة نحو حلبة الرقص دون أن تنتظر رد أمها.

أسرعت الأم في تعقبها كي تمنعها، لكنها انزلقت بين الجماهير، ولم تستطِع إمساكها... ضاعت عفاف في حمّى الجمهور الراقص على الفور؛ ارتدَّت الأم إلى مقعدها كي لا يُظن أنها قامت تشارك الراقصين والراقصات الرقص، خاصة وأنها تقود أحد أطفالها بيد وتقود الآخر بيدها الأخرى... ولم تجد أفضل من أن تعود إلى مقعدها وهي تكاد أن تتفجر غضباً لتصرف ابنتها!

كان هم عفاف الأوحد أن لا تكسر خاطر الشاب المعجب بها والأهم أن يفتح لها باب قلبه، لذلك حاولت أن تظهر براعتها بالرقص الغربي والانفتاح على المدنية.

ما إن وصلت إليه ورأته يتفنن بحركات راقصة دقيقة ومتقنة، حتى قربت فمها من أذنه وقالت بصوت مرتفع كي يسمعها، ورغبتها بالرقص تدغدغ مشاعرها:

_ الحقيقة لا يجوز أن يرانا أحد ما نرقص معاً... لكن لنرقص متباعدين بين الراقصين والراقصات دون أن نلمس بعضنا حتى لا نلفت الأنظار إلينا.

_ حسنٌ كما تشائين... ثم خرج من بين الراقصين للحظة، وعاد وهو يقود فتاة صغيرة ابنة أحد أقاربه وأدخلها الحلبة وأخذ يرقص معها... مثله مثل كل شاب دعا خطيبته أو قريبته كي يرقصا معاً... وأخذا يلوحان بأيديهما من بعيد، وأنظارهما تسرق اللحظ سراً، وتبني من خلالها مشاريع غرامية مستقبلية... وفي غمرة انشغالهما بأحلامهما المخبوءة في صدريهما، لاحظت إحدى صديقات عفاف وتدعى عرين، لاحظت الاهتمام المتبادل بين

عفاف وبين الشاب الثري الأنيق يوسف... المشغول بالرقص، فوقفت خارج الحلبة وبقيت تراقب حركاتهما، وتنفث أنفاسها غضباً... ربما لم تكن مصادفة تلك المراقبة، وربما لغاية في نفس يعقوب... تنتظر نهاية المعزوفة حتى يتوقف الرقص، اقتربت عرين منها، بعد أن استفزتها النظرات المتبادلة بين يوسف الذي يشارك الرقص مع أخته، وبين عفاف التي ترقص متنقلة بين الفتيات، وتصطنع محاولات التسلل والاصطدام بين الحين والآخر بيوسف! وما أن اقتربت منها حتى أوقفتها بسرعة، قبل أن تصل أمها، التي كانت تتقدم نحو ابنتها، أمسكت بها عرين ووشوشتها:

_ احذري... أنت تلعبين بالنار يا عفعف... ما بك أيتها المجنونة؟ ألا تدرين أنك الآن في ورطة؟

_ اللّهُمَّ اجعله خيراً... ما هذه الورطة؟

طبعاً كان قصد عرين بما لاحظته من تصرفاتها، وفي الوقت نفسه، أرادت لفت نظرها إلى شيءٍ ما...

وقبل أن تصل أمها إليها نحَّتْها جانباً وقالت بسرعة:

_ أتعرفين من يكون هذا الشاب؟

ردت ضاحكة متهكمة: بعبع أليس كذلك؟

_ لا، ليس قصدي... رأيتك ترقصين أمامه بفستان فاضح يكشف الكثير من جسدك! لذلك أردت أن أنبهك إلى أمر آخر... اعتقدت أن عفاف ليس

لديها فكرة عن استحالة زواجها من الشاب بسبب الفرق في العقيدة وأن هذا العمل لا يجوز ثم قالت:

_ أنت لا تعرفين أن هذا الشاب ليس من دينك، وأي علاقة بينكما لا شك أنها محرمة، وظهورك بهذا الشكل أمامه لا يجوز ومنكر!

لم ترد عليها عفاف... بل تبعت أمها التي وصلت تلك اللحظة وجذبتها من يدها بقوة...

جلست عفاف على مقعد قربها... وهنا وجدت الأم فرصة لتؤنبها على تصرفاتها... لكنها مع كل هذا لم تأبه بل وضعت رجلاً على الأخرى بطريقة لفتت أنظار الشاب إلى ما ظهر من مفاتنها، فحدّق بها وكاد أن يفترسها بعينيه! وأصبح يتعمد المرور من أمامها...

انتبهت أمها التي كانت تلبس ثياباً واسعة فضفاضة... على الفور غطت سيقان ابنتها بذيل ثوبها... ثم قرصتها بعنف... وأخذت توبخها والشرر يكاد أن يطير من عينيها وتقول:

_ أيام وسيأتي والدك وسأخبره بكل ما تفعلينه... لماذا هذا السلوك المشين؟

_ لا تخافي والدي متحضر وليس مثلك... سترين بنفسك... هل نسيت أننا زرنا معاً أختي سهاد في المدينة منذ أشهر، ورأيت بنفسك كيف تلبس الصبايا في المدينة حتى المسنات من النساء... لبسهن حضاري... وزرنا معاً البحر في العام الماضي، ورأيت الشواطئ ورأيت النساء ماذا يلبسن... مايوهات من قطعتين أو قطعة واحدة... ولا يتأبين لا أمام قريب أو بعيد.

إن كانت شكواك لوالدي على هذا؟! فشكواي ستكون له أكبر على ما فعلت بي من تحطيم مستقبلي... بعدها سنرى ممن سيغضب والدي...

_ يا لكِ من وقحة يا عفاف، كلما تقدم بك العمر نحو الصبا كلما قلَّ حياؤك... ثم على ماذا ستشكيني لوالدك؟! ألأنني أوقفت استهتارك بالأخلاق؟

_ لكن قضيت على مستقبلي ومستقبل خطيبي بسام! أنسيت الطعنة التي تلقيناها؟!

_ لنقل أنّك تأثرت بفسخ الخطبة... لكن ما الذي أثر بالشاب... ها هو خطب بعد فسخ الخطبة بأيام وسمعت أنه تزوجها.

_ أماه عقلك في عصر عيسى وموسى والرسل! وجسدك في عصر الأزياء والحضارة! انفتحي على الدنيا قليلاً يا أماه، ثم قلتِ أنّكِ ستشكيني لوالدي... أنا بانتظار عودته بالسلامة ليعاقبني، وسترين كيف سيكون موقفه مني ومنك

_ لكزتها بخاصرتها بقوة... أنا أمك يا غبية والبنت صنيعة الأم وأي خطأ بتصرفك سيحملني الناس مسؤوليته، ثم لم تقولي لي ما الذي أثر على بسام بفسخ الخطبة؟ ها هو قد خطب وتزوج وانتهى...

_ نعم تزوج من نار جهنم... غنوة الفتاة التي تلوك سيرتها الألسن في القرية.

_ أف ما الذي تعرفانه عن الفتاة أنت وأبوك؟ أنا ابنة القرية وعمري أكبر من أعماركما ولا أعرف شيئاً عن ابنة قريتنا!

_ أحسن... ويجب ألّا تعرفي...

_ بل يجب أن أعرف... الآن وفوراً...

_ كما تشائين... نعم، الفتاة تتصرف بحرية فائقة ولا تبالي بالعادات والأخلاق العامة... تجول بسيارتها بحرية كل يوم، تجالس الشباب في الأماكن العامة... ولا من رادع... هذا قبل أن تتزوج، عندما كانت في بيت أهلها، ويقال أنها تشارك في سهرات شبابية... لا يعلم سوى الله ما الذي يدور في تلك السهرات مع شلة من الأصدقاء من الجنسين... سواء في قريتنا أو في القرى المجاورة... ثم سمعت أنها أصبحت تذهب مع شلتها للسهر في المدينة... أهلها يعلمون ولا يعترضون، ثم لا تعود من تلك السهرات مع فاسقي القرية مثلها إلّا في منتصف الليالي، أو مع طلوع الفجر!

_ يا إلهي ماذا تقولين؟! ردت بلهجة يغلب عليها التهكم:

_ لا شيء أبداً... لا شيء... أقول إن ما يزعجك هو فستان طويل مشقوق الجانب أهداه لي والدي بمناسبة عيد ميلادي، أهذا الذي أزعجك فقط؟ كما ترين جميع الفتيات يرقصن... ليس فيهن من تمنع بناتهن مثلك!

ابتلعت الأم لعابها حائرة بماذا سترد! أنقذ سكوتها جو من الصخب والضجيج المستجد، عندما بدأت تعزف الفرقة معزوفة جديدة عالية الرتم.

تقدمت إحدى صديقاتها ومعها عرين وأنهضتها تدعوها للرقص معها، وكانت قد بدأت هذه اللحظة الرقصة الجديدة على مسرح الحفل... اقتادتها قائلة:

_ تعالي يا عفعف نرقص هذه الرقصة معاً... لم تكن عفاف تنتظر أكثر من هذه الدعوة... قفزت معها وهي تداعب أمها قائلة:

_ أظن الرقص مع صديقتي ممنوع أيضاً؟

جرت عفاف نحو مكان الرقص بخطوات متسارعة دون أن تنتظر موافقة أمها، وما إن وصلت إلى رقعة الرقص في الصالة حتى كان يوسف يسبقها... على الفور أمسكت عرين بها ونحّتها جانباً بعيداً عن المكان الذي بدأ يوسف يرقص فيه، وملامح وجهها تدل على الاستغراب والغضب... أفلتت منها عفاف وبدأت ترقص مقابل يوسف... لكن عن بعد... قبل انتهاء الرقصة وضعت عرين يدها على كتف عفاف، وهي تقول بصوتٍ عالٍ في أذنها:

_ أؤكد لك أنك لن تنجحي في استمالته... أولاً أسلوبك هذا في الإغراء فاسد سيثير رغبته وليس حبه! وحتى لو تم ذلك... هل تظنين من الممكن أن يتم زواجكما؟ إن كنتما طامعين بالزواج، ثم هل تعرفين هذا الشاب من قبل؟!

_ نعم أعرفه مذ جاء إلى القرية... يومياً أراه يمر من أمام بيتنا، ويلقي عليّ السلام ويرسل قبلات في الهواء وهو يبتسم لي، وأبادله السلام والابتسام

وال... أعرف عنه أكثر مما تعرفين أنت عنه... هو من غير ديني، والصليب الذي يعلقه في عنقه أكبر دليل على معتقده... وأرى الأسوارة الذهبية التي تطوق يده، والسلسلة الذهبية حول عنقه أيضاً... المعلق فيها الصليب؛ كل شيء أعرفه عنه وأعرف أنه عاش شبابه في أوربا ورائحة الويسكي التي تنتشر حوله ألذ من عطره الباريسي، وهو يميل إليّ، ويحبني ويعشقني وقد صرّح لي بحبّه مراراً، كانت تبالغ بحيث تنهي تنبيهات صديقتها... ثم ماذا تودين أن تعلمي غير ذلك أخبريني؟ يا لكِ من قليلة الطموح، أو غيورة... هل أترك شاباً يملك من الثروة أكبر مما أحلم به؟ وهل أرفس سعادة تأتي من شاب رائع تعلق بي؟ ويريد أن يسعدني وأسعد به...

_ الله الله وهل ترخصين نفسك لهذا الذي تصفونه بالذميّ طالما تعرفين عنه كل شيء؟

_ لا ليس ترخيصاً للنفس يا عرين... ثم صمتت وهي تزفر من فمها وأنفها في وقت واحد بتنهيدة حارقة،

ثم ردت عليها وعلامات الأسى والخوف ترتسمان على وجهها:

_ مغلوبة على أمري يا عرين... أحببته... أحببته... وكما يقولون: إن والده فاحش الغنى ولديه الكثير من الشركات والعمارات وهو من كبار تجار البلد! ويقولون إنه يلعب بالأموال لعباً! كما يتضح للجميع... ألا ترين سيارته التي يركبها؟ ربما ثمنها قد يشتري نصف سيارات القرية! ثم ما العائق؟ هل

لأنه ثري فقط؟ وهل هذا يعيبه... وهذا الذي أبحث عنه وأراه في أحلامي قبل أن أراه شخصياً... ثم ما الذي يزعجك؟

_ كلا لا شيء من هذا... فقط لأن الشاب من دين غير دينك!

_ أف يا لكِ من جاهلة! هذه ليست مصيبة... سأحلها بنفسي.

_ انتبهي يا عفاف لا تورطي نفسك معه... فجميع الفتيات في مثل عمرنا ينتظرن العريس... والأمر بيد الله، لربما يأتي ابن الحلال من دينك عندها تنسين هذا بمرور الوقت... تروي يا عفاف لماذا تستعجلين الزفاف وتسابقين الزمن؟ تنهدت عفاف من جديد بحرقة، وقالت:

_ أضحكتني يا عرين... وماذا سأنتظر إذاً؟ وما الذي سيخرجني من عزوبيتي غير العريس...

_ أنت عجولة وربما تقعين فيما لا يحمد عقباه!

_ كم أتمنى أن أخرج من بيت أهلي وأخلص من أوامر أهلي... البسي هذه الثياب... هذا أطول... أوسع... ثوبك غير محتشم... انشري الغسيل... اكنسي البيت... لا تضحكي بصوتٍ عالٍ... يا الله متى يحدث خلاصي من كل هذا؟

_ وهل تظنين أن زوج المستقبل سيضعك على الرف؟

_ هههه... ليضعني تحت الرف... المهم أن أتزوج وبعدها يحلها الزمن وإلَه الزمن... المهم أن أتزوج.

_ يا لكِ من...

لكنها لم تكمل ما كانت تود أن تصفها به... ولكن أرادت أن تلفت أنظارها إلى شاب آخر تعرفه كل منهما فقالت مرغبة:

_ انظري إلى ذلك الشاب الجالس قرب الباب ابن خطيب الجامع، ألا تلاحظين أنه كلما رآكِ يكاد أن يأكلك بعينيه؟! وأن يفترسك كلما مررت من أمامه أو رآكِ تنظرين نحوه... لقد لاحظت تعلقه بك وأنه يحبك ويعبدك... لا تقولي ما أدراك... عشقه لك لا يخفى على الناظر... أجابتها ساخرة:

_ يا إلهي ما هذا الذي تقولينه؟! مَن؟ مَن؟ لمَ لا تتزوجينه أنت؟ أنت مثلي عازبة وتبحثين عن عريس... أليس كذلك؟ ثم تنهدت وهي تتمتم بنفسها: يا ربي مِن هذا الحظ الملعون! يوسف شاب متكامل... إنما ليس من ديني... (اجت الحزينة لتفرح ما لاقت لها مطرح! ولكن بإرادتي سأبني له المطرح) ثم أتمت كلامها بصوتٍ عالٍ... حرام عليك يا عرين... أتريدين أن أدفن شبابي مع تلك اللحية السوداء التي يعبث بها الريح كلما هبّ؟ يا لكِ من ظالمة... وهل سأعرف بعدها من دنياي سوى اللون الأسود ما عشت معه!.

_ يا لك من متشائمة يا عفعف... ألا ترينه متفتحاً... ها هو يحضر حفل الزفاف هنا... فالشاب منفتح على الحضارة، ولا أعتقد أنه سيقصر معك في شيء... عمه من أكبر تجار المدينة، أما أبوه فالكل يعرف أنه شريك لعمه في أمواله وتجارته، وكذلك يقولون إنهم فاحشو الثراء... ردت عفاف بهدوء ينضح الخبث من لهجتها:

_ لكن هناك ما يجعلني أتساءل يا عرين:

_ لماذا تتركينه لي؟ أرى أن المثل سينطبق عليك (لو كان فيه خير ما نفاه الطير).

ثم على كل حال تأكدي... لو كان هذا الشاب يبيض ذهباً وفضة لا أريده وكفى... هذا الذي لا يعرف من الألوان سوى اللون الأسود، انظري يحضر حفل زفاف فيه رقص وطرب بثياب سوداء! ولا يبدو البياض منه سوى في بياض أسنانه وبياض عينيه... هل لديه ما يتحفني من الأزياء إلا الجلباب الأسود... الملاية السوداء الكثيفة... قفازات سوداء سميكة... فستان أسود يجر على الأرض... جوارب سميكة سوداء، ثم أردفت وهي تظهر خجلها وتغمز بعينها: حتى الثياب الد... أنا متأكدة أنه لن يرضاها سوى سوداء... أنا أريد من يتحفني بالأزياء الباريسية من سان لوران والعطور من شانيل... شنطة يد... كندرة... إلخ من كبرى بيوت الأزياء العالمية، وليس من مسوق للأفكار الدينية.

بربك يا عرين... هل سأعرف عنده من البياض سوى كفني الذي سيراني دون أن أراه... أيام وتقطعه الديدان والأرَضة.

_أنا أنصحك فقط يا عفعف... أما مغامرتك مع هذا المائع غير مأمونة العواقب... ثم هل سيرضى والدك به أو ستقبل به ابنة إمام الجامع السابق، أمك بهذا العريس؟

_ اسمعي يا عرين... بعد كل ما أخبرتك بتعلقي به أما زلت مصرة على نهيي عنه؟ شيء غريب! اطمئني من ناحية أهلي لا عليك سأتصرف غصباً عنهم إذا لزم الأمر... ومع هذا صدقيني أنا أستطيع أن أحوله عن دينه إلى ديني ببساطة ثم أتزوجه، عليه أن يتقدم لي فقط وسترين بنفسك النتيجة.

_ أنت حرة، ولكنني مشفقة عليك بنصيحتي هذه... ثم افرضي أنه رفض أن يتخلى عن دينه، هل تتحولين أنت عن دينك؟ وهي مصيبة كبرى! عندها تُكفّرين ويستحل المشايخ قتلك بتهمة الردة!

ردت عليها ضاحكة:

_ لا تخافي سأحوله هو وأبوه وأمه إلى دين محمد (ص)... أنت لا تعرفين من أنا يا عرين!

_ أراك لا تحبينه بقدر ما ترمحين للزواج... متشوقة... وستندمين، ثم بسام خطيبك الأول كان ثرياً ومن دينك... لمَ فرطت به؟

_ لست أنا من تخلى عنه... إنما وجدته أمي متحرراً أكثر من تفكيرها، لذلك طردته شر طردة.

_ الله، الله وهذا ماذا ستقول أمك عنه إذاً وهو من غير دينك؟

_ ما شاءت... سأستشيرها فقط إن وافقت كان ذلك خيراً وبركة... وإن لا...؟؟! لن أفرّط به ولو أدى إلى انتحاري، على العموم لن أستبق الأحداث.

أما لو جئنا للحقيقة من الناحية الآخرى، فإن عرين نفسها كانت ترتاح ليوسف هذا ولأدبه ولطفه وطامعة بالزواج منه... لكن منعها عن التعبير

عما في نفسها، صراحة عفاف وانكشاف سرها أمامها، ما جعلتها تكتم حبها له وإعجابها به، خاصة وأنها ابنة كنيسته ومذهبه، ولكن كانت تتوقع أن جمالها المتواضع لن يلفت أنظاره... كانت عرين تفكر به، لكن للأسف كانت تعلم أن عفاف سبقتها إليه وأبدت صراحة رغبتها بالزواج منه! والأهم أنها تعلم أن يوسف لم يظهر أي إعجاب بها... ما جعلها تنتظر انقشاع هذه الغيمة، وإن كان أملها أن يقبل بها قد يكون قليلاً جداً... لذلك كانت تحاول جادة إبعاد عفاف عن طريقها بأسلوب لطيف، ولو أنها متأكدة أن الأمر قد حُسمَ، لذلك تركت الأمور تخضع لما ستأتي به الأيام... وما سينتج عن موقف أهل عفاف.

الفصل الحادي عشر

صيفٌ حار

جاء الصيف وجاءت معه مواسم المناسبات المفرحة... خطبة... زواج... ختان... ولائم للقادمين من السفر لقضاء إجازاتهم بين أهاليهم... تكررت السهرات، وتكررت مشاركات يوسف وعفاف، وبقوة الدلال والدلع جرّت عفاف أمها إلى حضور أكثر تلك المناسبات.

وتعددت أيضاً اللقاءات بين العاشقين عفاف ويوسف، وما كان أحلاماً بات واقعاً وصراحة، وراق الأمر لسعاد أمها، لقد وجدت ابنتها عريساً آخر لها وتعلقت به، وإن كانت الأم لم تعرف عنه شيئاً بعد، إلا ما ترى فيه من شباب وصحة، وشعر لم يخطه الشيب بعد، صحيح العريس يظهر عليه التقدم قليلاً عن مرحلة الشباب، لكنه متكامل وليس عجوزاً...

في البداية لم تجرؤ عفاف على الاعتراف أمام أمها بغرامها له ونيتها بالزواج منه، ولكن بعد كثير من التردد والرهبة فاجأت أمها برغبتها من ذلك:

_ أماه سيخطبني يوسف... قال لي أنه سيأتي ليطلب يدي منك.

_ ليأتِ... ما المشكلة أراه شاباً لطيفاً متزناً.

_ نعم يا أمي ولكن أمامنا مشكلة صعبة قليلاً، ولكن سأجد حلاً لها...

_ أكبر منك عمراً؟! لا مشكلة أنا أكبر من أبيك، وأنتما كذلك، ربما تعقلين عنده...

_ أماه هو ليس من ديننا... على دين عيسى بن مريم...

حبست الأم أنفاسها لحظات، ثم انفجرت بصراخ يكاد أن يصل بها إلى حد الهستريا! أصابتها حيرة شلت عقلها... لم ترد أو تعبر سوى بتقاطيع وجهها حتى ظنت ابنتها أن أمها أصيبت بجلطة وشلل! إلى أن تمالكت القليل من أعصابها... فقالت:

_ مسيحي ماذا... ماذا تقولين يا... كافرة... يا مرتدة! أتريدين أن يقام عليك حد الردة؟ ما هذا أيتها المجنونة؟ أتريدين إذلالنا أمام أهل القرية والجيران؟

نعم... في الحقيقة الأم لم تكن واثقة بابنتها، وتخاف من تصرفاتها المتسرعة غير المحسوبة أن تؤدي بها إلى السقوط في الخطأ، لذلك ما إن سمعت برغبة ابنتها بالزواج من غير دينها حتى جُنَّ جنونها...

سكتت قليلاً... نهضت... أسندت جسدها إلى الجدار، ثم اندفعت نحو ابنتها بقوة، وأمسكت بشعرها، ثم شدتها بسرعة حتى اسقطتها أرضاً، وهي تنعتها بأبشع الصفات التي تتميز بها أية بنت فاسدة منفلتة، لقد كانت الأم تعلم وترى أنّ الزواج من ذلك الشاب المسيحي خروج عن التقاليد والشرع لذلك تابعت ثورتها وانفجرت تؤنبها قائلة:

_ أتحبين من خارج الملّة يا فاجرة؟ ألا يوجد عقل في رأسك يمنعك عن التصرف بهذا الغباء؟... يابْنتي اتقي الله بنا... أنا ابنة المرحوم إمام جامع القرية، وهو الذي كان يُفتي لهم... ماذا سيقولون عني، وأنا بالذات ابنة الإمام الذي طرد شيخاً جاء يرمي فتنة بفتاوٍ لا سند لها، على الأقل الآن ارأفي بأبيك المسافر، ألا تعلمين كم يعاني والدك المسكين من قهر وتعب لأجلنا جميعاً؟!

ردت عفاف عليها بصوتٍ مماثلٍ لصوت أمها المرتفع:

_ نعم... نعم... أحبه واتفقت معه أن يتحول عن دينه إلى دين الإسلام... أفي هذا ما يغضب؟!

_ أتضمنين أن من يترك دينه لأجل امرأة مستهترة بدينها! وهل سيقتنع بالدين الجديد؟

_ يا إلهي يا أماه ما أقسى كلامك... كم تستبقين الأمور!

_ إن بقيت مصرة على تنفيذ ما في رأسك سأتصل بوالدك وأخبره بما تنوين فعله، وسأجعله يفكر بالعودة قبل الأوان، وإن كان هو لن يتأخر بالعودة... بالأمس أخبرني أنه على وشك العودة بشكل نهائي ولن يسافر بعدها، ثم أكيد ذلك الأفاك يخدعك!

_ أقسم لك أنه ليس كذلك، بل هو من أطيب الناس وألطفهم، ورأيت بنفسك منه ذلك قبل أن تعرفي دينه، ثم يا أماه أليس هو من خَلقِ الله؟ أم أنه من خلقِ الشياطين؟ إنه إنسان مثله مثلنا، وهل هؤلاء أعداء الله،

ويستحب قتلهم؟ إذاً لماذا خلقهم الله؟ أماه دعي عقلك يعمل، فكري به وليس بعقول الآخرين ولا تتبني أقوال الجاهلين.

_ اخرسي... اخرسي أنت وقحة أكثر مما يجب! إن ما تفعلين هو كفر وضلال... ثم اسألي إمام جامع الحي الجديد وسترين ماذا سيقول لك؟ سيقول لك سلفاً:

_ كفرتِ... كفرتِ... لماذا هو بالذات؟ ومن كان من غير دينه سيكفره رجال دينه... القرية تعجُّ بنساء ملته. عندها أجابتها بهدوء فيه من علامات التحدي والتشفي:

_ لا عليك يا أماه... سبقتك إلى هذا، لقد أخبرت الإمام وسألته، لهذا شكرني الإمام، وقال لي إن الله سيكتب لي أجراً وجزاءً على قبولي الزواج منه.

_ ماذا يا وقحة؟! الإمام قال لك هكذا؟ أيتها الكافرة تختلقين أقوالاً كاذبة على لسان رجال الدين؟ إلهي ما هذا التجديف؟ اعقلي... اعقلي، ثم عادت تكلمها بهدوء شديد؛ لعلها تقتنع فقالت:

_ ما أدراك يابْنتي خافي الله في دينك وأهلك وربك...

_ كلا يا أماه أنا لا أفتري ولا أكذب... بل قال الإمام لي أنني بهذا سأضمن لي مقعداً في الجنة حين أدخل رجلاً جديداً في الإسلام... أماه، الإمام أكد لي إن أدخلت الشاب دين الإسلام سيغفر الله لي كل ذنوبي، وسيكتب لي

عنده ألف حسنة بسبب ذلك؛ لأنني أدخلته في نور الهداية، وهذا ما سأفعله.

هدأت أعصاب الأم قليلاً، وقالت:

_ أُناشدك بالله يابنتي... لماذا تستعجلين بالزواج؟ انتظري نصيبك ربما يرسل الله لك من هو أفضل منه وعلى دينك فيسعدك، أو على الأقل انتظري عودة أبيك، ربما يوافقك، أما أنا فلن أوافق مهما كان الثمن.

_ يوسف... يا أمي شاب جميل وهو ابن أحد كبار التجار في أوربا وجاء إلى الوطن ليفيد أهل قريته وبلده، وسيفتح فروعاً لشركات والده هنا...

صاحت بابنتها وهي تستغفر الله في نفسها من كذبة ستطلقها:

_ يوسف... المسيحي، لكن يابنتي سمعت أنه أكبر دجال في القرية...

لقد رووا لي عن ألاعيبه الكثير... وفي نفسها تستغفر الله عشرات المرات... وقد فرضت عليها غايتها أن تكذب!

_ أماه... أماه... استغفري الله... مثل هذا الافتراء ليس لك... أنت ابنة خطيب وإمام جامع ولا يجوز لك إلقاء التهم جزافاً... حرام... حرام ما تقولينه يا أمي!

_ أتعلمينني الأدب أيتها الخبيثة... يا له من عذاب لك يوم القيامة على عقوق والديكِ...

بعد أن تفاجأت الأم بعدم اقتناع ابنتها للتخلي عن غرامها الجديد، أخذت في البكاء مجدداً، وحاولت بشتى الوسائل أن تثنيها عن رأيها، أو تقنعها

بموجة من القبلات والترجي والوعود كي تتنازل عمّا نوت عليه... لكن عفاف رفضت جميع تلك النصائح؛ وبقيت مصرة على رأيها... قالت لها بصوت يشبه الصراخ:

_ ألا يكفيك يا أماه ما فعلت بي في المرة الأولى؟! طردت عريسي، ولم تكتفي بذلك، بل فسخت خطبتي منه بسبب أفكارك الضيقة... وها أنت عدت اليوم كي تقفي حجر عثرة في طريقي؟ دعيني أبحث عن مستقبلي... أنا لست طفلة وأعرف مصلحتي... تلك اللحظة كانت الأم تحمل بيدها مكنسة ذات عصا، ما إن سمعت كلام ابنتها القاسي وصراخها في وجهها حتى ضربتها بها، لكنها ترنحت قليلاً ثم انهارت إلى الأرض تبكي وتنوح، وتندب فساد أخلاق ابنتها وعقوقها...

في النهاية لا الأم وافقت ابنتها... ولا تريد أن تشغل بال زوجها في غربته بمزيد من الشكوى... ولا ابنتها تخلت عن رغبتها، بل زادت إصراراً، وهددت بنفسها بتنفيذ ما نوت عليه...

صمتت ولكن كما يبدو من سكوتها أنها خططت لأمر بفكرها لم تبح به، فظل النقاش يومياً يحتدم بعنف بين عفاف وأمها في محاولة مستميتة منها لثنيها عن عزمها لكن دون جدوى.

استمر الأمر أياماً على المنوال نفسه...

في أحد الأيام أثناء معركة كلامية بينهما، دخل ابنها رامي على عجل وهو يلهث ولا يكاد يلتقط أنفاسه... تفاجأت به أمه وسألته مرتعبة ما أدى

إلى إصابتهما بالخوف والذهول... أمسكت به وأخذت تتفحصه من رأسه إلى أدنى قدميه... وتصرخ في وجهه:

_ ما بك يا رامي؟ هل ضربك أحد؟

نظر إليها بخوف وهو يقول بلهجته المتأثرة بموقف يبدو أنه أخافه، بينما أمه تمسك به وتفتش برأسه وجسده إن كان مصاباً بشيء أو هناك تمزق بثيابه... فقد كان هذا أول ما تبادر إلى ذهنها، أن يكون قد تعرض لعضة أحد الكلاب، أو أصيب بشجار مع رفيق له... لكنه تملص من بين يديها وقال:

_ لا أشكو من شيء يا أماه... لكن رجال الشرطة يملؤون الحي المجاور... يدخلون ويخرجون من بيت خطيبك يا عفاف... ردت الأم على براءته:

_ ومن هو خطيبها يا رامي؟ عفاف ليست مخطوبة لأحد!

_ بسام الذي كان يأتي ويجلس معها ويقبلها... نظرت الأم إلى ابنتها وهي تقول:

_ يا لك من محظوظة... يقبلك! عندما خطبني والدك بالكاد كنت أسمح له أن يلمح وجهي! آه منك يا عفاف... كم رخصت نفسك... رخيصة، لماذا؟ لماذا؟ في النهاية؟ أصبح الطفل يُلمح إلى شيء تدفعه براءته إلى كشفه... لكن عفاف دفعته وصاحت به:

_ ألا يكفيني أمك يا رامي؟

لكن الأم قالت منبهة ولدها إلى ما يقول:

_ اخرس... كلامك مسموم! ثم نظرت نحوه وغيرت الحديث فسألته عما دفعه للهرب:

_ أخبرنا ما الذي شاهدت في الحارة؟ أنت لا تفهم بمثل هذه الأمور... هيا اذهب واغسل يديك ووجهك... وببساطة الطفولة أخذ يروي لاهثاً ما رأى:

_ شاهدت بسام وأهل بيته جميعهم يركبون سيارات الشرطة... أماه... لقد نجوت بأعجوبة... خفت أن يروني... هربت بسرعة حتى لا يأخذوني معهم... تبسمت الأم وطمأنته قائلة:

_ لا تخف يا رامي... لماذا يأخذونك؟ الشرطة تأخذ من يسرق أو يعتدي على الناس... هيا اذهب وافعل ما قلت لك، ثم تابعت الحديث مع ابنتها وهي تقول:

_ غريب ماذا حدث لهذه الأسرة؟!

_ إنه طفل يا أمي... قد يكون رامي كاذباً أو يبالغ فيما رأى... لا أعتقد أن شيئاً مما قاله صحيح!

_ كلا يا عفاف... قد يكون بسام اعتدى على أحد، لقد رأيت منه الكثير عندما كان خطيبك... لا يهمه كرامة ولا احترام.

_ يا لك من موسوسة ظالمة يا أماه... أنت ترين صورة جدي والدك، ومسجده في كل شخص يعجبك! أما بقية الخلق فهم بنظرك كفرة أشقياء لا يؤتمن لهم... الله أكبر فقط.

_ أرأيتِ يابنتي كيف نجانا الله منه... لقد توقعت هذا منه... لا يؤتمن له ولا لأهله.

_ لا إلهَ إلا الله... من قال لك هذا يا أماه! انتبهي إلى ما تقولين... هذا افتراء!

_ ألم تسمعي ما قاله أخوك؟! كانوا يدفعون به إلى سيارة الشرطة هو وأهله مقيدون... انتبهي... قِدر الطبيخ تركته على النار سأذهب لأرى ما الذي يحدث حولنا... قد يحتاج أحد إلى مساعدة في مثل تلك الظروف... سأذهب لأرى.

_ إلى أين؟ لم يقل أنّه رأى أحداً مقيداً... لا، لا تذهبي يا أماه ليكن عندهم ما يكون... مالنا ومالهم؟! لم تتم عفاف كلامها حتى أصبحت أمها خارج الباب! ركضت عفاف تحاول الإمساك بها وتناديها:

_ أماه... أماه... عودي يا أماه ماذا سيكون موقفك أمام أهل الحيّ... ربما يدخلونك في قضية لا تعرفين منها شيئاً! على الأقل كشاهدة، يأخذون منك معلومات عن أخلاقهم وسيرة حياتهم في الحي.

_ غير مهم، الأهم أطمئن عن جيراني أولاً، بعدها ليكن ما يكون...

كانت غاية عفاف من عدم السماح لأمها في أن تتدخل أمها في أمور جانبية تبعدها عن قضيتها الأساسية... قضية غرامها الجديد، وتعلقها بيوسف، وتريد أن تفتح معها الحوار اليومي، عندما شعرت أن الحديث في الموضوع بدأ يأخذ طابع الهدوء بعد أن بدأ بثورة عنيفة؛ إلّا أن دخول رامي أوقف النقاش فوراً... وربما الأم وجدتها فرصة للتهرب من هذا النقاش.

الفصل الثاني عشر

بسام يتزوج

لابد لنا من تقديم صورة لحياة بسام وغنوة قبل الدخول في التطورات الجديدة في أسرته.

بعد فسخ خطبته من عفاف تعرف على فتاة يبدو أن الكثير من الحرية تميزها عن غيرها من بنات القرية...

سأل عنها... وكعادة البعض ممن لا يود أن يحمّل ضميره ما لا يحب، لم يخبره أحد بمسلكها... ومع أن البعض ابتعد عن فضح أعراض الناس، لكنهم أشاروا عليه بالبحث عن غيرها... لكنه أعجب بشخصيتها وحضور بديهيتها في أكثر من لقاء...

أصرّ بسام على الزواج من غنوة... لكنه لم يرَ فيها خلال قصر مدة الخطبة سوى أنها صبية حسناء متفتحة على الدنيا... وأنها منفتحة أكثر من اللازم بصداقاتها الشبابية ومخالطتها بعض الشباب، الذي لا يعلم أنهم من فاسدي المجتمع المخملي، وبما أنها تعيش في مجتمع ريفي محافظ إلى حدٍ ما، هذا المجتمع الذي لم تدخله الحضارة إلا حديثاً، بسبب اغتراب بعض شبابه إلى دول خليجية، ومعاشرة من فيها من مِلل ومشارب متعددة

الثقافات... فأخذ شباب القرية بعضاً منها، كلّ حسب البلد التي عمل فيها، فمن كان عمله في السعودية تطبع ونقل التشدد والتمسك بالدين... وأما من تغرب في الكويت والبحرين والإمارات فكان أكثر انفتاحاً، وجلب معه بعض أفكار التحرر وما أعجبه من عادات المقيمين في تلك الدول!

وطبعاً لا يجهل من سافر من قرائنا الأكارم هذه النماذج... السبب البديهي تنوع الوافدين للعمل هناك من جميع الدول الآسيوية أو الأوربية، للعمل في كثير من المهن في تلك الدول...
تعددت أطياف المغتربين هناك... فاقتبسوا منهم بعض عاداتهم... ما جعل بعض العادات والممارسات الغريبة تنتقل معهم إلى القرية أو الريف عامة... منها شكل الحفلات، ونوع الأزياء الرجالية والنسائية، كذلك بناء البيوت وديكوراتها، كما جلبوا الكثير مما كان يعرض في أسواقهم من أزياء حديثة مختلفة المصادر وحملوا معهم بعض العادات في المأكل، بسبب اختلاط شعوب دول الخليج مع الأوربيين والأمريكيين الذين كانوا يجوبون شوارع وحدائق تلك الدول ويستجمون على الشواطئ بشكل مستمر.
وكما أن بسام في الوقت نفسه كان من أسرة متحضرة أيضاً، فرضتها عليه حياته في المدين الأوربية مع أسرته وعلاقاته مع أصدقائه في المدينة والجامعة... ما جعله لا يلتفت كثيراً لتلك الصداقات التي تتخذها غنوة... فتزوج منها على عجل.

لم يشعر بسام بسعادة كبيرة خلال زواجه من غنوة هذه، وكما علمنا أن سبب تعجله بخطبتها، ثم الزواج منها أي غنوة ليس أكثر من ردة فعل كيدية بعد فسخ خطبته مباشرة من عفاف... على أي حال كان الأمر شبه مقبول لديه لأنه لم يعد له مفر من تغيير الواقع.

لم يطل الأمر به كثيراً حتى بدأت تتكشف لديه بعض الأمور الغريبة جداً، التي باتت تحدث في بيته أثناء غيابه، وبعضها أثناء وجوده في المنزل ما لم يخطر له على بال... لكن حادثة غريبة جداً ومستهجنة وقعت منذ فترة في بيته.

ولم يكن قد مضى على زواجهما فترة ليست طويلة؛ فتحت عينيه على أمور صعبة التصديق... فذات يوم اتصلت زوجته به وهو في مكتبه قائلة:

_ حبيبي... ستزورني اليوم بعض صديقاتي وأصدقائي... لا تنسَ أن تحضر معك حلويات وفواكه من الأنواع الراقية حتى يعلم الجميع من هو زوجي حبيبي.

_ نعم المفروض ذلك، ولكن حبيبتي سأتأخر في العودة... أمامي أعمال كثيرة في المكتب... إنما سأرسل لك ما تطلبين مع سيارة أجرة الآن... على حد علمي أن الميني ماركت الجديدة في الحي متوفر فيها كل شيء... أعلم أنه يطلب بضاعته من المدينة يومياً...

_ بسبوس حبيبي لقد ذهبت إليه طبعاً... وجدت أن كل ما عنده من حلويات ما هي إلا شعبية من مستوى أهل القرية وإمكانياتهم... حتى

الفواكه أنواع متوسطة لا تصلح للضيافة... لا تنسَ حبيبي أنّ زوارنا من الطبقة الاجتماعية المخملية... "الهاي".

_ حاضر... حاضر... سأرسل لك ما تطلبين.

قبل أن تغلق السماعة:

_ يا الله، كم كنت أود أن أعرّفهم على زوجي حبيب عمري.

_ حسنٌ سأحاول العودة قبل رحيلهم... هذا إن استطعت.

_ حاول يا حبيبي... أريد أن أكيدهم بك... وأجعلهم يغارون مني حين يرون من هو شيخ الشباب زوجي المتحضر الراقي... حبيبي.

بالفعل اشترى أطيب الحلويات، وألذّ الفواكه، ثم قام بالحضور مبكراً بعد أن قام بتأجيل مواعيد الزبائن، وتأجيل مراجعة سجلات البيع والديون والمصاريف إلى وقت آخر... الخ.

أخذ يحادث نفسه في طريق العودة:

_ إنها فرصة أتعرف بها عليهم... يجب أن أرى من أولئك "الهاي" أصدقاء زوجتي... اليوم سأقابل أبناء العائلات المخملية... ربما أكسب منهم عقود تصريف بعض بضائع من شركاتنا لهم... ثم يقول متسائلاً: ترى من أين هم الذين تصفهم غنوة بالطبقة المخملية العالية؟ ثم من أين أتت معرفتها بهم؟ يا إلهي... كانت تتكلم بلهفة حين وصفتهم لي ما جعلني أشعر كأنهم جاؤوا من كوكب آخر...

أغلق مكتبه مبكراً وأحلام العظمة تدغدغ مشاعره... غداً سيصبح من كبار رجال الأعمال على يدهم!

انطلق إلى قريته وبصحبته أفخم الحلويات والفواكه، التي اشتراها من أشهر المحلات.

ما إن قرع جرس بيته، حتى هرعت زوجته لاستقباله بالقبلات والكلام الناعم، وحاولت التصنع أمامه بالتلفظ ببعض الكلمات الأجنبية، وفي الوقت نفسه تتفحص علب الحلوى وأكياس الفواكه.

_ آه... يا بسام كم أحبك... اسم على مسمى... بساااام... حياتي... حسناً فعلت بحضورك... يا الله كم أنا سعيدة لوجودك معنا هذه المرة... لا تسل كم كنت في المرة الماضية كئيبة وحزينة جداً، لأنك لم تكن معنا. رد عيها بصوت بدت السعادة واضحة بنبراته:

_ الحمد لله... وسأكون مسروراً جداً بمعرفتي لأبناء الطبقة المخملية كما تصفينهم... ثم ربما أحصل على عقود تصريف لمنتجاتنا عندهم.

سكتت غنوة وأخذت تبتلع ريقها ولم تجب... بينما هو كان يرتدي أشيك بذلاته ويمني نفسه بمعرفتهم وإقامة علاقات عائلية وتجارية مربحة.

أنهى بسام لبس ثيابه، ورش على نفسه أفخم العطور، ثم جلس على شرفة غرفة النوم في شقتهم الواقعة في الدور الثاني ينتظر قدومهم... ولم يطل الانتظار كثيراً...

بعد قليل بدأت تتوافد على المنزل بعض الصبايا، وبرفقتهن بعض الشباب... لكنه لم يستسغ حركاتهم... رأى فيها الكثير من الميوعة... تمعن بأولئك الشباب الداخلين من باب العمارة، الجميع ملتحون، شعورهم مسترسلة... ثيابهم غريبة، جنز ممزق من الأمام والخلف... بينهم من يحمل غيتاراً أو آلة موسيقية أخرى... تمتم بنفسه:

_ ما هذا؟ جنس ثالث! سكان كوكب آخر! يا إلهي صبايا ملتحون؟! شيء غريب... لحظات وتبعهم آخرون بالأشكال نفسها... قُرع الجرس يستدعي زوجته التي جاءت على عجل، لتستحثه على استقبال الضيوف قائلة بدلال زائد:

_ حبيبي ماذا تفعل هنا؟ الضيوف بدؤوا بالوصول...

_ رأيتهم من الشرفة... هؤلاء ضيوفك؟! هل هم من بني البشر؟! أهذه هي الطبقة المخملية التي تتفاخرين بها؟ أظن وبحسب رؤيتي بأشكالهم... أقسم أنهم ما سوى طبقة من الجنفيص أو الخيش...

أتمنى أن تقولي لي متى خرجوا من الكهوف؟ لقد عشت في المدينة ورأيت المدنية، فلم أرَ مثلهم بين البشر!

_ لا ياحبيبي... لا، فقط انزل وقابلهم وسترى لطفهم ومرحهم.

_ نعم لا بد من ذلك... سأقابلهم... ولكن؟؟؟

نزل بسام إلى الصالة يتبختر ببذلته الأنيقة، يحاول مضطراً كي يرضي زوجته، بإظهار أكبر قدر من الترحيب بهم...

ما إن وصل إليهم حتى رنت ضحكاتهم بأذنيه، وبدأت سخريتهم تتضح من نظراتهم المتبادلة بين بعضهم البعض... كانوا يحدقون به، يستغربون شكله بحركات من أصابعهم، يتهامسون بشفاههم، ويشيرون نحوه بأيديهم، فهم قصدهم... إنهم يتساءلون:

_ من يكون هذا الرجل صاحب الشكل الغريب؟ ظل واقفاً يلتزم الصمت، إلى أن قال أحدهم لرفيقه وهو يلوك الحروف بلهجة تتصف بالميوعة الزائدة... أظن هذا الرجل لا يعيش في كوكبنا! لا أعلم من أين جلبته غنوة؟ رد عليه آخر:

_ لا أدري لماذا غنوة دعت هذا المتخلف... بينما اقتربت منه إحدى الفتيات وهي تمضغ العلكة وتتكلم من زاوية فمها... وقالت وكأنها مشفقة عليه:

_ أووو... مسيو... حفلتنا ليست تنكرية... إنها رسمية... نظر بسام إلى بذلته الأنيقة التي اشتراها من باريس، لكنها سبقته وسحبته بلطف من ربطة عنقه... أووو... دادي... أنت كلارك جيبل... (بطل فلم ذهب مع الريح؟؟) نو... نو، أومر الشيريف، أنت آرابي... أرابي!

رد بالطريقة نفسها لكن بسخرية لاذعة:

_ وي... ويييييي... أنت بتلة (بطلة) فلم بائعة الكبريت؟! عرفتك من ثيابك الممزقة...

_ نووووو... نو... فستاني من شركة "هاي" اشتراه لي بابي... تركها بسرعة ووقف يتمعن ببقية المدعوين يتأمل حركاتهم وتصرفاتهم... ثياب ممزقة... قبلات متبادلة دون تحديد هوية... لا يهم بين أنثى وأنثى أو بين جنسين مختلفين... تأبط... معانقة... فجأة حمل كل فرد من الجنسين آلة عزف وبدأ الضجيج يعمّ المكان وكأن فرقة عسكرية تتدرب لأول مرة على عزف مقطوعة جديدة لعيد وطني دون نوته... كل على هواه... ثم بدأت الأنخاب وطرق الكؤوس وتكسيرها، بعد كرع ما فيها دفعة واحدة... استفزته هذه المناظر... نظر حوله... انسحب لدقائق، وعاد بيده بندقية آلية... أطلق منها نحو السقف رشقة أوقفت كل ضجيج في المكان... وتناثرت قطع الثريا المعلقة على رؤوسهم... خيم الصمت ودبّ الرعب... صرخ فيهم:

_ سأعد إلى الثلاثة، احذروا... (الصايع أو المائعة) بعدها من أجده هنا سأفرغ البندقية في رأسه.

لم يكمل كلماته حتى خلا المكان منهم ومنهن... ركضت غنوة نحوه بسرعة، وأخذت بالبكاء والصراخ تبكي وتصيح:

_ لماذا تطرد أصدقائي من البيت؟ ليتك لم تأتِ إلى هنا... في المرة الماضية عندما لم تكن موجوداً معنا استمتعنا... أنت متخلف... أنت الذي تعيش

في عصر الكهوف، ثم هجمت نحوه تدق بقبضتيها صدره وتصرخ في وجهه... متخلف... رجعي... بلدي...

أجابها بهدوء شديد تصنّعه للحظةٍ:

_ اسمعي ما سأقول... أمامك حلّان لا ثالث لهما... إما أن تكون هذه آخر مرة تدعينهم إلى هنا... لا بل تتخلين عن صداقتهم نهائياً، بل تعطينني مفتاح سيارتك كي أبيعها لك... وإما أنت وسيارتك إلى بيت أهلك لا يرافقك سوى ما تلبسينه الآن في هذه اللحظة... هيا اختاري... واحد... اثنان... ثلا...

هجمت نحوه بسرعة قبل أن يكمل، وبيدها مفتاح سيارتها، على الفور وضعت كفها على فمه قبل أن يكمل كلمة ثلاثة... ناولته المفتاح، وجرت باكية إلى غرفتها.

أغلقت بابها خلفها، وأخذت تنتحب وتنعي سوء حظها، وتلعن الساعة التي تزوجت فيها بمن أفقدها حريتها...

دقائق وطرقَ بسام الباب عليها... لم ترد! ما جعله يظن أن شيئاً ما أصابها أو أنها انتحرت... دفع الباب بكتفه بقوة دون أن ينتبه إلى أن الباب كان مغلقاً دون لسان القَفل... مما أفقده ثباته وجعله يجري خطوات متسارعة ويسقط فوقها... ظنت أنه فعل هذا متعمداً كي يترضّاها... زادت من بكائها ونشيجها... أخذت تعاتبه قائلة:

_ أهكذا تحرجني وتكسفني أمام أصدقائي؟

_ من؟؟ أولئك الغجر؟ كأني بهم من رجال الغابة الأوائل! قسماً بالله... حتى الذين سمعت عن بدائيتهم... ممن كانوا على سفينة نوح... أفضل منهم.

_ لماذا تهين أصدقائي؟ أحرجتني أمامهم!

_ أولئك ليسوا من البشر... خيرتك قبل قليل بيني وبينهم.

ما سمعت جملته الأخيرة حتى علمت أنه ما زال على رأيه... عندها صمتت قليلاً، وقالت وهي تمسح دموعها:

_ أنت دنياي وحياتي... لكن لا تحرمني سيارتي... ثم لا تنسَ أنها رافقتني من بيت أهلي، وثمنها من تعبي اشتريتها وأنا عندهم... كنت أعطي الطلاب في بعض البيوت دروساً خصوصية... سنوات عملت حتى جمعت ثمنها بشق النفس.

_ لك هذا، لكن شريطة قطع علاقتك نهائياً مع تلك الحثالة... تصنعت الابتسام، ثم قامت وعانقته وهي تقول له:

_ لن أستبدلك برجال الأرض أنت حياتي وروحي...

_ هذا ما كنت آمله ممن ضحيت بحريتي وعزوبيتي لأجلها، ومن عشقت النسمات لأنها تحمل لي عطر أنفاسها.

_ يا إلهي كم أنت رومانسي... هذا ما جذبني إليك... إن رونق كلامك هو الذي أدخلك في أعماق قلبي وذائقتك وسحر شخصيتك.

_ أحقاً تقولين؟ أتعلمين أن هناك من جاء يعاتبني على اختياري لك؟ وصفوك لي بأبشع الصور... لكنني كذبتهم في كل شيء، ولم أصدق كل ما قيل عنك... لكن اليوم؟!!

فقالت ممازحة:

_ إذاً لماذا لم تنسحب من حبائلي؟

عندها أخذ يتودد إليها:

_ وهل لمتيمٍ بك نجاة من سحر عينيك؟! ثم قادها إلى شرفة المنزل وجلسا جلسة عتاب وتصحيح مسار لحياتهما، ثم سألها:

_ هل أولئك الغجر هم أبناء وبنات الطبقة المخملية (الهاي) التي قلت عنها؟

_ نعم... نعم، أكثرهم أبناء مسؤولين وأبناء كبار التجار في البلد.

_ وهل هي أخلاق آبائهم والأمانة التي حملوها لإسعاد الشعب؟

وكأن تأثير التربية الفاشلة عاد ليظهر من جديد في ردها السريع!

_ نعم الدنيا التي تعرفونها أنتم تغيرت... الجلباب رحل وجاءت البذلة الرسمية مكانها، ثم رحلت وحل محلها الجنز وبعده جاء الممزق.

_ ولكنني لم أرَ مسؤولاً واحداً يلبس هذا الممزق أو أحد التجار... اتقي الله في ديننا يا ابنة حواء.

_ حياتي، وشأني يخصانني... ولكن لأجلك سأترك كل شيء.

على هذا مرت مدة طويلة على الحادثة، وعلى زواجهما وبقيت العلاقة ظاهرياً بينهما فوق الشبهات... لكن ما كان يجد في مسيرة غنوة، حتماً لا يعلم به بسام... كان أسلوب تعاملها مع أصدقائها مشبوهاً إلى درجة أنها خفيت عن جميع من يعرفها، سوى من كان شريكاً لها بتلك العلاقات... حوالي خمس سنوات مرت على الحادثة أنجبا فيها طفلين... ومع ذلك كان فاقداً للثقه بها، والشك يقلقه دائماً... لم يكن يشعر أن هناك ما يدور دون علمه خارج البيت... لم يظن أن أمورها الأخلاقية ستتطور إلى ما لا يصدقه عقل...

وهذا ما سنراه في فصول قادمة.

الفصل الثالث عشر

تحقيق حلم

آن لنا العودة إلى عفاف وأحلامها، ويوسف وآماله.

مضت أشهر على عودة يوسف إلى قريته، وأوشك أن ينتهي تقريباً من دراسة جميع الأمور المتعلقة بالمشاريع التي جاء لأجلها... وعفاف تحرق بأعصابها صابرة على أحر من الجمر بانتظار أن تقتنع أمها الرافضة بفكرة زواجها من هذا الشاب!

الأم ترفض الفكرة من أساسها، وبالتالي علقت الأمر برضا والدها، وهي متأكدة من رفضه للفكرة... في النهاية منعتها من فتح هذا الوضوع أمامها نهائياً... وكان رأي أبيها أيضاً من رأي زوجته، إلّا أنه كان يطلب تأجيل الموضوع إلى ما بعد عودته من السفر، ومع هذا كان يهدد ويتوعد من بلاد الغربة على الهاتف عندما يتكلم معها، لم يعد لها من بد من حسم الأمر، إما أن تتنازل عن مشروع الزواج وهذا مستحيل... وإما أن تتخذ الطريق الصعب، وهو أن تهرب معه...

اليوم جلست عفاف في غرفتها تفكر بالحل الذي سيحسم الأمر... وأن تتنازل عما كانت تفكر بما لم تصل إليه منذ بلوغها، أي سن الزواج، حينما

ترسم بمخيلتها الحصان الأبيض الذي ستمتطيه إلى بيت حبيبها برعاية أمها وأقاربها... وهنا علمت أن لا شيء من هذا سيتحقق... فبدأت ترسم طريقة للهرب معه تخسر من خلالها رضاء والديها وقومها... وبهارج حفلة الزفاف!

أغلقت باب غرفتها عليها، ثم جلست تخطط لتلك الفكرة الخطيرة التي وجدت فيها الحل المعقول لمشكلتها، ومع أنه كان صعباً وقاسياً جداً عليها وعلى أسرتها... لكنها جعلتها كضربة حظ جديدة... قررتها، وإن كانت تعلم بنتائجها الواضحة والمعروفة، ولتبرر لنفسها سبب مغامرتها، قررت أن تحاول مجدداً محاولة أخيرة لإقناع أمها... حركت جميع أساليب التوجع والاستعطاف والترجي لكن دون جدوى... كان الرفض حاسماً كالمعتاد!

اتصلت بوالدها، وجربت أن تغير موقفه حيال الأمر لكنه رفض قطعاً وأحال الأمر لأمها... في النهاية يئست عفاف من موافقة والديها.

قررت أن تنفذ خطتها، وتقوم بتلك المغامرة الكبيرة... مهما كانت مؤلمة وقاسية، وجلست تحادث نفسها:

_ ما من غروب شمس إلا وبعده شروق... وما من زعل مهما طال أمده، إلا ويخبو وتبرده الأيام... لن أنتظر حتى أخسر هذا الشاب أيضاً... على الأقل هذا بدأت أحبه، وصاحب إرادة قوية، ولا أرى فيه ضعف الأول، وقلة حيلته.

جلست قرب النافذة تنتظر مرور يوسف اليومي كعادته من أمام المنزل... رمت ورقة كتبت فيها:

_ الليلة حفل زفاف ابنة خالتي، وسأكون هناك... ضروري حضورك، حتى وإن لم تكن مدعواً لحضورها، وهي الطريقة التي كانت تتم بها أكثر لقاءاتهما... أي المناسبات التي لا تنقطع في الصيف، من خطوبة وزفاف وعودة مسافر...

أثناء الحفل سألها:

_ هل وصلت إلى نتيجة مع أهلك؟

_ كلا ولن أصل... أمي رافضة وتحيل الأمر إلى أبي، وهو يقول أنّه ترك المهمة لها!

_ وأنت هل هناك أي معارضة من أهلك؟

_ بالنسبة لي لن يعترضوا... ولكنني لم أخبرهم بأنني مضطر لتبديل ديني... لكن أمام إصراري لن تكون مشكلة لهم ولن يمانعوا تنفيذ رغبتي... بل أمنيتهم أن أتزوج من وطني وقريتي؛ ففي ذلك سعادتهم.

_ إذاً لم يبقَ أمامنا سوى الهرب، دعنا نضعهم تحت الأمر الواقع.

_ نعم... وهذا ما فكرت به... لم يبقَ لنا سوى هذا الحل... في الصباح الباكر تنتظرينني أمام منزلكم، وسأمر بسيارتي عليك، على الفور تركبين بسرعة... دعينا ننطلق لبناء حياتنا بإرادتنا.

وهكذا اتفقا معاً على الهرب معاً في صبيحة اليوم التالي إلى المدينة، وكانت الخطة أن يتزوجا هناك فترة، خلالها يستخرج لها جواز سفر، وفيزا من سفارة البرازيل للسفر معه... طبعاً كان هذا مناها...

ما إن صعدت في سيارته حسب الموعد حتى قالت:

_ اسمع يا يوسف... أنا أحبّك كثيراً كما تعلم، ولكن أحبّ أهلي أيضاً... صحيح أنني سأتزوجك على الرغم من إرادتهم، ولكن كما اتفقنا من قبل... تتحول إلى ديننا، وتوثق زواجنا لدى المحكمة الشرعية قبل الدخول بي.

فأجابها:

_ نعم موافق على كل شروطك.

ما إن استقرا في المدينة، حتى تزوجا ووثقا زواجهما شرعاً في إحدى المحاكم الإسلامية... بعد أن ذهب إلى شيخ هداه إلى الإسلام وتبع دين عفاف... هنا سعدت عفاف بما تم وإن كانت لم تتوقع أن يتم الأمر بتلك السرعة... ونفذ شروطها ببساطة بعد أن أبدى موافقته على جميع طلباتها، وأثبت لها أنه يحبها، ولذلك خاطر لأجلها... لكن ظل الخوف قائماً أن يتعرض لأذية مستقبلاً من أحد أقاربها.

حقيقة لم يمانع الشاب مطلقاً، لأنه كان يحبها حباً صادقاً وهي أيضاً كانت تبادله ذلك الحب بالمثل... كان لها ما أرادت... لذلك نجحا فيما أرادا.

بعد أن أشهر يوسف إسلامه... أخذت تتسارع الأحداث... استأجر لهما شقة مفروشة مؤقتاً في المدينة، وتزوجا شرعاً، وبما أنه كان في بحبوحة واسعة

جداً، لذلك لم يحرمها من شيء تطلبه أو تشتهيه، وكانت أمنيتها أن يذهبا إلى أوربا لقضاء شهر العسل والسياحة، وكان لها ما أرادت.

الفصل الرابع عشر

عودة إلى الوراء

ابتعدنا كثيراً عن سهاد وراضي، والآن لا بد لنا من العودة إلى الوراء لنعلم التطورات في قصة راضي وسهاد، بعد أن تركناهما فترة بعد المشاجرة التي حصلت بسبب سيره وراء الفتيات... ثم تمت حمايته من صاحب بقالة الحيّ.

بعد المعركة التي دارت بين راضي وزميل له يدعى سميراً، وأنقذه صاحب بقالة حدثت المشاجرة أمام دكانه، وكان راضي قد تعرض للضرب العنيف من قبل أحد الشباب.

كان يعرف راضي في البداية الغاية من اعتداء الشاب عليه، والسبب الذي دعاه إلى ذلك! ما دفع راضي لأن يهدد ويتوعد بالثأر منه... إلا أن صاحب الدّكان حاول تلطيف الجو قائلاً:

_ لا تخطئ يا ولدي... أمامك مستقبل طويل، لا تضيعه لأسباب تافهة.

_ وهل ما حصل منه كان تافهاً؟

_كلا... كلا، ولكن مستقبلك أهم... أراك عاقلاً... تجاوز هذا الآن وتابع دراستك، ولا تجعل من الحادثة سبباً لتخسر ذلك المستقبلك، ولا تنسَ أنّ وراء الانتقام مخافر شرطة وقضايا ومحاكم... ربما تتشتت أفكارك خلالها ويتعطل تحصيلك الدراسي، أنا أعلم أنك تدرس هذه السنة الأخيرة لاجتياز الشهادة الثانوية... سكت راضي على مضض ثم شكره، وبدأ يلملم حاجياته التي تبعثرت على الرصيف، وبعدها همّ بمغادرة المكان وهو على حاله، لكن عندما نظر في المرآة ليرى مصدر الدماء التي في وجهه... ورآه شبه ممتلئ بالدماء... عندها قرر البقاء في المحل قليلاً لتنظيف الجروح وتعقيمها، ثم يتابع سيره إلى المدرسة.

وجاءت المفاجأة الكبرى له التي أذهلته.

دخلت سُهاد مسرعة إلى البقالة تلهث، ويبدو على وجهها إمارات الذهول والغضب... اتضح له سبب اهتمامها عندما اتجهت نحوه مباشرة وقربت وجهها من وجهه.

لاحظت سهاد أن الكدمات غير النازفة الظاهرة على وجهه قد أخذ يتحول لونها إلى الزرقة، وبدأت تظهر تدريجياً على قسمات وجهه.

وقفت لحظات أمامه تتأملها دون أن تصدر منها أية كلمة، وأخذت الدموع تتدحرج على خديها كلآلئ عكست بريقها أشعة الشمس، فأعطت بريقاً لامعاً شعر راضي أنه يخترق فؤاده، ويحرقه... وأحس بالدموع التي تذرفها لِما أصابه كأنها تعبر بها عن حبها له.

بالمقابل هزته العاطفة وحركت وجدانه، وأخذت تترقرق الدموع في عينيه... مدت يدها نحو جبينه تتلمس إحدى الكدمات التي بدأت تظهر على جبينه... لكنها ترددت قليلاً حياءً، وبعد صمت قصير وصوت ملؤه الغصة، ولهجة فيها الرقة والشفقة لِما أصابه سألته بلهجة حاولت أن تتصنع معها بعض الجدية، التي لم تستطع أن تخفي الحنان من نبرات صوتها:

_ أتؤلمك هذه يا... لكنها لم تكمل الجملة، ويبدو أنها كادت أن تخطئ وتقول عبارة ربما تحمل من المشاعر العاطفية الكثير... كعبارة يا قلبي أو يا روحي، لكنها أتمّتها بغصة لم تخف عليه حين أكملت: يا ابن خالتي بعد أن استطاعت أن تتمالك مشاعرها!

في الوقت نفسه كان يعتمل بداخلها أتون من العواطف الجياشة والخوف عليه، بما أثر عليها منظر الكدمات في وجهه، لكنها تداركت الأمر وتمتمت همساً تؤاخذ نفسها:

_ يا إلهي... كان لساني سيعبّر عما جدَّ في قلبي من حيث لا أدري... بماذا كان سيورّطني عقلي؟!

وأخذت تتساءل متعجبة:

_ هل هي شفقة مني على قريبي؟ مؤكد... فهو ابن خالتي أولاً... ثم زميل التلمذة سابقاً في المدرسة، وزميلي اليوم... وفي الوقت نفسه ابن بلدتي وجاري... أخذت تتساءل من جديد:

_ تُرى ما الذي تغير فيّ...؟ أنا لم أشعر قبل اليوم بأن راضي أكثر من أخ لي أو صديق!

وفي الوقت نفسه كانت تدغدغ قلب راضي عاطفة ملتهبة، وشعور كنار تعتمل في صدره كلما سمع لهجتها، وعباراتها المشفقة التي بادرته بها من حيث لم يكن يتوقع...

بات الآن يشعر أن قلبه يكاد يقفز من صدره، وأخذت دقاته تقرع بأذنيه كصوت طبل أجوف يضرب عليه مجنون... زد على ذلك قشعريرة تهز جسده.

قبل هذه اللحظة كانت القلوب تخفي عواطفها وما لم تستطع أن تعبر عنه قبل هذه الحادثة، بعد أن كان يظهر أمامها أنه ليس أكثر من حارس أؤتمن عليها! ولم تعطِه حقه وتعبر له عن واجب الشكر أبداً...

أما هو فكان كلما سار خلفها من بعيد يشعر بأن قلبه يقفز من صدره ليسبقه ويسير خلفها مباشرة... فيطير خارج جسده... يحوم حولها أو قربها أو فوقها أشبه بحمامة بيضاء ترفرف بجناحيها فوق فراخها لتبرد عشهم في صيف قائض اشتدت حرارته! اليوم آن لتلك المشاعر المكبوتة الحبيسة في صدره أن تفلت من عقالها...

يستعيد شعوره عندما تسير بين رفيقاتها... تتوسطهن أحياناً وأخرى على أطرافهن... عندها كان لا يرى من بجانبها أو من يسير معها... لا يرى أحداً ما سواها... نظره معلق ما بين أسفل قدميها وقمة رأسها... إن مالت يميناً

تتحرك يده لحظة وكأنه يقيها السقوط، وإن مالت شمالاً يهب بيده اليسرى ليسندها من الجنوح... يحس أن حياته معلقة في قامتها... إن تعثرت أمامه في مشيتها يمد يديه الاثنتين ليحميها من السقوط... يتلهب قلبه خوفاً ورأفة... أحياناً لا شعورياً يسحب يديه من جيوبه ليكون جاهزاً لحمايتها من سقوط مفترض، ولسانه يلهج بالدعاء طالباً لها السلامة، ونجاتها من أي مكروه... استفاق الآن من أعماق فكره، ولم يصدق أنها أمامه بشحمها ولحمها... لكن للأسف لا يجرؤ أن يبث ما في نفسه أو يتغزل بقامتها، ومع هذا كان قلبه يرسل لشفتيه تمتمة وهمساً لا يسمعه أحد.

يستعيد في عقله كل ما يعتمل في قلبه من لحظات عشق خرجت من قيود سجل الزمن...

يمر كل هذا في خاطره مذ مدت يدها نحو وجهه... فجأة... تراجعت وبقيت يدها ممتدة، ويبدو أنها أصرت على الفوز بلمس خده!

شعر راضي بنشوة غريبة، على الأغلب يحسد خده الذي فاز بتلك اللمسة، فحوّلها إلى قشعريرة أخذت تهز أوصاله... لقد كان هذا أكثر من حلمه.

انتفض الآن عقله الذي ذكره أن عبئاً ثقيلاً يحمله على كاهله في المحافظة على أمانة استؤمن عليها... فتساءل:

_ أين يا راضي ما اؤتمنت عليه؟ أين عهدك لوالدها؟... لم يشجعه قلبه على التصريح بكلمة واحدة تشير إلى ما يحس به... عاد إلى وضعه، وقال في نفسه:

_ إن أي بادرة مني مشكوك بها نحو سهاد قد تقطع بي سبل العلم...

كما كان دائماً لا يجرؤ أن يتركها تسير وحدها، ويسير بصمت وحياء لا بد أن يستمر على ما هو فيه... لكن المصيبة فيما أخذ يجتاح صدره من لهيب ينتشر في جميع أنحاء جسده... أوشكت ملامحه أن تفضح ما يكن لها من حب في وجدانه، ومن عاطفة لم تكن جديدة عليه... لم يسمح له واجبه بالتصريح الآن كما من قبل... ومنذ دخلا المدرسة حتى هذا اليوم؛ لم يشعر بمثل عاطفته هذه...

كان راضي من المتفوقين البارزين في نتائجه الدراسية، وهي تدرس المرحلة نفسها، وكان الفرق بينهما في التحصيل الدراسي كبيراً جداً.

سُهاد لم يكن لديها التركيز التام في دروسها... وربما كان السبب أن استيعابها للعلم أقل من راضي، ودافعها للعلم أقل منه بسبب يسرة حالتها المادية... بينما فقره وطموحه يدفعانه لتحقيق أحلامه... ثم هناك الأهم، وهو أن أباها ينفق عليه في كل ما يحتاجه بسخاء، ولا يريد أن يضيع له جميله.

ما إن وصلت راحة يدها إلى خده حتى شعر بتيّارٍ متماوج يسري كقشعريرة حمى تغزو جسده... هذه هي المرة الأولى التي تلامس يدها جسده... وأين؟ في وجهه مرة واحدة! لم يكن يحلم أو يجرؤ على مصافحتها فكيف الآن يدها تلامس خده؟

غمرته سعادة عارمة، كما أخذت رعشة ناعمة تعبث بأوصاله حتى كادت أن تفقده عقله وترميه أرضاً.

نعم... لم يكن يحلم سابقاً أن يلمس يدها... فكيف الآن ويدها تمر على خده في عدة أماكن؟

رفعت رأسها على الفور، وطلبت من البائع أن يحضر لها بعض الكحول، وكمية من القطن والشاش... بللت القطن بالكحول وأخذت تمسح أماكن الرضوض في وجهه، وقف مشدوهاً أمام هذه العاطفة الصريحة... كان يتراجع ببطءٍ شديدٍ كلما لمست وجهه بالقطن المبلل.... ليس ألماً أو خوفاً من الكحول، ولكن من هذا الودّ الذي لم يكن ينتظر أن يتكشف، والعاطفة المفاجئة! بدأت سُهاد تظهر بعض الضيق من تراجعه كلما لامسته، ولا تدري لماذا لا يتمكن من الوقوف أمامها بشكل متزن، عندها نهرته مبتسمة بصوت رن بأذنيه كعزف ناي خرج عن فم عازف متمرس:

_ تشجع ما بك يا راضي؟ ألا تستطيع الوقوف؟ إذاً اجلس على هذا الكرسي، وأشارت إلى كرسي فارغ قريب منهما... سحبته نحوه حتى جلس عليه... وقلبه يشدو بالرضا والسعادة... حاول أن يسألها من أخبرها بما حصل، أراد أن يرد عليها شاكراً... لكن اللفظ خانه في كل مرة فتح فمه ليسأل... فكما يبدو أن حاسة النطق هذه اللحظة تجمدت عنده، وشُلّ لسانه.

ثار فزعها مع خيط رفيع من الدم أخذ ينسل للحظة من زاوية فمه! ما جعلها تصيح بصاحب الدكان كي يطلب له الإسعاف، لكن النطق عاد إلى راضي بسرعة، واستيقظ من غفلته، وهزته عاطفته الجياشة فقال:

_ كلا لا داعي إلى أن نجر أنفسنا الى مشكلاتٍ فيها (س) و(ج)، نحن في غنىً عنها... كل ما في الأمر جرح بسيط في اللسان لا قيمة له.

ما لم تعرفه، وما لم يجرؤ أن يقوله: أنه ضغط بأسنانه على لسانه فأدماه، لهذه المعاملة غير المتوقعة منها... لا يريد أن يفضح مشاعره التي بانت خفاياها الآن، ومع كل الواقع الذي هو فيه الآن لم يصدق أنه يعيش حقيقة وليس في حلم جميلٍ!

ينظر إلى وجهها ويتمعن في يدها التي أخذت تمرر القطن المبلل بالكحول على خده وشفتيه، فيتحايل بحركات مصطنعة من رأسه كي تلامس ظاهر يدها وجهه مع القطن المعقم، ويغرق في أحلام لا نهاية لها من السعادة والآمال، حين يتنسم رائحة عطرها فتزيد من هيامه، ويتنشق أنفاسها اللاهثة، فينقلها إلى أعماق صدره عبر شهقات طويلة يحبسها داخل صدره ما استطاع... يحس أنه انتهى من دنياه هذه وأصبح في منتهاه، بات يشعر أنه دخل جنته الموعودة... وغدا يرتع فيها... جاء إليه اليوم بائع الحظ من العالم الآخر، عالم من الأمل غرق فيه حتى أذنيه!

فجأة انتفض وكأنه أصيب بمس من الجنون، أو كأن شيئاً ما عصف برأسه! أبعد رأسه إلى الخلف بسرعة خاطفة... حول نظراته عنها... ما جعلها تمسك برأسه بيده الأخرى قائلة:

_ لا تخف ألم الكحول يزول بسرعة...

بينما هو كان يعاتب نفسه ويوبخها غاضباً فقد أيقظه الواقع... اعتبر أحلامه رعونة وتصرفه نكراناً للجميل، وهو يتمتم:

_ أيعقل أن أكافئ زوج خالتي صاحب الفضل هكذا؟ إنها أمانة أوكلت بها يجب أن أحافظ عليها من عبث الغرباء، فكيف أخونها أنا؟!

تململ راضي على كرسيه لحظة بسبب شعوره بهول فعلته التي صورها له عقله كذنب من كبائر الذنوب... وإن كان لم يتعد تفكيره بابنة خالته، إلّا كزوجة مستقبلية حسب شرع الله.

طبعاً علمنا أن هذا الشاب الريفي الباحث عن العلم، جاء من أسرة لها خصوصيات عربية متميزة بالعراقة... كان على الدوام ينظر إلى ابنة خالته على أنها ليست أكثر من أمانة كبلت عنقه... فقط لأجل وجوده معها سمح والدها بأن تكمل تعليمها في المدينة، واؤتمن وحده في المحافظة عليها... لم ينسَ ما قدمه والدها في الماضي وما يقدمه اليوم من مساعدات مادية ومعنوية له، ويعلم أن زوج خالته لم يرسل ابنته إلى هنا لولا وجوده معها، ولو لم يجد في شخصه قدرة عالية وثقة مطمئنة على حمايتها لإتمام تعليمها في المدينة... لأنه في سفرٍ دائمٍ... قال في نفسه وهو يحلل تصرفها الآن بما تفعله:

_ إن كل ما تفعله الآن سُهاد معي، ربما تدفعها إليه صلة الرحم بيننا ومسقط الرأس المشترك لنا... لا علاقة لهذا كله بالحبّ والغرام! ثم هل لي

الحق بهذا التفكير الانتهازي؟ ولماذا أستعجل الأمور الآن؟ وما زالت دروب المستقبل أمامي بعيدة لتحقيق الآمال، وما زلت في بداية الطريق...

نعم أمام راضي مراحل كثيرة للمستقبل... أمامه الثانوية العامة وبعدها الجامعة، حينذاك لا شك سيبحث عن عروسٍ يكون قد قدّرها الله له... لماذا العجلة الآن إذاً؟ ولماذا يفسر الامور في غير وقتها؟! قرر أن يزيح جميع تلك الأفكار من رأسه في الوقت الحاضر على الأقل.

كذلك سهاد كانت تلوم نفسها في سريرتها على تسّرعها، وإظهار عواطفها في غير وقتها، وبما لا يتناسب مع حالتها الآن، وأخذ ضميرها يؤنبها، لكنها تبرر لنفسها وتقول:

إن ما فعلته مع راضي كان من الممكن لأي شخص أن يفعله بدافع إنساني وواجب ديني... قطبت حاجبيها قليلاً، وأبدت اهتماماً أشد في علاجه ثم قالت له:

_ أخبرتني إحدى صديقاتي التي كانت متأخرة عنا في الطريق، بأنها شاهدت فوضى أمامها، ولمحت تشابكاً بالأيدي، عندها انتقلت إلى الرصيف المقابل عندما شاهدتك بينهم، وتابعت المشاجرة لدقائق، حتى رأت صاحب الدكان يدفع بك إلى داخل دكانه... وعندما أخبرتني بذلك طلبتُ إذناً من المديرة للضرورة، وجئت إلى هنا عندما علمت منها أنك ضمن المشاجرة... ها قد رأيتك مصاباً، بالله عليك ما الذي حدث يا راضي؟

لنترك سهاد تعالج الكدمات في وجه راضي على أن نعود بعد أن نتابع قليلاً الشق الثاني من روايتنا...

الفصل الخامس عشر

سعادة لم تكتمل

لا بد لنا من العودة الآن إلى الشق الثاني في روايتنا قبل أن نبتعد كثيراً... إلى حيث تركنا عفاف بعد أن أقنعت يوسف بالتحول عن دينه، كي تتمكن من الزواج منه، وفي نيتها في الدرجة الأولى أن تضمن عدم استغلالها والعبث بمستقبلها، ورميها بعد أن يكون قد قضى حاجته وأشبع رغباته منها... كانت تفكر في الطريقة التي تتمكن بها من إرضاء أهلها بعد أن تُنسى الحكايات بحيث تعود الأمور إلى مجاريها بينها وبينهم، ثم علمنا أنه وافق على كل طلباتها... وآخرها أن يقضيا شهر العسل في إحدى الدول الأوربية، وبالذات في روما... وعلمنا أنه لم يمانع من تنفيذ كل ما أرادت... وأنه افتتن بها وعشقها كثيراً، وفي الوقت نفسه بالمقابل لم تظهر له سوى الحب والهيام، ما جعل طلباتها عنده أكثر من أوامر مطاعة.

بعد عقد قرانهما وتوثيقه... وخلال أيام حصلت على جواز سفر لها، ولم يبقَ ما يعيق تنفيذ رغبتهما بالسفر سوى الحصول على الفيزا... لكنهما أجلا ذلك حتى العودة من شهر العسل.

ذهبا معاً لقضاء شهر العسل في أجمل الأماكن... مرت أيام سعيدة عليهما معاً، كانت الحياة بالنسبة لهما كمن يعيشانها في جنة موصوفة... في لحظة هادئة جلسا عند الغروب على شاطئ البحر... سألها:

_ حبيبتي عفعف... هل أنت سعيدة؟

_ أنا؟ كيف؟! والسعادة أنت... وأنت ملكي، ونهاية أحلامي التي سطرت بها المكان والزمان، آه... مَن مثلي تحقق حلمه؟! كيف لا أكون في قمة السعادة؟

رد عليها وهو يغمز بعينه:

_ بل السعادة اكتملت بسحر عينيك، زادها جمال وجهك الذي فاق جمال الطبيعة... لكن لماذا يا حبيبتي لا نعود إلى الفندق... ألم تتعبي من السباحة والجري على الرمال؟

_ دعنا نتناول طعامنا هناك وأشارت إلى أحد الأكشاك المتناثرة على الشاطئ التي تقدم الوجبات السريعة.

ركضا إليها معاً، ثم جلسا على طاولة حيث أشارت له قرب أحواض للزهور، وطلبا بعض الأطعمة الخفيفة...

أخذ يوسف يتمعن صامتاً بحوض للزهور قربهما... سألته:

_ بمَ تفكر يا حبيبي؟ ما الذي يشغلك يا روحي؟

_ تشغلني تلك الورود الجميلة التي تطل برؤوسها من هذا الحوض... أفكر عندما نبني بيتنا أن نزرع منها... ونوزع فيها جميع أنواع الأزهار.

_ حقيقة ما أروعها هي، وما أروع هذه الأشكال التي أبدع الخالق بتكوينها! انظر كيف تعشق الشمس وتتجه نحوها!

_ ماذا؟ لا... لا، يا حبيبتي... إنها تدير وجوهها خجلاً منك... عندما شعرت أنها فقدت روعتها أمام جمالك.

_ الله... الله يا جميل بثينة!

_ بل قولي... يا صريع الدلاء ألم تسمعي به؟

_ بلى ولكنني الآن صريعة الجوع... نادِ عامل المطعم يعجل لنا بالطعام...

صمتت لحظات وهي تتمتم:

_ يا إلهي هل ستدوم لنا الحياة بهذه البهجة على هذا المنوال؟ ثم قهقهت وأمسكت بخده بين أصابعها بنعومة بالغة وأضافت: أم ستملني حين تجد أجمل مني؟ حتماً سترميني أنا وتستبدلها بي... آه لا أعتقد أن هذه السعادة ستدوم لنا مستقبلاً بهذه الصورة الجميلة... بدأت أحسد نفسي على السعادة... أنا لم أعتد عليها!

رد عليها ممازحاً وهو يعبث بشعرها الأشقر:

_ أنت تعلمين أنني دخلت في دينكم... الإسلام... أليس كذلك؟

_ نعم ماذا تقصد؟ هذا يشرفني ويشرفك أيضاً.

_ صحيح... حقاً لا أنكر... لا تنسي أنه يبيح لي أن أتزوج مثنى و... ولم تمهله حتى يكمل عبارته بل قالت ضاحكة:

_ أنت لا يحق لك أبداً...

_ لماذا؟ وهل تخصصت بالإفتاء؟

_ لأنني بجمال الأربعة المسموح بهن... ثم تجهمت من جديد وهي تقول: أشعر أن هذه السعادة مؤقتة، ولن تدوم، هذا ما يحدثني قلبي به... لنسرع بالعودة وتستخرج الفيزا لي... ولنكمل شهر العسل في البرازيل... قرب أهلك...

_ أف... عجباً لماذا التشاؤم يا حبيبتي؟!

_ حبيبي السعادة تأتي بجرعات مترددة... وحين تحل الكارثة تأتي دفعة واحدة تنسينا ما كنا فيه في لحظة دون أن نكون مستعدين لها... إنها دنيا خادعة! لقد مضى علينا أسبوع واحد من شهر العسل هذا، ليس أكثر دعنا نسافر بالله عليك، ثم صمتت قليلاً...

نظر إليها قلقاً وقال بلهجة متأففة:

_ ما بك يا حبيبتي؟ تفاءلي بالخير... هكذا خلقت الدنيا... لكن ما الذي سيقف في طريق سعادتنا... أهلك؟

في النهاية سيحكمهم واقع الحال، ويخضعون لشرع الله... وعندما ننجب ويصبح لدينا أولاد... سيحبون أحفادهم ويتشوقون لمداعبتهم، وسيكون الولد مفتاح الحل لرضاهم... هيا بنا يا حبيبتي لنرتاح في الفندق... يبدو أن التعب أثر في تفكيرك! وفي محاولة منه لتغيير الحديث أضاف... أترين الحضارة لدى الغرب؟

_ نعم ما يدهشني هذه الهواتف النقالة التي أصبحت بين يدي الصغير والكبير!

_ نعم... كنا نسمع عنها من قبل، ولا نملكها... لكنها اليوم أصبحت مصدراً لهمومنا... ربما انتقلوا إلى الأحدث لتزيد مشكلاتنا... هيا... هيا بنا نمشي.

_ لست متعبة إلى هذه الدرجة... لكنني أشعر وكأن شيئاً ما يلهب صدري، بل ظلمة وغمة كبست فجأة على قلبي! أحس وكأن شيئاً ما سيقع لنا! لا أدري ما هو!!

_ لا... لا، بل توكلي على الله، وتفاءلي بالخير يا حبيبتي... صدقيني أنا مثلك داخلتني كآبة غريبة بعد سماعي لكلامك... حبيبتي لا أدري ما هي؟ حتى بت أشعر أن قلبي بدأ يدق بشكل غريب... ربما أعزو ذلك إلى الخوف من أن نحسد أنفسنا على فرط السعادة التي نحن فيها الآن... هيا... دعينا نعود إلى الفندق... ها هو عامل المطعم جاءنا بطعامنا لنأخذه معنا كي نرتاح هناك من الهواء الحار هنا، والتعب من الجري على الرمال... هيا يا حبيبتي لقد تعبنا من السباحة في البحر، والسير على الشاطئ... لكنه تمتم بكلمات سمعتها:

_ استر يا رب... لقد بدأ خوفي يزداد والرهبة تقلقني!! لقد تحول تشاؤمك إلى وسواس في عقلي!

_ هذا ما أشعر به، ولكن ربما السبب فرط السعادة التي نعيشها الآن... ربما؟

دخلا باب الفندق حتى توقف يوسف حين تفاجأ بعامل الفندق يناديه:

_ أسرع يا سيدي... أسرع لقد جاء أكثر من اتصال خارجي... عندها فتح يوسف هاتفه الذي كان قد أقفله كي لا يزعجه أحد؛ فوجد أنه سجل له العديد من المكالمات:

_ ألو... نعم ما الأمر؟

وبصوتٍ واهنٍ جداً جاءه من الطرف الآخر:

_ ولدي... جوزيف (وهو اسم يوسف بالعربي)... احضر حالاً... حضورك ضروري! لا تتأخر يا بني... أنا في مستشفى المدينة، ثم قُطع الاتصال فجأة!

_ لا حول ولا قوة إلا بالله! ما بك يا والدي؟! لكن الصوت انقطع، ثم سمع لغطاً كثيفاً يدور في سماعة التلفون ما زاد من قلقه وانشغال باله، عندها نظر إلى عفاف عروسه قائلاً:

_ لقد وقع ما كنت تخافين أن يقع اليوم... حتى أنا كان قلبي ينبئني بخبر مشؤوم مفاجئ... ها هو قد وقع!

صرخت عفاف:

_ ماذا؟ ماذا حصل؟

_ هيا أعدّي الحقائب بأقصى سرعة، لا بد من الرحيل الآن... كأني أسمع صوت والدي يحتضر... لقد انقطع صوته فجأة وأنا أكلمه... أو ربما داهمته

نوبة شديدة... لقد أخبرتك من قبل أنه مصاب بالأمراض المزمنة كالضغط والسكري وغيرها من أمراض الشيخوخة.

_ أف!! ألهذه الدرجة؟ على هذا لا يمكننا البقاء هنا حتى الصباح؟

_ كلا... بل سنذهب على الفور... سأذهب الآن كي أحجز تذاكر لنا، كي نعود معاً إلى بلدنا، وسأحجز تذكرة أخرى إلى ريوديجانيرو حيث يقيم أهلي، هيا ابدئي بتجهيز حقائبنا في هذه الأثناء، بحيث تكون جاهزة عند عودتي من مكتب الطيران...

لا تشغلي بالك عندما أصل إلى البرازيل سأقوم باستخراج الفيزا لك لتلتحقي بي في أقرب وقت ممكن؛ ربما لا بد لي من البقاء هناك، وقد لا أستطيع العودة لاصطحابك معي... مشاريع والدي كثيرة وكبيرة، ومن المؤكد أنني سأستلم إدارتها.

_ يا رب لماذا الفرح لا يكتمل أبداً؟ يبدو أننا حسدنا أنفسنا.

للأسف لم تكتمل سعادتهما بعد أن فاجأهما هذا الخبر؛ واستدعاه والده فوراً! كي يشاهده قبل أن يودع الدنيا، وكذلك ليتابع أمور شركاته، ريثما يعلم ما يخبئ له القدر.

توقع يوسف أن يكون والده قد أصيب بنوبة قلبية... لأنه يعلم أنه كثيراً ما عانى من تلك النوبات في السابق!

بهذا الشكل المفاجئ عادا معاً إلى بلدهما... وصلا مع فجر اليوم التالي إلى المطار...

عند ذلك قال لها وهو يحاول أن يتملص من الذهاب معها من المطار إلى القرية، طبعاً خوفاً من ردة فعل أقاربه بعد أن خطفها وتزوج منها؛ ويخشى أن يتأخر عن السفر التالي فقال:

_ حبيبتي سأستأجر لك سيارة تنقلك من هنا إلى القرية إلى بيت أهلك، وسأبقى هنا في المطار كي لا تفوتني رحلتي إلى البرازيل.

_ كلا يا حبيبي... لايزال أمامك أكثر من ست ساعات للسفر... تستطيع أن توصلني أولاً ثم تعود... المسافة ذهاباً وإياباً إلى القرية، بالكاد ثلاث ساعات... وساعة نقضيها معاً عند أهلي نترضاهم... ويبقى معك ثلاث ساعات موعد إقلاع طائرتك... اتفقنا؟

_ وإن قتلوني؟؟ وأنا من خطفت ابنتهم منذ أقل من شهر... حتماً الآن يتوعدون لي بالويل والثبور وعظائم الأمور! ألا ترين هذا معي؟

_ لا تخف... والدتي لا تجرؤ على ذبح دجاجة... ووالدي لا أعلم إن كان قد عاد من السفر أم لا؟

كما أن قلبه طيب إلى أبعد الحدود... أنت خائف أكثر من اللازم!

_ سمعاً وطاعة يا حبيبتي... وأمري لله... ثم قال ممازحاً: لا يهم... ستثرين إن قتلوني، وترثين أموالاً طائلة بعد موتي...

_ يا إلهي ما أقسى قلبك... وهل تساوي الدنيا بعدك قشرة بصلة؟!

انتقلا بسيارة أجرة من المطار إلى قريتهما... وأمام بيت والد عفاف أبي رامي... قال لها:

_ حبيبتي عقلي كله الآن عند أبي وليس معي... ها أنا قد أوصلتك إلى هنا والوقت ما زال فجراً... تصرفي بأسلوبك اللطيف مع أهلك... دعيني أستفِد من الساعة التي ستذهب عندكم في القيل والقال، وربما أتحاشى بها ما يؤخر سفري... أرجوك سامحيني... على الفور أمسك برأسها، وقبلها أمام السائق مودعاً...

أنزل يوسف زوجته أمام بيت أهلها، البيت القديم الذي لم يمهلها القدر كي تعرف أي بيت سواه حتى اليوم... بيت والدها الذي هجرته هرباً مع حبيبها يوسف، دون إرادة أهلها قبل أقل من شهر واحد فقط، ولم يكن في حسبانها أن هذه المشكلة ستقع على الرغم منهما، ولم تتوقع العودة إليه قبل سنوات هي ومع ما تنجب من أطفال!

بالأمس فقط كانت تأمل أن يعودا إلى الشقة المفروشة بعد انقضاء شهر العسل، والبقاء بضعة أيام في المدينة ريثما ينهي لها إجراءات سفرها معه عن طريق السفارة، لكن القدر كان لها بالمرصاد.

كل شيء كانت تتوقعه إلا العودة بهذه السرعة إلى هذا البيت الذي تقف أمامه الآن مسلوبة الإرادة، قبل أن تسوي وضعها مع أهلها، بصلح لا بد منه ولا غنى عنه.

بالفعل أنزلت حقيبة ملابسها أمام البيت، وعاد زوجها بالسيارة نفسها التي جاءت بهما من المطار قبل دقائق، بعد أن أكد لها أنه لن يتأخر حتى يطلب منها اللحاق به عندما يطمئن على سلامة والده، أو أن يعود بنفسه ليأخذها برفقته إلى هناك... أما إذا دعته الضرورة للبقاء هناك إذا ما أصيب والده بمكروه... فعلى الفور سينهي جميع الإجراءات ويرسل في طلبها... وإن تعافى والده سيعود بنفسه ليأخذها معه.

قبل أن يودعها أعطاها مبلغاً كبيراً من المال لتعيش به ريثما تلحق به، كما قدم لها أيضاً مبلغاً آخر كهدية لأهلها مساعدة منه لهم على مصاريفها، وكي لا يتحملوا نفقات إقامتها عندهم... ودعها بسرعة، وعندما كانت تستدير السيارة للعودة به سألته وهي تمسح دموعها:

_ ماذا ستفعل بمشاريعك هنا؟ تلك التي خططت لها... من سيقوم بها؟

_ سأتركها للزمن حين تحل المشكلة مع والديك نعود معاً لنتابعها... لكن هذا مرتهن أيضا ببقاء والدي على قيد الحياة...

رحل وهو يترحم على السعادة الناقصة التي لم تدم طويلاً، وسافر يوسف مطمئناً وهو يلوح لها بيديه الاثنتين من نافذة السيارة حتى غاب عن ناظريها، في بداية رحلة لا يعرف مصيرها سوى الله... إلى حيث يعيش أهله.

رحل، واطمأن قلبه قليلاً حين أمّنها أمام بيت أهلها وفي بلدها، وإن لم يجرؤ على مقابلة أمها أو أبيها خوفاً من أية تطورات قد تعيق سفره، وبسبب

ضيق الوقت لم ينتظر حتى يراها تطرق الباب! يشغله قلقه على صحة والده، وكذلك أيضاً موعد الطائرة التي يجب عليه اللحاق بها خلال ساعات، بعد ما علمنا أنه كان حجز مباشرة للرحلتين من المكان ذاته الذي كانا يمضيان فيه شهر العسل...

عجل بالرحيل ومغادرة زوجته كي لا يضطر لتأجيل موعد سفره إلى رحلة أخرى لا يعرف متى ستكون ولا مصير والده هناك!

وقفت عفاف حائرة أمام باب منزل أهلها... تقدمت بخُطى مترددة لتقرع الجرس لكنها تراجعت... بقيت على هذا المنوال عدة دقائق... ترفع يدها إلى كبسة الجرس، ثم تسحبها بأسرع ما رفعتها... الخوف يدفعها للهرب... يتصبب العرق حياء من فعلتها... أخيراً قررت أن تفر من المكان قبل أن يراها أحد من أهلها، أو من أهل حارتهم... تتساءل بينها وبين نفسها: هل جاء والدي من السفر؟... إن كان هنا ماذا ستكون ردة فعله نحوي بعد أن هربت، وتزوجت في غيابه رغماً عنه؟.

ركبتها حيرة... الفجر بالكاد قد بزغ... بعد قليل ستدب الحركة في القرية... تقدمت من جديد بيد مرتجفة لتقرع الجرس... لكنها لم تجرؤ أيضاً... ستنسحب قبل أن تصل يدها إليه... كيف ستهرب؟ لا يوجد وسيلة في مثل هذه الساعة... إلا مصادفة! سيارات النقل إلى المدينة لن تعمل قبل ساعة أو أكثر.

وجاء القدر يحمل لها الحل الذي كانت تتمناه... سيارة قادمة، تثير الغبار خلفها ولوحة على سطحها مضاءة، إنها سيارة أجرة قادمة إلى الحي نفسه... قررت الهرب معها إن حالفها الحظ ووافق صاحبها قبل أن تقع الورطة التي سترمي نفسها بها.

كانت لحظة أراد القدر أن يساعدها على ما نوت عليه... انتظرت قليلاً تحدق بسيارة الأجرة التي نزل منها شخص في الحي نفسه... لم تعرفه ولا تريد أن يعرفها... دقائق مرت كأنها سنوات حين اتجهت السيارة نحوها عائدة على الطريق نفسه!

أشارت إلى السائق الذي ما إن توقف حتى سألته على الفور بلهفة:

_ إلى أين أنت ذاهب؟... إلى المدينة؟

_ نعم... لكنني في عجلة من أمري لا أستطيع الانتظار... لكنه حين رأى حقيبتها جاهزة أمامها سألها:

_ إلى أين تريدين الذهاب؟ إلى المدينة أم تنزلين في إحدى القرى على الطريق؟ ستدفعين الأجرة كاملة.

_ حسنٌ... أنا جاهزة وحقيبتي معي وأقصد مركز المحافظة.

_ تفضلي... لن نأخذ ركاباً آخرين في الطريق لتخفيف الأجرة عنك... انتبهي أنت ستركبين السيارة بمفردك... والأجرة عالية.

_ لا يهم سأركب وحدي وأعطيك فوق ما تطلب... هيا انطلق ولا تتوقف لأحد مهما كان السبب.

انطلقت بهما السيارة دون أن ترى أو تقابل أحداً من أهلها أو يراها أحد من سكان قريتها.

أثناء الطريق طلبت من السائق أن يوصلها إلى فندق محترم يعرفه ويثق به... وكأن السائق شعر بضيقها من خلال أجوبتها المختصرة، وبفضول منه بدأ يحاول فتح أحاديث متنوعة.

كانت جميع أسئلته باردة، ملّتها ومجّت حديثه معها... كانت تجيبه بهمهمة فقط... أثارها عندما بدأ يدخل في خصوصياتها الآن حين أخذ يسأل:

_ لماذا تسافرين وحدك...متزوجة أنت؟ أم مطلقة؟ أم طالبة جامعية؟

أخذت ترد عليه بأجوبة مختصرة... أخذ يتعمد رفع صوت المسجل.. ويضع أغاني هابطة... ثم انتبهت له وهو يعدل المرآة التي أمامه، وأخذ يحدق من خلالها بوجهها ويتبسم بخبث...

شعرت عفاف بالقرف منه ومن تصرفاته وأسئلته المزعجة، وأوحت حركاته بفساد نواياه، ما جعلها لا تأمن جانبه... خاصة وأنها الراكبة الوحيدة معه، تشك بنظراته، تملكها الرعب... لا تستطيع النزول في الطريق! خاصة عندما يتعمد النظر إليها ويصنع ابتسامات تجعلها تشعر بالقلق الشديد... فقالت وهي تتصنع السعال:

_ انتبه أمامك... السيارة تنحرف منك... كان لا بد لها من التصرف بذكاء وإلا؟!

رفضت مجاراته بأحاديثه كي لا يقوده إلى فعل ما تخاف منه... ما زال الطريق طويلاً أمامهما... ربما يحتاج في العادة إلى أكثر من ساعة ونصف لقطعه... الآن شعرت أنه بدأ يتعمد قيادة السيارة ببطء... إذاً لا بد لها من التصرف العاجل... قررت أن تجرب حيلة ذكية، قد تمنعه من التفكير بالاعتداء عليها.

بدأت بين الحين والآخر تتصنع العطاس، والسعال المتكرر... وتحاول لفت انتباهه بوضع منديل على فمها كل مرة تعطس، ثم سألته بصوت خشن عما يدفعه للسير ببطء شديد:

_ أرجوك أن تسرع قليلاً... وأخذت تفتح النافذة التي بجانبها وتتصنع نوبات من السعال طويلة... أقلقت حركاتها السائق الذي سألها:

_ ما بك يا سيدتي؟ هل أنت مصابة بنزلة برد؟ نوبات عطاس وسعال متكرر... هل أتوقف قليلاً عند أقرب قرية فيها نقطة طبية؟ أراك تمدين رأسك من النافذة بين الحين والآخر لتسعلي؟

_ أحاول عدم نقل العدوى لك... عفواً يا أخي أنت تعلم أن المرض الخبيث لا يرحم... أرجوك لا تدر وجهك نحوي واحرص على نفسك أن تصاب بعدوى مني!

أصيب السائق بفزع شديد... فقال:

_ أي عدوى... ما بك يا سيدتي؟

_ لا قدر الله عليك المرض يا أخي... لا تخف الاحتياط واجب... لقد مرت حالتي الحرجة ولا أعتقد أن العدوى تنتقل مباشرة للآخرين الآن... الحمد لله يا أخي لقد منّ الله عليّ بالشفاء من المرض، لم أكن أريد أن أخبرك كي لا تخاف من مرضي وترفض نقلي بسيارتك... إنها نوبات تأتي وترحل كلما طاب لها.

وهنا سألها بصوت عالٍ يظهر بنبراته الخوف والتأفف:

_ ما بك؟ وما هو المرض الذي تعانين منه؟

_ عافاك الله وأبعده عنك وشفاني منه... هو السل يا أخي... أي الدرن الرئوي، ولكن إهمالي بتناول العلاجات في أوقاتها بعد أن شعرت بالتحسن... بدأ المرض يحذّرني من عودته... لكنني لا أشعر بآلام شديدة كما كنت سابقاً... لا تخف يا أخي كما ترى أستعمل المناديل داخل السيارة أثناء العطاس وأرميها في كيس من البلاستك أحمله معي... ثم كلما جاءت نوبة سعال أمد رأسي من النافذة إلى الخارج لأسعل... اطمئن، لا تخف من أي عدوى... لقد تجاوزت مرحلة العدوى... هكذا قال لي الأطباء... أرجوك أريد منك خدمة... عندما نصل إلى الفندق سأحجز غرفة لأضع أغراضي فيها، وبإذن الله أذهب معك كي أراجع إحدى مصحات الأمراض السارية، لتعيد تقييم حالتي من جديد، ثم لا تخف سأعطيك ما تطلب من أجرة... ادع لي أن ينتهي علاجي بالشفاء التام يا أخي...

وكما يبدو أن الحيلة انطلت على السائق... وما دلّ على ذلك قيادته السيارة بسرعة عالية جداً، حين أخذ ينهب الأرض نهباً، كما قام بوضع كمامة على فمه وأنفه، خشية انتقال المرض المعروف أنه من أخطر الأمراض السارية!

لم تزد مدة رحلتهما من القرية إلى المدينة بعد هذا المقلب لأكثر من ساعة... ما إن وصلا إلى أحد الفنادق حتى أشار إليها بالنزول من السيارة.

قبل دخولها الفندق وضعت مظروفاً على المقعد المجاور للسائق لا يظهر ما بداخله، وقالت له:

_ سأبقي هذا المظروف على المقعد بجانبك كي لا أنساه داخل الفندق، فيه أوراق هامة... انتظرني في الخارج ريثما أنهي إجراءات تسجيلي وأضع حقيبتي في الغرفة التي سأحجزها... ثم أعود إليك لنذهب معاً إلى المصحة لعمل بعض الفحوصات والأشعة... انتظرني... إذا سمحت لا أريد أن أطلب سيارة أخرى، نذهب معاً وتعود بي إلى الفندق هنا، وسأنقدك أجرة مجزية...

أنزلت حقيبتها من صندوق السيارة، ودخلت مسرعة وهي تتصنع الكحة.

أحس السائق بالفرج الذي جاء إليه... انتظر حتى غابت عن عينيه داخل الفندق، وبأقصى سرعة شغل سيارته وانطلق هارباً يحمد ربه على النجاة منها ومن عدواها... وكان ينتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر!

وفي الطريق لفت نظره المظروف الذي تركته على المقعد بجانبه، فقال في نفسه:

_لماذا تركته بجانبي على المقعد الأمامي... بينما هي كانت تجلس في المقعد الخلفي... ربما كان هذا المظروف يحوي أوراقاً مهمة... يا إلهي يجب العودة لأسلمه إلى إدارة الفندق إن لم أجدها تنتظرني في الخارج، وسأعتذر عن مرافقتها إلى المشفى... رفع المظروف عن الكرسي فوجد تحته ورقة مطوية على بعض الأوراق النقدية كتب عليها:

_ أنا متأكدة أنك ستهرب فزعاً من العدوى... وأقول لك:

_لا ألومك على خوفك وهروبك مني، ولكنني لن أدعك تذهب دون أجرٍ مجزٍ، وهذا المبلغ أكثر مما تستحق أجرة لك ولسيارتك...

ثم لعلمك، أحمد الله أنا سليمة من أي مرض... مرضي الوحيد أنني شريفة إن كنت تسميه مرضاً لأنني أحاول الحفاظ على كرامتي... بهذا حميت نفسي وحميتك من الخطأ إن كان يهمك، وأوقفت تهورك ومعاكساتك المكشوفة... شكراً لك...

الفصل السادس عشر

مفاجأة أكبر

ربما فرضت علينا أحداث الرواية أن نتأخر قليلاً لنعرف ما آلت إليه عودة سهاد من مدرستها، وقيامها بإسعاف راضي والاطمئنان على ابن خالتها ورفيق طفولتها وحامي دربها، بعد أن وصل إليها خبر المشاجرة بين راضي وأحد الشباب، وسنعود إلى ما بعد وصول سهاد إلى البقالة، التي احتمى فيها راضي بعد أن قام صاحبها بسحبه من المشاجرة، ثم أدخله في دكانه.

كان وقع المفاجأة شديداً على راضي بعودتها من المدرسة وكيف علمت بذلك، والأهم من هذا كله الحنان الذي هبط عليه منها فجأة... سألته بلهفة:

_ ما الذي حدث يا راضي؟ وما سبب الكدمات والإصابات العديدة الظاهرة في وجهك؟

كان لا يريد أن ينتقص من رجولته وشجاعته، فقال:

_ فاجأني القذر بلكمته... لم أعرف من هو في البداية، ولكنني اشتبهت به بعد ذلك أن يكون الشاب نفسه الذي يطارد رفيقتك سميرة يومياً، تلك

التي أصبح اسمها يتردد بين الطلاب بسبب رعونته، يتباهى أمامهم بأنه يحبها وتحبه، وكنت قد نبهته من قبل أكثرمن مرة أن يبتعد عن طريقها.
لكنه اليوم تحين الفرصة، وقام بالهجوم عليّ بالاتفاق مع بعض رفاقه... أمسكوا بي على حين غرة، ليفسحوا له المجال لضربي دون أن أتمكن من الدفاع عن نفسي... هذا النذل أراد أن يزيحني عن طريقه... أنا متأكد أنه هو، لأنني لم أؤذِ أحداً فينتقم مني! خسئ أن يفوز بإبعادي عن حمايتك، وسأكيل له الصاع صاعين قريباً... لقد استغل النذل قلة انتباهي... فلكمني على وجهي ودفعني إلى الخلف ما أدى إلى سقوطي على الأرض... عندها أمسك بي زبانيته...
صحيح أنني لم أره من شدة المفاجأة، لكنني عرفته حين لمحت الخاتم الذي في يلبسه في أصبعه ولا يخلعه أبداً... على العموم الأيام بيني وبينه.
كان راضي خلال هذا الحديث يجلس على الكرسي ووجهه نحو الباب... أما هي فكانت تقف أمامه وظهرها نحو الباب... أي إلى الخارج... فجأة تفاجأت حين قطع راضي حديثه وفغر فاه دهشةً... تعلقت نظراته بباب الدكان... نظرات الذهول أسكتت لسانه... لقد رأى أمامه هامة رجل لا تخفى عليه معرفته... أما هي فحدقت جيداً بوجه راضي الذي تجهم فجأة، مستغربة متسائلة... لماذا تغير وجهه وبدأ بالاصفرار؟ لكنه تصنع الابتسام وحاول الوقوف بسرعة، وفتح فمه للترحيب بالقادم... لكن صوت الرجل الذي صاح بهم بصوتٍ مرتفع بنبراتٍ غاضبة:

_ الله... الله، يا راضي... وعرف ابنته في اللحظة نفسها التي أدارت وجهها إلى الخلف قليلاً! فأكمل كلامه متسائلاً... أأرسلتكما لطلب العلم هنا؟! أم لمطارحة الغرام؟! لم يخف صوت والدها على سهاد... أتمت دوران رأسها إلى الخلف بذهول... وقفزت فرحة نحوه حين شاهدت وجه والدها أمامها... لكن فؤاد رفع يده إلى الأعلى، وهوى بقبضته على رأسها!

وكان الحظ حليفها بوجود صاحب الدكان قريباً جداً منهما يتابع الموقف، فحين شاهد حركة يده الخاطفة... على الفور أسرع بمد ذراعه بسرعة البرق، وجعله أعلى من رأسها ببضعة سنتيمترات، لتحط الضربة على ساعده، عندها لم تنزل قبضة أبيها مباشرة على رأسها!

ثم أمسك البائع بيده الأخرى يد الرجل الثانية، بقوة ولفها خلف ظهره وهو يصيح به:

_ من أنت؟ وماذا تريد منها؟ وهل نسيت أنك في حرمة دكاني أيها الرجل؟! كان صاحب الدكان من الفطنة والقوة، بحيث لم يفسح المجال له ليعيد الكرّة بضربة أخرى...

حاول فؤاد التملص من قبضة صاحب البقالة لكنه لم يستطع... ما إن وجد البائع أن الرجل أصبح تحت رحمته حتى صاح به:

_ كيف تدخل دكاني بهذه الصورة وتهاجم من فيه؟ وحمل بيده الأخرى سماعة الهاتف... محاولاً طلب رجال الشرطة... لكن الفتاة هجمت على والدها بسرعة وطوقته، وهي تقبله وتقول ملهوفة:

_ لا تفهم الأمور خطأً يا أبي... انظر إلى وجه ابن خالتي! هل ترضى أن يصاب راضي بسببي بهذا الشكل؟ فوجئ البائع بمخاطبتها له بأبي، فأرخى يده الأخرى على الفور عن الرجل، وفي الوقت نفسه أعاد سماعة الهاتف مكانها، وسأل مستغرباً:

_ من؟ أبوكِ!... بعد أن سمعها تنادي الرجل بأبيها.

هدأت أعصاب فؤاد قليلاً، ووقف مشدوهاً أمام دفاع ابنته عن ابن خالتها، وقد سمعها تقول أنّه أصيب بسببها... عند ذلك جلس على الكرسي وأخذ يعتذر للبائع:

_ آسف يا أخي... هذا المنظر الذي فوجئت به الآن لا يحتمله أبٌ يرى ابنته تغرد خارج السرب أي خارج المدرسة، في الوقت الذي يجب أن تكون جالسة في مقعدها داخل الفصل، يجب أن تتصور يا أخي ماذا يكون رد فعلك لو كنت مكاني؟ من يرى ابنته في مثل هذا الوضع المشبوه لا شك أنه سيتصرف دون تفكير... خاصة إن كان لا يعلم السبب!

صمت قليلاً وكأنه لا يرى شيئاً أمامه، وينظر إلى المجهول... لحظات ووجه نظره نحو ابنته قائلاً:

_ مع هذا يابْنتي، جهزي حاجياتك للرحيل الآن، سنعود إلى القرية... لم يعد من داعٍ لا للدراسة ولا للمدارس أبداً... نهاية كل فتاة الزواج... إن كنت أنت أو غيرك فعليك البقاء في البيت حتى يأتي العريس... سيرسله الله لك عندما يريد... ما الفائدة من شهاداتك؟ العودة إلى البيت ومساعدة

أمك خير لي من البقاء في عالم الخوف والقلق عليك. لم ينفع بكاء عفاف، ولا محاولة توضيح الموقف من راضي، ولا من البائع صاحب المحل أبداً في تغيير رأيه! بل تابع موجهاً حديثه إلى راضي:

_ أما أنت يا ولدي... لا تخف لن أقطع الطريق بك أو أتخلى عنك، وما أنت عليه ستبقى عليه... سأتابع دعمك مادياً ومعنوياً حتى تنهي دراستك الجامعية...

اسمع يا ولدي، سهاد فتاة ليس بأيديها حيلة، وأنت لم تقصر في رعايتها... لكنها أصبحت في سنٍ يفرض عليها أن تلزم بيتها، وكما فهمت الآن أنت في وضع محرج وتعطلت بسببها عن دراستك!

هنا لم يبقَ أمامها سوى استعمال سلاح البنوة والعطف.

هجمت الفتاة نحو والدها تقبل رأسه ويديه كي يعفو عنها، ولا يفصلها عن دراستها... وأن ما حدث لا صلة لها به إطلاقاً؛ وبعد توسلات منها ومن راضي، ورجاء من البائع ، وقبلات أيضاً منه على رأسه... وتكرار قبلات سُهاد على يدي والدها ووجهه... وتعهد البائع أن يساعد في حمايتها حين تحتاج إلى ذلك... وأن يتصل به إذا دعت الضرورة، إذا ما وجد ما يستدعي ذلك... أفلحت تعهدات راضي ألّا يتكرر غيابها مهما كان السبب، وأخبرته أن ما دفعها للغياب هو الشفقة على قريبها، لأنها حين سمعت بإصابته لم تهرب من المدرسة بل أخذت إذناً من مديرة مدرستها... وقالت: طيلة

عمري وأنا أرى فيك الرجل الذي يشجع على العلم... ووعدتك بأن أكون مهندسة ترفع رأسك بي... ووعدتني بأن تقف معي.

في النهاية استجاب والدها، لكن شريطة أن تتابع الدراسة هذا العام فقط لكونها نهاية مرحلة دراسية... أي الشهادة الثانوية، سواء نجحت هذا العام أو لم تنجح، أما المتابعة بعد ذلك في المراحل القادمة، فيرتبط بمن يتزوجها... حينها له الحرية أن يقبل أن تكمل دراستها، وترك الرأي لزوج المستقبل. أجاب والدها:

_ عليك أن تجدّي وتجتهدي كي تنجحي هذا العام، وعند هذا الرجل، وأشار إلى صاحب الدكان، ستجدين كل ما تحتاجين له من مواد غذائية، وأنا سأدفع له بين الحين والآخر بدءاً من اليوم، ثم نظر إلى راضي وقال:

_ أنت أيضاً يا ولدي ينطبق عليك ما ينطبق على سهاد...

هبَّ راضي من مكانه وقد ظن أنه سيتخلى عنه في نهاية هذا العام كما قرر مع ابنته، وقال وهو يلهث ويرتجف:

_ وما ذنبي يا والدي إن كنت أدافع عن سهاد... ثم قبل لحظات فقط وعدتني أنك لن تتخلى عني! لماذا غيرت رأيك؟

_ هدئ من روعك يا ولدي... أبداً لم ولن أغير رأيي... قصدت بكلامي أنك تستطيع سحب ما تحتاجه من هذا الدكان من حاجيات... حتى النقود اطلبها وسيعطيك إياها هذا الرجل المحترم... لا تخف سأسدد عنك كل ما تأخذ من هنا حتى تحصل على آخر شهادة جامعية.

الآن سأذهب إلى القرية... مرحباً بك إن كنت ستأتي معي... لقد وصلت اليوم من سفري، بسيارتي الخاصة، وجئت هنا كي أطمئن عليكما، قبل أن أذهب إلى القرية... أنت تعلم أن طريقي حصراً من هذه المدينة عند السفر والعودة لا بد من المرور منها...

اعتذر راضي عن مرافقتهما لأنه سيستغل العطلة الأسبوعية بالمذاكرة ومراجعة دروسه... فهناك في القرية لن يجد الوقت اللازم لذلك...

الفصل السابع عشر

ثارات مراهقين

ركبت سُهاد مع والدها في سيارته على أمل أن يعيدها لتكمل يومها الدراسي ويشتري بعض الأغراض قبل أن يتابع طريق العودة الى بلدته.
أوصلها أمام مدرستها... لكن قبل دخولها من بوابة المدرسة قال لها:
_ عليك بعد ظهر اليوم أن تجهزي نفسك... سأصطحبك إلى القرية...
_ لماذا يا والدي؟ قلت لي أمام الجميع، أنك غفرت ذنباً لي مع أنه كان من واجبي أن أفعله!
_ لا تخافي ما زلت عند وعدي... فقط أود أن تمضي عطلة نهاية الأسبوع معنا... اليوم هو الخميس أليس كذلك؟
_ نعم... مناي أن أراكم وأن أكون معكم...
_ ثم يابْنتي ألا يكفي ما فعلته أختك عفاف بنا؟ عندما فرضت علينا زواجاً لم أكن راضياً عنه أبداً أثناء غيابي... آه لو أنني كنت موجوداً في القرية لما جعلت ذلك يتم... لقد استغلت غيابي وبعدي، وضعف أمك الطبيعي وبساطتها، وقامت بتنفيذ غايتها... أكاد أجن يابنتي!

_ تحمل يا أبتي... بل اصبر فإن الله مع الصابرين... أمي لا ذنب لها قاومت وعملت المستحيل لمنعها، لكن عفاف في النهاية هربت معه ولا تدري أمي إلى أين؟

_ آه ما أكبر عقلك يابنتي... ليت عفاف حملت جزءاً منه... أو أنها لم تولد من أصله...

_ مع كل هذا لا تقلق يا والدي ادعُ لها بالتوفيق... فإن دعاء الأب مستجاب يا أبتي... أعلم إنها سعيدة بهذا الزواج والشاب يحبها ويحترمها، وقد استطاعت أن تقنعه بأن يتحول إلى الدين الإسلامي وربما كسبت أجراً بذلك... لقد ذهبا منذ أيام لقضاء شهر العسل في روما... الشاب يحبها ويحترمها ويغار عليها... وهو ثري جداً وربما أنت تعرف عائلته... فهم من أبناء الكنيسة التي في قريتنا... والشاب تخلى لأجلها عن عقيدته! فقال متحسراً:

_ ويلي يا سهاد... يبدو أن خدي تعود على اللطم... هذا العام تراكمت عليّ المشكلات... منها خسارة الشركة التي أعمل بها... ومنها خسارة الجزء الأكبر من نصيبي من حصتي الحقيقية من الأموال! ومع هذا أقول الحمد لله... لدي ثروتي الكبيرة أنتم أولادي، وما جمعت سابقاً عند أمك وما وفرته هي مما أرسل لها... لكنه انتبه فجأة إلى شيء أقلقه في كلام ابنته، سألها:

_ وما أدراك أنت بكل تلك المعلومات عن عفاف، والشاب الذي هربت معه؟

_ لا أكذب عليك يا والدي... قبل هروبها كانت أمي تطلب مني أن أحاول إقناعها بالتخلي عن الفكرة، وبعد هروبها معه... لا أعلم عنها شيئاً، إلّا بعد عشرة أيام من هروبها جاءت الناظرة تخبرني أن فتاة تطلب مقابلتي لأمر ضروري... عندها أخبرتني بكل الظروف التي رافقت قصتها مع الشاب... وكانت تقيم في شقة معه في المدينة لا أعرف مكانها، بعدها انقطعت أخبارها عني نهائياً! ثم أضافت... لقد قالت لي أيضاً:

_ اسمعي يا سهاد... أخبري أبي وأمي، واعلمي أنت كذلك أنني سعيدة بحياتي، واعتذري لي منهما... لقد تزوجنا وعقدنا قراننا رسمياً بعد أن تحول عن دينه إلى ديننا، وبعد عدة ساعات ستقلع طائرتنا إلى روما لقضاء شهر العسل هناك، ثم نسافر بعد ذلك إلى البرازيل حيث سنقيم عند أهله... وقد قدم للسفارة على فيزا لي كي نسافر معاً، ربما تكون الفيزا جاهزة بعد عودتنا من شهر العسل... أنا سعيدة وما كنت أبحث عنه وجدته، ثم قبلتني بسرعة مودعة وانطلقت، أظن أنه كان ينتظرها في السيارة في مكان قريب... هذا كل ما عندي من معلومات، وسبب معرفتي بأخبارها.

_ يا لحظي البائس يابنتي! وفضيحتي بين أهل القرية... أكاد أموت خجلاً وأنا أفكر بأي وجه سأقابلهم.

_ اصبر يا والدي... لقد علمتنا أنت أن الصبر مفتاح الفرج.

_ نعم يابنتي... أصبر وأتحمل شقاء الغربة، لعلّ الله يسعدكم ويريحكم من شقاء الدنيا... لكنني الآن أصبحت مضطراً لأتابع السفر والغربة ربما يرزقني الله بجمع مبلغ يكفي لفتح مشروع كبير هنا في البلاد يغنينا عن مشاق الدنيا وعن الغربة.

بعد ذهاب عفاف مع والدها إلى القرية، واعتذار راضي عن مرافقتهما إليها، بقي جالساً في البقالة فترة ليست بالقصيرة... يبدو أنه كان يرمي لشيء ما ببقائه داخلها... بينما صاحبها يظن أن راضي ظل كي يريح نفسه، وليستعيد روعه... لم ينتبه أن راضي كان يخطط للثأر من غريمه، وأنه ينتظر مروره للانتقام منه!

بعد أن هدأ روع راضي قليلاً نقل كرسيه أمام الباب مباشرة يراقب عودة رفاقه من المدرسة...

فجأة انعكست صورة الشاب غريمه على زجاج الواجهة... إنه هو... إنه خصمه... ها هو يسير على الرصيف نفسه، يتلفت حوله... يقترب من باب الدكان دون أن يرى راضي... فما إن لمحه البائع يقترب من الباب حتى عرف فيه غريم راضي، وكان قريباً من راضي... على الفور وضع يديه الاثنتين على كتفي راضي ضاغطاً بهما إلى الأسفل كي يمنعه من الوقوف، وهو يرجوه أن يتجاهل الأمر، وألّا يورط نفسه بمشاجرة جديدة قد تقضي على مستقبله.

تشنج راضي لدى رؤية غريمه... لم يمهل البائع حتى يثبته جيداً ويمنعه من الحركة... بل سلَّ نفسه من بين يدي البائع، ثم قفز بسرعة ومدّ رجله أمام خصمه قبل أن يستفيق وينتبه له.

سقط غريمه على الأرض... وكانت فرصة لراضي ليكيل له عدة لكمات أشفى غليله بها... تجمع المارة وانتهت المشاجرة كما انتهت في الصباح التي قبلها؛ لكن بمنتصر جديد...

هنا أخذت العداوة بينهما شكلاً آخر... مع أن إصلاح الأمر قد تم بينهما بتدخل الموجودين، لكن القلوب مُلئت حقداً وكراهية! خاصة أن نية سمير كانت حسب سليمة الآن، وربما كان يريد الاعتذار. أمسك صاحب المحل براضي وقال:

_ ليتك لم تفعل هذا يا راضي... كان لديك مستقبلاً، أساليب كثيرة للانتقام.

_ كيف؟ وما هي؟ أخبرني... ها هو ما زال يترنح أمامي، هل أعيد له الكرة؟

_ كلا... كلا ليس هذا ما قصدت... إنما كان عليك أن تتفوق عليه بأمور أخرى... لا يستطيع بعدها أن يثأر منك إطلاقاً... بالعلم والشهادات، أن تتفوق عليه بمركز اجتماعي مرموق أدبي أو سياسي أو مالي، عندها سيُذَل طيلة حياته أمامك بعد أن يرى عجزه عن اللحاق بك... تسرعت يا راضي، الآن ترسخت بقلبه عداوة لك لا يمكن نسيانها أبداً خاصة إن تفوقت عليه بعد ثأرك اليوم بسبل أخرى مستقبلاً... سينتقم منك حسداً وغيرة... سينتقم، احذر منه مستقبلاً... صحيح أنه سيواسي نفسه... على أن ما حصل واحدة بواحدة، ولكن سيحمل لك حقداً قد لا يزول!

_ نعم هو ما قلت... لكن سأبقى طيلة حياتي لا أغفر لنفسي سكوتي عنه عندما سنحت لي هذه الفرصة، لكن الحمد لله ثأرت لنفسي.

_ كلا يا ولدي... أنا أعتقد أنه لم يتعمد المرور من المكان نفسه إلا وفي نيته البحث عن طريقة للاعتذار والصلح، وإلا لكان حمل معه مدية أو عصا، أو غيّر طريقه إلى الرصيف المقابل... وكما نبهتك: كن حذراً منه مستقبلاً...

الفصل الثامن عشر

مفاجأة قاتلة

لا بد لنا من المرور على القضية التي جدّت على الرواية بما فيها من مواقف شديدة الحساسية لا يمكن إهمالها، كي نتابع التطورات التي وصلت إليها قضية بسام خطيب عفاف السابق وزوجته الحالية غنوة.

علمنا أن والدة عفاف أصرت على الذهاب إلى حيث دلَّ ولدها عمّا يحدث في نهاية الشارع القريب من حيهم، وهرعت فوراً إلى هناك.

حقيقة كان هذا فضولاً منها كي تعلم شخصياً بما يحدث في الحيّ، بعد أن أخبرها ابنها رامي عما رأى أمام شقة بسام حيث يقطن هو وزوجته غنوة، وأثار استغرابها قول ولدها أنه رأى الجميع يذهبون مع الشرطة بمن فيهم والدة غنوة! إضافة لغاية أخرى سنعرفها فيما بعد.

وصلت أم رامي تسابق الخطا ويسابقها لهاثها... وجدت بعض الجيران من النساء يتحدثن عما كان يجري قبل قليل هنا... وقبل السلام، سألت امرأة تعرفها كانت واقفة على الرصيف:

_ ما الذي يحدث في حيّنا يا أم أحمد؟

_ لا أدري تماماً يا أم رامي، ولكن تناهت بعض الأخبار عن وقوع سرقة الليلة في شقة بسام!

ومن هناك... سمعت كلامهما إحدى الجارات فتقدمت نحوهما، وقالت:

_ لقد سمعت من أم بسام أن السرقة كانت من داخل شقة ابنها ولكن لم يتسرب بعد أي خبر... الجميع نقلوا إلى المخفر، منهم طوعاً، ومنهم قسراً ربما لأخذ أقوالهم وربما هناك متهمون؟

_ لا إله إلا الله... منذ متى دخلت إلى قريتنا هذه الأعمال الدنيئة... نحن أحياناً نترك أبواب بيوتنا مفتوحة، دون أقفال... ما الذي يحدث في القرية هذه الأيام؟

_ أظن أنّ المرأة هي من سرقت بيتها لتتهم أحداً ما!

_ من تقصدين يا أم أحمد؟ لا تتعجلي برمي التهم جزافاً...

_ كأنك تعيشين خارج البلدة... ألم تسمعي بغنوة دلوعة أبويها؟

_ كلا... ولكن أقول ومع خوفي من الله:

نعم سمعت بضع كلمات لا تحمد في سيرتها أو مسلكها... أستغفر الله... لكنني لم ألحظ شيئاً مما يقال! إنما علمت أنها تزوجت من خطيب ابنتي السابق.

_ يا لك من طيبة القلب... كلاهما نجسان، الشاب رحمكم الله معروف بفسقه وانحلاله! والفتاة تعيش على حلِّ شعرها، لا رادع لها ولا دين! ردت أم رامي:

_ الحمد لله الذي خلصنا منه، نيتنا سليمة نحن... اسكتي يا أم أحمد... حتى الآن هي وأبوها غاضبان عليّ لأنني طردته... لكن يبدو أن الله يحبنا حتى أراحنا منه.

_ نعم احمدي ربك، ولكن لمَ يا أم رامي طردته؟

_ كما تفضلت شعرت أن الشاب فاسق، لقد دخلت عليهما مرة وهو يحاول أن يمد يده على صدر البنت، وفي المرة الثانية حاول أن يحتضنها ويقبلها! رحمنا الله وإياكن من الفاسقين إخوان الشياطين... وبنفسها استغفرت ربها... لا تريد أن تكشف أن ابنتها كانت راضية بمداعباته لها وما يفعل!

_ ألم أقل لك أنه فاسق... ومع هذا يا أم أحمد هذا السبب لم يكن كافياً لطرده، إن كان سيتزوجها قريباً.

_ ماذا تقولين؟ افرضي أنهما اختليا وحدهما في مكان ما... ماذا سيحدث؟ ثم على الأقل سيفتح عينيها على الكثير من الأمور قبل الزواج...

ردت المرأة الأخرى:

_ شريفة أنت يا أم رامي... حسناً فعلت...

ودعتهما أم رامي واستدارت كي تعود إلى بيتها... لكن في تلك اللحظة، توقفت سيارة أجرة قرب الرصيف المقابل... نزل منها زوج أم أحمد وهو يحمل طفلاً على يده ويقود طفلة أخرى بيده الثانية... تفاجأت أم أحمد بهذا المنظر الذي لم تكن تتوقعه... صاحت بعصبية عرفت بها...وهي تحدق بزوجها الذي يقترب منهن وقبل وصوله قالت بصوت عالٍ:

_ لمن ومن أين هذان الطفلان يا رجل؟ أخبرني بسرعة...

رد عليها وهو يتخذ بعض الجدية بكلامه:

_ من زوجتي الثانية... يا زوجتي الأولى!

_ يا ساتر... سأخنقك وأخنقهم...

_ لماذا يا أم أحمد؟ ألم يحلل الشرع للرجل أربع زوجات؟ يحق لي أن أكمل ديني ما العائق؟ لقد فعلت ما هو من حقي! بدأت أم أحمد تغلي وتنتفض...

وهنا لكزتها أم رامي وهي تقول:

_ أظن إنه يمزح معك يا أم أحمد... ألا ترين شكل وجهه المبتسم!

بدأت أم أحمد تضرب أخماسها بأسداسها، إلى أن وصل مع خطوتين بقيتا... عندها انتبهت فقالت متفاجئة بما رأت:

_ أف... أف، يا إلهي ما الذي حدث إنهما ولدا بسام وغنوة... عرفتهما الآن، لماذا هما معك؟.

_ والله لا أدري ما الذي حصل... كنت مصادفة هذا الصباح في الأمن الجنائي أنتظر حصولي على ورقة سجل عدلي لولدنا المغترب أحمد كي أرسلها له، لقد أرسل لي كي أستخرجها له، وعلى ما أظن يريد تجديد جواز سفره هناك...

وهنا صاحت أم أحمد به تستعجله الحديث:

_ كل هذا أعرفه... لماذا لا تشرح لي قصة حياتك أيضاً؟ أخبرني لماذا هما معك؟

_ أعطاني إياهما بسام أبوهما كي نعتني بهما ريثما ينتهي التحقيق مع الأم في المخفر... سمعت أنه اكتشف سرقة في شقته!

_ نعم... ذهبوا جميعاً إلى المخفر بعيد خروجك من المنزل في الصباح... لكن استر يا ربي ما ذنبهما؟ لقد كانا مع جدتهما أم غنوة حينما ذهب الجميع مع بسام بسيارته.

_ سأشرح لك ما سمعت هيا ندخل إلى المنزل، لقد تعبت من الوقوف منذ الصباح هناك... إلا أن أم رامي أخذت ترجوه أن يخبرها عما سمع هناك... رد عليها قائلاً:

_ يا أختي ليس لدي ما يشفي غليلك ولكن احمدي ربك على خلاصك منهم...

العملية التي تم التبليغ عنها، سرقة مصاغ... ومبلغ من المال، ومجوهرات وأغراض ثمينة... التحقيق الآن ما زال جارياً لأخذ المعلومات من الجميع... لكن أم غنوة كما تعلمين امرأة مريضة ومسنة، ولا تستطيع رعاية الطفلين هناك والجري خلفهما في ممرات القسم... ولن يسمح بدخولهما معها إلى غرفة التحقيق، لذلك كلفتني برعايتهما حتى يعود أهلهما إلى البيت.

_ ولكن، أبواهما أليسا معهما؟

_ القضية ليست نظيفة والجميع في غرف التحقيق... لكن حسب ما سمعت مما سربه بعض رجال الشرطة فيما بينهم ووصل إلى أسماعي بعضه!

فقالت على الفور وهي تبتهل إلى خالقها:

_ اللّٰهُمَّ ارأف بنا يا حق، ولا تشمّت بنا أعداءنا، ونحمدك على ما أنعمت وهديتنا على فسخ خطبة ابنتنا من هذا الشاب الفاسد كما توقعت! أكمل بالله عليك يا أبا أحمد...

فقال:

_ كن بضع نساء جئن للحظة وأخذن يقتربن ليستمعن إلى ما يقوله أبو أحمد... لكنه صمت فوراً وقاد أم أحمد وذهب إلى بيتهم... ما جعل جميع النسوة ينصرفن بقيلهن وقلاقلهن...

فقالت إحداهن لرفيقاتها المثل الشعبي المعروف:

_ (ياخبر اليوم بفلوس بكرا يبقى ببلاش)

عندها لم يبقَ في الساحة سوى المارة ومن ليس له علم بما كان هنا قبل قليل.

الفصل التاسع عشر

محاكمة للنفس

تركت أم رامي المكان قبل أن تروي فضولها تماماً، لكنها فضلت الهرب خشية أن تسألها إحداهن عن عفاف ابنتها.

حتماً كانت تعلم أن إحداهن لا ولن تنسى ما حدث في بيتها، ولكن كعادة بعض النسوة يتجاهلن مصائب الغير مؤقتاً ولا يذكّرن أصحابها بها لحين تقع مشادة بينهن، ويحتفظن بالأسرار لتكون معياراً وسلاحاً شديد الفاعلية عند الحاجة.

اتجهت أم رامي مباشرة نحو بيتها، وأخذت تستعيد واقعها... زوجها لم يستقر بعد، ومازال يتردد على السفر بين الحين والآخر، والولدان في مدرستهما، وابنتها سهاد في زيارة عند إحدى صديقاتها، بعد أن أوقفها والدها عن الدراسة نهائياً.

جلست داخل بوابة منزلها... تفكر فيما وصلت إليها حالة أسرتها اليوم... وتتساءل:

_ هل ما جرى لعفاف كان تقصيراً مني؟ أهو ضعف إرادة مني؟ أم هي عاطفة أم زادت عن حدودها؟ متى ستنتهي غربة فؤاد زوجي؟ الذي ما زال يتردد على غربة مضنية لنا وله، لقد دامت أكثر مما خططنا لها...

سهاد تركت مدرستها لسبب تافه، وأنا من شجعت والدها بتحريضي له على هذا الأمر، بعد وقوع المصيبة التي حلت بنا بسبب عفاف، لكن يا ربي لماذا حتى الآن لم يتقدم أحد لخطبة سهاد؟ لقد قاربت العشرين عاماً من عمرها... لماذا؟ فجمالها مكتمل وجسدها متكامل... حديثها لبق... وطبعها هادئ... هل خوف الشباب من طلبات ميسوري الحال؟ ولكن لم نعلن طلباتنا أمام أحد!... أم أن الناس يظنون أننا لا نزوج بناتنا إلا لأثرياء؟ مشكلة كبيرة هذه، ثم أردفت وهي تتنهد:

_ على هذا أكاد الآن أن أسوغ لعفاف فعلتها... لكنها انفجرت قائلة: كلا... كلا... بل أخطأت بفعلتها هذه...

ثم ترد على نفسها: لقد جنت عليّ وعلى والدها... سامحها الله، أما أنا فلن أسامحها ما عشت... المأفونة تهرب من البيت سراً مع رجل، ومن غير ديانتنا ثم تتزوج منه! لكنها تتذكر قبل دقائق أين كانت فتقول:

_ عندما تشرق الشمس لا يبقى ظلام... إلا من أراد أن يعيش فيه، عندها يحس بالعتمة في عينيه ولا يرى بعقله أن الدنيا لبست حلة جديدة، حتى وإن كانت الشمس ساطعة، يدله عليها الشعور بحرارتها... أسفي على ما وصل إليه حالة حينا... لقد سقطت القيم في هذا الحي الذي بقي آمناً عبر

قرون... يبدو أن المفاهيم تبدلت وتنوعت الثقافات الدخيلة على تراث أجدادنا... لم نسمع بفتاة من قبل خرجت عن طوع أهلها وهربت مع إنسان من غير ملتها، ولا سرقة تمت في بيت لم يغب أصحابه عنه! كنا نترك أبوابنا مفتوحة في الليل حتى يدخل نسيم الله لنتلذذ بغفوتنا، ونغلقها في النهار ليس خوفاً من اللصوص، ولكن كي نأمن عبث حيواناتنا ودواجننا فيه... يا إلهي كم تغيرت الدنيا خلال هذه الأيام! فتاة تسلك طريق التحلل كابنة شارعنا بمعرفة أهلها، تحت شعار الحرية الشخصية، وأخرى لا تنتظر أن يكتب الله لها نصيباً؛ فتكتب لنفسها مصيراً أرعن... آه يا عفعف طأطأتِ رؤوسنا أمام أهل قريتنا... هل ألطم وجهي أم أمرغه بفحم المواقد؟ كنت أنا السبب، ثم تستدرك بأفكارها وتبرئ نفسها:

_ لم أذنب أبداً... لقد سمعت عن فسقه اليوم فقط ممن كان صامتاً عن الحق، ولم يخبرنا أحد عن سلوكه! اليوم فقط قالوا كل ما عندهم، أما في البداية، فقد سكت الجميع عما يعرفون من سيرته! عجبي يا دنيا... تعاقبينني بما لا أستحق... أين أنت يابنتي وأجهشت ببكاء مرير... وأنت تعلم يا ربي... سهاد قمة في الأدب والجمال ولا أحد يطرق بابها... إنها حضارة التعساء التي بنيت على القهر والذل والصبر...

أما الطفل رامي الذي خرج يجري ويلحق به شقيقه التوْءَم، فما أن رأى أمه جالسة تبكي! حتى قال لها بسذاجة الأطفال:

_ أماه لماذا قتلوه؟

_ من يا ولدي؟

_ الرجل الذي في البيت... الذي جاءت الشرطة لأجله؟

_ لا يا ولدي... لا يوجد قاتل ولا مقتول، لص سرق من المنزل... أمسكوا به وذهبوا به كما رأيتهم ليسجنوه...

_ أماه هل سيسجنوهم جميعاً؟ كلهم ذهبوا مع الشرطة!

_ كلا... كلا... هذه الأمور لا تفهم بها... اذهب الآن والعب ولا تبتعد كثيراً...

الفصل العشرون

فرج غير متوقع

مرَّ على أحداثنا فترة ليست قليلة، عندما أصرَّ والد سهاد على منعها من استمرار الدراسة في المدينة، وسمح لها أن تكمل حتى نهاية تلك السنة الدراسية فقط...

كما علمنا بعدها، أن سهاد تفرغت لمساعدة والدتها في أعمال المنزل، لكن الملل والفراغ أثقل عليه حياتها... أما راضي فبعد مرور مدة في دراسته في الجامعية، كان يحلم دوماً بالقيام بمشروع من خلال اختصاصه، ويفكر كثيراً متى يستطيع إقامة أي مشروع يشبع رغبته... لكن للأسف حتى بعد التخرج ستنقصه الإمكانات المادية لتنفيذ أحد المشاريع التي تشغل باله ليل نهار...

يتلمس رأسه دون قبعة مهندس ولا رأس مال لديه... لا شيء يبيعه ليحصل على المال، ولا يستطيع التصرف بأرض والده وهي وسيلة حياة أهله، ثم يفكر كيف سيقوم بالبحث عن شريك بماله مقابل شهادته!

بعد تفكير طويل طرأت لعقله فكرة أعجبته، درسها جيداً... مطلبه هذا لا يتوفر سوى عند زوج خالته أبي رامي والد سُهاد.

سأل عنه في القرية فقيل أنه بدأ ينتقل بكامل عائلته إلى المدينة بعد عودته النهائية من السفر قبل أشهر... لكنه في هذه الأيام موجود في القرية... في الجزء الباقي من بيته، (باقي البيت أجره مقابل حراسته) لقد جاء لقضاء فترة الصيف مع عياله... وقيل له أنه يخطط لمشروع كبير، ولم يحدد بعد المكان الذي سيقيام فيه... وأنه ترك قسماً من بيته لرجل مسن وزوجته، مقابل العناية بالحديقة وحراسة المنزل أثناء غياب العائلة.

قرر راضي أن يفاجئه بزيارة... أي إلى بيت خالته بحجة السلام عليه وتهنئته بسلامة الوصول... بعد أن علم أنه اليوم في القرية مع أهل بيته، وفي الوقت نفسه يجس نبضه إن كان يوافق على اشتراكه معه عند البدء بالمشروع مقابل مساعدته بالعمل معه، ثم بشهادته بعد التخرج الذي أوشك أن يصبح على الأبواب.

قرع جرس الباب... تفاجأ ببنت خالته تستقبله... الفتاة التي لم تغب يوماً عن ذاكرته، ولم ينسَ الفترة التي جمعتهما في مرحلة الطفولة ومدارس المدينة... وعاد إلى ذاكرته عندما عاملته كممرضة حنون أو أم رؤوم عندما أصيب في المشاجرة مع سمير... لم ينسَ رائحة عطر أنفاسها وهي تلهث قرب وجهه، والدمع يترقرق في عينيها خوفاً عليه، يتذكر تلك اللحظة، وكم كانت تلك المفاجأة رائعة.

ما كان يظن أنه غالٍ عليها إلى هذا الحد! بعد أن تركت أهم ما جاءت لأجله وهو الدراسة، وحصص المدرسة لتطمئن عليه، بمجرد أن علمت بمشاجرة وقعت بينه وبين غريمه.

لم يستطِع أن يغفر لنفسه ذلك اليوم، لأنه كان السبب بتركها المدرسة، بعد زيارة والدها إلى الدكان عندما رآها تسعفه... وكم تعرضت للإهانة منه قبل أن يعرف والدها سبب وجودها خارج مدرستها... وفي الوقت نفسه هي لم تنسَ الكدمات وخيوط الدماء التي كانت تغطي وجهه، وقامت حينها بعلاجه، كما لم تنسَ العاطفة التي راودتها وتغلغلت في كيانها.

لم تنسَه... بل أمضت سهاد السنوات الطويلة التي مرت على تلك الحادثة تفكر في رفيق طفولتها وصباها، وتستعيد بريق نظراته التي اخترقت فؤادها في لحظة أراد القدر أن يقرب روحيهما ، تتذكر حبه الذي تسلل وتوطن في أعماق قلبها، وتصنعت أمامه بغير ما أراد أو هي تريد... خلال تلك الفترة الزمنية، كان قد تقدم للزواج منها الكثير من شباب القرية بين فلاحٍ ومزارعٍ ومغترب... لكن لم يهفُ قلبها إلى أحد منهم... كانت تحلم دوماً برفيق طفولتها وصباها راضي... وللأسف لا تستطيع البوح بغرامها، إذ يمنعها صمته وتجاهله... ولم تعلم أنه كان أكثر منها هياماً وغراماً بها، ولم تجد وسيلة لتعبر عن حبها له، كلاهما يتلاقيان في دائرة الحياء... لقاءاتهما كانت نادرة جداً، حقيقة هو لم يعدها بشيء ولا عبّر لها بشيء مما يختلج في صدره، لأنه كان يعتبر أن أي تصرف من هذا القبيل، ما هو إلّا إنكار

لفضل والدها عليه، وقد ساعده حتى اليوم... ترن في أذنيه الكلمة الأولى التي سمعها، عندما قالت:

_ تفضل والدي في الداخل... تشير بيدها اليمنى إلى الصالون، وتسبقها اليسرى إلى صدرها تضعها فوق قلبها مباشرة كأنها تقبض عليه لتمنعه من أن يقفز إلى حضنه... تتمتم لنفسها:

_ الباب مفتوح لك، وتضغط بيدها اليسرى زيادة على صدرها، وتقصد قلبها... اليوم بدأ يشعر بما تعاني في نفسها نحوه... كاد أن يذوب لهفة وحناناً...

وكأنّ صوت أبيها الجهوري الذي أوقظهما من غفلتهما:

_ من بالباب يا سهاد؟ قولي له ليتفضل...

_ فتحت فمها تريد أن تخبره بأن الطارق راضي... لكن الهواء احتبس في صدرها، ولم يضرب حبال الصوت في حنجرتها... أنقذ راضي الموقف بسرعة:

_ أنا يا والدي... أنا راضي، جئت لتهنئتك بسلامة عودتك لنا سالماً من السفر...

استقبله زوج خالته بالترحاب والعناق، والترحيب... سأله:

_ حتى الآن لم تخطب أو تتزوج يا راضي؟

_ كلا يا والدي... _كان يستعمل عبارة والدي عرفاناً لجميله_ الحمد لله على سلامة وصولك.

_ لا تقل يا والدي يا راضي... بل قل يا عمي.

تفاجأ بما سمع... أخذ يتساءل بسرعة مستغرباً:

_ ترى ما الذي غيّره؟ ما الذي قصده بكلمة عمي؟؟ هل هي زيادة في الجفاء؟ أم هناك ما أغضبه مني؟ ربما شعر أنني أطلت الوقوف بالباب مع ابنته قبل قليل!

فعاد يستوضح... سأله: لم أفهم يا عمي؟

_ أظن كلامي واضحاً وسمعتني جيداً... أنا أقصد ما قلت... أهو تجاهل منك أم دلع يا صهري؟ ماذا يقال لوالد العروس؟

_ ارتجت أعصابه... وأحس بطنين في أذنيه؛ كاد أن يصاب بدوار شديد، وفاجأته رعشة عنيفة هزت أركان بدنه... عاد وتساءل بنفسه:

_ الله... ما الذي غيّره اليوم بعد أن كان يحول بيني وبين أية علاقة مع سهاد؟! أم أنه أصبح اليوم بحاجة لي؟ لقد تردد في القرية أنه أنهى إقامته في الخليج، وقرر استثمار أمواله بتأسيس شركة صناعية في أراضيه التي يملكها في القرية... لكنه قطع صمته ورد عليه:

_ شرفٌ كبير لي أن أقول لك يا والدي، ولكن يا عمي لا تليق بمن كان لي عوناً طيلة عمري... أنا تحت أمرك... لقد سمعت من أهل القرية أنك تسعى لتأسيس شركة صناعية مساهمة.

_ نعم ما زالت مجرد فكرة ولن أستغني عن خدماتك في حال تم ذلك.

_ أنا تحت الطلب عندما تحتاجني، ولكن أنت أدرى الناس بحالتي المادية! لا أملك رأس مالٍ لأسهم معك.

_ أعرف أنك لن تقصر، ولكن حاجتي لك اليوم لأكثر من تنفيذ الأعمال...

_ كلي تحت أوامرك... بعد التخرج بإذن الله، سأكون رجلك الأول... استشارات... دراسات... مخططات... اطلب تُطاع...

عندها قهقه عمه ضاحكاً بصوت ارتجت له الغرفة وقال غامزاً بعينه نحو الداخل:

_ لكل آوان آوانه... سهاد تنتظرك...

_ أين؟ هل سنقوم بدراسة جغرافية وهندسية للمشروع معاً... ولكن ما دورنا الآن؟ كما أنها لم تدرس الهندسة!

_ أسألك... بالله عليك يا راضي... أتتغابى؟ أم تتجاهل؟

_ بل أقول ذلك كي أتأكد من أنني لا أحلم!

_ كلا أنت تستحق أن أتشرف بك صهراً ونسيباً... ومن سيكون لسهاد أخلص منك وأشرف؟ ومن لي برجل يكون ولداً يعوضني عن الولد ريثما يكبر رامي وأخوه؟

جُنّ جنون راضي لهذه المفاجأة! وأخذ يحادث نفسه:

_ هل أحلم أنا؟ هل أقرص نفسي لأتأكد... بالفعل قام بحركة مخفية... أحس بها عمه فقال له:

_ اسمع يا راضي أنت ستكون شريكاً مستقبلاً لي مقابل عملك وشهادتك... لا تتفاجأ بشيء... كنت أعدّك خلال تلك السنوات لمثل هذا العمل.

_ أنا تحت الطلب يا... عمي كما تريد أن أخاطبك ولو أن الكلمة ليست كافية.

وقبل أن نبتعد كثيراً... سنعود الآن إلى الوراء في حكايتنا، وقبل أن نغرق في مشاريع راضي وعمه وتفاصيل عملهما في الشركة تلك الأيام، على هذا لابد لنا من الرجوع إلى أحداث سبقت أحداث فقرتنا.. وهي الفترة التي ابتعدنا حيث تركنا قضية عفاف وسعاد في أهم مراحلها.

الفصل الواحد والعشرون

عودة غير مأمونة

استمر غياب يوسف لأكثر من عام بعد وداع زوجته أمام بيت أهلها... عاد إلى القرية كي يأخذها من حيث تركها؛ كي تسافر معه إلى بلاده! بعد أن تغيب تلك المدة الطويلة وكان سبب تأخيره اضطراره متابعة أعمال الشركات التي يملكها والده المريض، وخلال تلك المدة كان يتابع حالة والده الصحية التي كانت تزداد سوءاً يوماً بعد آخر.

وكان السبب الذي ألزمه لقطع شهر العسل الذي كان يقضيه سعيداً مع زوجته عفاف التي تزوجته كما علمنا دون رغبة أهلها أو حتى انتظار عودة أبيها من السفر، بل اتفقت معه على الزواج وهربت معه...

لم يقاطع يوسف زوجته خلال تلك المدة لا برسائل المسجات ولا بالمقاطع الصوتية على الواتس، ولا الصور على الفيس، بل كان يرسل لها أموالاً كثيرة بين الحين والآخر على شكل شيكات، وحوالات مصرفية... وهو يعلم أن ما يرسله يفوق حاجتها بدرجات، ولا حاجة لها فيها، بل كي يثبت لها محبته وعشقه وأنه ما زال على عهدها... كما أنها كانت تخبره أنها لم تكن تهدر ما يرسل لها... اشترت شقة على العظم من الأموال الفائضة لديها، ثم بدأت

تكمل تشطيبها... ثم أخبرته بعد فترة أنها بدأت بتأثيثها... ولتثبت ذلك كانت ترسل له صوراً لمراحل إنجازاتها... لكن القدر فرض عليه البقاء وعدم القدرة على العودة إليها في وقت قريب... حتى مرّ على فراقهما ما يزيد عن سنة كاملة، خلالها استطاع تسوية أموره، وفي تلك المدة كان يعيش فيها بين نارين! زوجته التي ما زالت في انتظاره، ووالده المريض الذي كان أحياناً يتعرض لنوبات تكاد تصل به إلى الموت، ثم يشفى لفترة ثم ينتكس ويعود المرض إليه!

وأخيراً استعاد والده صحته جيداً... عندها قرر العودة إلى بلده لجلب زوجته معه إلى هنا حيث تسكن عائلته كما كانا يخططان من قبل، وبالتالي متابعة أعمال شركات والده التي نمت وتوسعت على يده خلال متابعته لها هذا العام، وبالتالي أصبح هو مديرها العام... وكان ينوي تدريب زوجته على إدارة أعمال الشركة بحيث تبقى في البرازيل مؤقتاً، ويعود هو إلى قريته لمتابعة المشروع الذي كان ينوي إقامته فيها...

أخذ يوسف إجازة طويلة من الشركة وأراد أن يفاجئ زوجته بعودته لاصطحابها، دون أن يخبرها مسبقاً بموعد وصوله، ولا بسفره إليها أصلاً!

انتظر هبوط طائرته على أرض المطار، وما أن نزل من الطائرة حتى أرسل لها مسجاً كي تستقبله في المطار... كانت السعادة تغمره، وهو يتصور حال عفاف عندما تتفاجأ به؛ وكم ستكون سعيدة بعودته.

وكانت أولى المفاجآت له وهو يخرج من صالات المطار... حين أخذ يبحث بعينيه في وجوه المستقبلين المحدقة بالخارجين من أبواب الخروج... ثم يفرك عينيه في كل لحظة ليدقق في وجوه المستقبلين...

لا وجود لعفاف بينهم! تساءل:

_ هل تغير شكلها ولم أعرفها؟ ولكن لمَ لم تعرفني هي؟ كلا... كلا بل هي ليست بين المستقبلين أبداً.

نعم لم يجدها في انتظاره... أخيراً توقع سبباً ما! بعد أن لعب الفأر في عبه! فعاد يتمتم ويتساءل:

_ أين هي؟ لماذا تأخرت؟ أسئلة حائرة عديدة لم يجد لها إجابة!

أخذ تفكيره ينحصر في أن يكون سبب عدم حضورها قد نتج عن مكروه وقع لها أثناء قيادة سيارتها على طريق المطار... عاد واتصل بها من جديد.

وكأن الروح المفقودة بدأت ترتد له...

لا تسل كم كانت سعادته عندما سمع جرس هاتفه النقال يرن ويبشر بصوت رنينه أنها على وشك أن ترد على مكالمته، انتظر... انتهت نغمة الرنين ولم ترد! كرر الاتصال.

وجاءت المفاجأة الصاعقة... هاتفها الآن!... بدأ الشك يساوره، وتبادرت إلى ذهنه حوادث السيارات الكثيرة على طريق المطار السريع... قال في نفسه:

_ حتماً عفعف تعرضت إلى حادث أجهله على الطريق عندما كانت تقود سيارتها بسرعة لاستقبالي؟ ولكن ليتني أعلم هل أصيبت؟ هل ماتت بعد الحادث؟! هل؟ هل؟ أبداً لا إجابة تروي غليله!

بدأ يلوم نفسه ويعاتبها:

_ لماذا لم أخبرها قبل أسبوع عن موعد حضوري؟ أو على الأقل صباح اليوم قبل خروجي من البيت إلى المطار... ربما جعلتها الآن تطير بأقصى سرعتها للقائي، مما أدى إلى ما لا يحمد عقباه... لام نفسه كثيراً، ولم يكن يعلم أنه في وادٍ رائق، وهي في مستنقعٍ آسن!

لا يغفر لنفسه ما ظنه خطأً منه... يا إلهي عسى ألّا أكون السبب بما جرى لها الآن... إن ما حصل لها سيكون ذنبي وحدي...

وبدأ شريط الذكريات يدور في رأسه، ويستعيد علاقتهما الغرامية القصيرة قبل الزواج... يتذكر ما كانت تبديه له من حب وغيرة عليه قبل الزواج وبعده... يتمتم بما كان يناديها وترد عليه بصوتها الناعم:

_ حبيبي... روحي... حياتي... بينما كان هو يجيبها:

_ أنتِ... أنتِ... أنتِ

يستفيق فجأة ليتذكر حاله الآن وما يشغل باله... يخرج هاتفه ويعيد الاتصال فما سوى الكمبيوتر يأتيه بصوته الذي بات يكرهه ويكره ما يردد:

_ (الجهاز مغلق أو خارج منطقة التغطية)... أصبحت هذه الجملة تتردد على رأس لسانه، حتى باتت كأنها آتية من ندّابة تنوح فوق رأس غالٍ عاد جثة بعد غياب طال أمده... بل أخذ يسمعها كأغنية حزينة تهيج عواطفه فتسيل معها الدموع من عينيه...

عندها ركب سيارة أجرة من المطار لم يكن همه الوصول بقدر البحث عن حادثة ربما وقعت لها... كان طيلة الطريق إلى المدينة، يدقق بناظريه في جميع الاتجاهات... إلى الأمام وعلى جانبي الطريق، ويبحث في الطريق الموازي، المعاكس عن حادث سيارة حمراء متوقفة أو منقلبة... نعم... إنه يتذكر لقد أخبرته قبل أشهر بشرائها لسيارة سبور حمراء، مما كانت تدخر من أمواله التي يرسلها لها.

كانت في كل رسائلها واتصالاتها تخبره أنها على العهد باقية، وترسل صورها على هاتفه النقال... لكن أشد ما كان يقلقه أسلوبها المتزن في الأشهر الأخيرة... عند الحديث معه أو من خلال الرسائل النصية، يفكر بكل هذا، بينما عجلات سيارة الأجرة تنهب الطريق، وقلبه القلق ينهب راحته إلى أن تمتم بنفسه:

_ الحمد لله وصلنا إلى المدينة... لا يوجد حادث جديد على الطريق، بدأت ترتاح نفسه قليلاً، ودعا الله أن تنتهي حيرته على خير... لكن القلق ما زال يساوره ويشغل عقله!

وما إن صل بسيارة الأجرة إلى المدينة... تذكر أنه لا يعرف تماماً عنوان الشقة التي اشترتها أثناء غيابه، لذلك طلب من السائق أن يتابع سيره إلى القرية... إلى بيت أبيها حيث أودعها، وودعها أمام بوابته قبل أكثر من سنة... قرع باب المنزل بنعومة شديدة ورهبة! لا أحد يرد... زاد من شدة القرع، وهنا تنفس الصعداء سمع الآن صوتاً يرد من الداخل لكنه لم يميزه لمن؟! اقترب وزاد هذا الصوت ارتفاعاً، يسأل من خلف الباب:

_ من أنت؟ وماذا تريد؟

صمت لحظة، وكان قد لمح أيضاً حركة خلف ستارة النافذة العلوية في الدور الثاني، لكنه خجل من التحديق وإمعان النظر بمن يكون خلفها... فأجاب على المتسائل وراء الباب بصوت متردد:

_ ألم تعرفوا من أنا؟! أنا يوسف زوج ابنتكم... كان يظن أن عفاف ربما تكون ذهبت إلى المدينة تتابع أعمالها في شقتهم الجديدة التي اشترتها أثناء غيابه، وأن شيئاً ما أعاقها عن الرد عليه كتعطل هاتفها... ويتذكر أنها أخبرته قبل أسابيع بأنها أثثتها بأحسن الأثاث بعد أن أرسل آخر دفعة من المال تريد أن تفاجئه بها... ها هو اليوم أمام بيت أهلها في القرية حيث تركها يوماً لعلّه يصلح ما أفسد... أخذ يحدث نفسه الآن:

_ هل يمزحون معي؟ لماذا لم يعجلوا بفتح الباب لي بعد أن رأوني من النافذة وأخبرتهم من أكون؟ سواء كان ذلك لضربي أو معاقبتي أو حتى استقبالي؟

لكن قطع سلسلة أفكاره رؤية رجل مسن وامرأة خلفه عند فتح الباب، لم يرهما من قبل... فقالت المرأة:

_ تفضل من خلف كتف زوجها ماذا تريد؟

_ أنا يوسف صهر هذا البيت... لكن من أنتم؟ أليس هذا بيت فؤاد والد عفاف؟ تبسم الرجل العجوز وأفسح له الطريق يدعوه للدخول...

_ يا ولدي لقد رحلت الأسرة من هنا إلى المدينة منذ عدة أشهر... علمت منهم أن ابنتهم اشترت لهم شقة قرب شقتها هناك... هكذا قيل لنا... سلموا لنا مفاتيح البيت قبل رحيلهم... لكنهم يترددون بين الحين والآخر إلى هنا... فنصف المنزل ما زال تحت تصرفهم.

_ هل باعوكم هذا المنزل؟

ضحك الرجل وهو يقول:

_ وهل لدينا قدرة على شرائه؟! أنا موظف متقاعد وزوجتي مثلي كذلك، وليس لنا أي دخل سوى راتبينا المتواضعين... ثم لا علم لي أن صاحب المنزل عرضه للبيع.

كل ما في الأمر البيت كبير جداً... أسكن أنا وزوجتي في جزء منه مجاناً مقابل العناية بالحديقة وحراسة البيت... وكما يقال: البيت المهجور عرضة للخراب... وقد تركوا قسماً منه بأثاثه يقيمون فيه كلما عادوا إلى القرية لجني المحصول أو الراحة من صخب المدينة.

أحس يوسف وكأن شيئاً ما كتم على صدره... أدار ظهره دون أن يرد وهو يتمتم:

_ عفاف أغلقت هاتفها... البيت رحلوا منه... اشترت شقة لأهلها... لم تأتِ لاستقبالي! يا ربي ما كل هذه الغرائب؟ ثم من أين لها كل ذلك المال حتى تستطيع أن تدفع ثمن شقة لأهلها؟ هل أقرضتهم جزءاً من الأموال التي كنت أرسلها لها؟... كلا أنا أعرف أنهم أغنياء وليسوا بحاجة لاستغلال ابنتهم... لديهم الكثير... والدها تغترب إلى الخليج، وعمل سنوات طويلة هناك، وأظن أنه ما زال يتردد إلى هناك.

إذاً هناك شيء وراء الأكمة مما لا أعرف! بل أحس أن هناك ما يرعب... ليتني أعرف ما هو؟!!

عاد على الفور إلى المدينة التي قيل له أنهم انتقلوا إليها... جلس في أحد المقاهي يفكر من أين سيبدأ بحثه... وكيف سيتصرف ومن سيوصله إلى زوجته؟ فيما مضى سألها أكثر من مرة على الهاتف عن مكان الشقة، وذلك عندما أخبرته أنها اشترتها ووصفت له المكان وسمَّت له اسم صاحب العمارة... وأخذ يتذكر ما قالت آنذاك:

_ إنها تقع على كورنيش الشاطئ في منطقة الشاليهات، وبدأت تصف له جمال المكان والطبقة المخملية التي تسكن في المكان... واسم صاحب العمارة لكنه لم يعد يتذكر اسمه...

حاول الاتصال بها من جديد... للأسف الرد نفسه... ما زال الجهاز مغلقاً...

جلس على طاولة في أحد المقاهي أمام العمارات على الشاطئ، بعد أن اشترى علبة سجائر من أحد الأكشاك المتناثرة عليه... أشعل سيجارة وهو الذي أقلع عن التدخين قبل سنوات، وأصبح يكره شكل السيجارة ويتضايق من رائحتها.

أسند ظهره على الكرسي وغرق في أفكار حائرة لا قرار لها... ينفث دخان سيجارته في الهواء فيخرج من منخريه ويغطي وجهه مع كل زفرة غاضبة... بين الفينة والأخرى يهز رأسه محتاراً ويلوح بكفيه متسائلاً... أين أنت يا عفاف؟

فجأة أحس بيد ربتت على كتفه... قفز من مكانه وخطر في باله أنها هي، فتمتم مذهولاً: عفاف... عفاف، لكن دهشته خبت حين رأى رجلاً يجلس قربه دون دعوة، وهو يلقي السلام عليه.

رحب به بفتور، لكنه نهض ورحب به بعد أن عرفه... هذا الرجل أحد أقارب زوجته... عرفه على الفور، فقد هو أحد الشاهدين اللذين استعانت عفاف بهما أمام كاتب العدل (المأذون) عند عقد زواجهما في العام الماضي... افتتح الشاب الحديث مباشرة بالسؤال:

_ أين كنت يا يوسف؟ منذ مدة لم أرَك!

_ كنت في بلاد الله الواسعة... باختصار... سافرت لأتابع والدي المريض ولم أتمكن من العودة سوى اليوم... كان والدي يغيب عن الوعي لأيام وأحياناً

لشهر كامل حتى نظن أنه توفي... ثم يستعيد وعيه... لكن أخيراً تحسن حاله، وجئت لأصطحب زوجتي معي إلى هناك.

_ الحمد لله على سلامة الوصول وسلامة والدك.

_ ألف شكر... سلمك الله.

_ أتمنى لك السعادة... وأبارك لك بالشقة التي اشترتها زوجتك... سأله يوسف على الفور عندما وجدها فرصة ليفتح الحديث معه لعلّه يتنسم منه أي خبر عن زوجته:

_ ما أدراك بشراء عفاف للشقة؟

_ لقد استدعتني لأكون شاهداً على عقد الشراء بينها وبين صاحب المكتب... وسلمتني النقود لأدفعها له بيدي.

لم يظهر يوسف له شيئاً مما يعتمل في نفسه من قلق، واضطر أن يخفي حيرته واضطرابه وهو يقول:

_ عظيم جداً أنت رجل ثقة تذكرتك تماماً... ترى هل أعجبتك الشقة؟

_ رأيت موقعها على المخطط فقط... موقعها مميز على شاطئ البحر في بناية لا أذكر اسم صاحبها... لكن لعلها أعجبتك فأنت صاحبها؟

_ قلت لك أنني جئت اليوم من السفر ولم أشاهدها بعد، حتى أنني لا أعرف مكانها تماماً.

_ حتماً ستعجبك... لا تنسَ أن عفاف صاحبة ذوق مميز... كم كنت أتمنى مشاهدة تفاصيل الشقة وموقعها ولكن لم يتسنَ لي ذلك... على العموم الأيام طويلة... سنزوركم يوماً ما ونبارك لكم بها بعد أن تسكنا فيها.

تبسم يوسف الذي كان يتكلم وأعصابه تتحرق شوقاً... لعل كلمة تنزلق من محدثه فيعلم أين عفاف ولكن دون جدوى...

خجل يوسف أن يروي له قصته وما حصل معه هذا اليوم... لكن بعد سماع هذا الحديث هدأت أعصابه قليلاً، ثم تركه وذهب مودّعاً على أمل اللقاء يوماً... انطلق من المقهى يجوب المنطقة طولاً وعرضاً، وفي ذهنه القليل من عنوان الشقة، والكثير من الهم والقلق... يمشي على ما تمكن استخلاصه من معلومات تجمعت لديه من الرجل، ومن رسائل زوجته سابقاً.

بدأ البحث في العمارات المواجهة للشاطئ بداية من أول عمارة وصل إليها. كان سؤاله يتكرر في كل مكان يصل إليه... امرأة اشترت شقة في العمارة... شقة جديدة تأثثت... فكان بين من يسخر من هذا السؤال وبين مشفق من بعضهم على عقله.

تجاوز الوقت الظهيرة، ولم يفده أي إنسان برد يفيده... طال أمد بحثه، وتبع رأي كل ناصحٍ له حتى سأله أحد الأشخاص مستغرباً:

_ ما هذه الألغاز؟ لا اسم شارع ولا رقم بناء! ولا حتى اسم صاحب العمارة... عليك أن تسأل في البقالات عن أصحاب العمارات... ربما تعثر

على ضالتك... لا توجد عمارة إلا وستجد فيها محل بقالة أو محل كَوّى أو حلاق أو غيره...
تابع بحثه على هذا الأساس... لنتركه الآن يتابع بحثه عن زوجته وشقتها ولنا عودة...

فكما يبدو أننا ابتعدنا كثيراً عن تطورات الحوادث الماضية التي دخلت روايتنا، وهي التي وقعت لبسام وزوجته، فعلينا أن نعود أيضاً إلى حيث توقفنا... خاصة العودة إلى المخفر لنعرف عما جد في قضية بسام وغنوة بعد أن أبلغ بسام عن جريمة سرقة فجر ذلك اليوم الذي تعرضت فيه شقتهم للسرقة.

الفصل الثاني والعشرون

مفاجآت غير سارة

مضت ساعات داخل غرفة التحقيق على وصول بسام وزوجته غنوة بصحبة ابنيهما الصغيرين، وأمها جدّة ولديهما.

كان المحقق من النوع اللطيف جداً بذكاء غير مسبوق... استطاع بأسلوب الخبير المتمكن أن يسحب الكلام من كل منهما دون جهد... كان أول عمل قام به، أن طلب من الشرطي المساعد حجز هواتفهم الخاصة بهم وتفتيش محتواها...

ظهر الارتباك على وجه غنوة حين بدأ الشرطي يجمع الهواتف... لكنه طمأنهما بأنه لن ينظر إلى أي شيء لا يتعلق بالقضية نفسها، قضية السرقة التي قام زوجها بالإبلاغ عنها...

تقدم بعدها نحو العجوز أم غنوة الجالسة في الممر ترعى الطفلين... طلب منها بلطف شديد أن تعطيه هاتفها... نظرت إليه بتمعن، ثم ردت عليه بلهجة ساخرة:

_ إنه في البيت على الطاولة.

_ لماذا لم تحمليه معك يا أُمي؟

_ لم أكن أعلم أنكم بحاجة له.

_ حسن سنرسل من يحضره.

_ حقاً؟ لكنه كبير الحجم... أرجو أن توصي من سيأتي به أن يسحب المقبس من المأخذ بهدوء، كي لا تتقطع أسلاكه، ما دفع صهرها بسام لموجة من الضحك غطت على حزنه وقال:

_ العجوز تقصد الهاتف الثابت... الأرضي! نظر إليها الشرطي، وقال بنبرة مؤنبة:

_ أتسخرين منا ومن عملنا يا حاجة؟

_ بل أنت من تسخر مني... أمامك امرأة متهالكة فوق الستين من عمرها... تسوقونها إلى هنا للتحقيق معها بسرقة من بيت ابنتها وصهرها... عجائب! كنت أتمنى أن تسألوا أنفسكم لمن سأسرق؟ ولماذا أسرق؟ لأبني قصراً وأسكن فيه؟ أم لأتزوج فتى أحلامي؟... ثم ألا ترى أنه كان بين يدي طفلان صغيران؟!

أما كان الأولى أن أرعاهما في بيتي؟ بدلاً من الجري خلفهما في ممرات المخفر... وفق الله جارنا أبا أحمد الذي أخذهما معه إلى بيته قبل قليلٍ ريثما ننتهي من عجائبكم... وبسخرية وتهكم أضافت: ألا تريدون التحقيق معهما أيضاً؟ أليس غريباً منكم هذا؟ كما تراني... السير على قدمي أعجز عنه دون عصا... ثم تطلب هاتفي النقال... وحتى أنت يابُني لا أكاد أراك جيداً... خاف الله يا ولدي! رد الشرطي عليها متأسفاً:

_ القانون هو القانون يا أمي... ربما يحتاج المحقق للاستنارة بالطفلين... أين هما الآن... رد عليه بسام:

_ أخي... نحن هنا في قضية إبلاغ عن سرقة ولسنا في قضية اتهام... فقال الشرطي متهكماً وكأنه يعلم ما يدور في غرفة التحقيق:

_ يا صديقي بعد التحقيق سيتضح لكم ما أنتم هنا بسببه.

أُدخل بسام غرفة التحقيق، وبدأ المحقق أخذ أقواله وسؤاله: كيف اكتشف السرقة وهل لديه الشكوك بأحد، وهنا نحن لا نريد الدخول في مسائل قانونية... إنما بلمحة موجزة تفيد القارئ.

سأله المحقق العديد من الأسئلة:

_ كيف اكتشفت السرقة؟ وما الذي دعاك لفتح الصندوق هذه الليلة بالذات؟ ثم قلت أنّ الصندوق مخفيّ تحت لوحة فنية داخل جدار الصالون... وهل تشتبه بأحد؟ ثم نادى أحد مساعديه وطلب منه مراجعة هاتفه النقال.

وبعد التدقيق في محتويات الهاتف، عاد الشرطي دون أن يجد فيه ما يفيد القضية... عندها سمح له بالذهاب، أو البقاء إن كان يود انتظار زوجته... ففضل ذلك... دخلت بعده غنوة... طال وقت التحقيق معها، ومضت أكثر من ساعة، وبسام ينتظر خروج زوجته من غرفة التحقيق... طال الأمر أكثر مما كان يتصور، لكن في النهاية خرجت؛ يا لهول ما خرجت به...

الأصفاد بيديها... تجر قدميها جراً... تبكي وتولول... ما إن رأت زوجها حتى استنجدت به وفي ظنها أن الأمر بيده!

تفاجأ فؤاد بمنظرها... وقف ليكلمها... ليسألها... لكن الشرطي طلب منه الابتعاد وعدم الاقتراب منها... عندها تجاهلته، وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى وهي تبكي بصوتٍ مرتفع.

سارت مع رجال الشرطة مكبلة اليدين إلى غرفة التوقيف، لتدخل بعدها وراء قضبان النظارة.

هزت المفاجأة بسام... هبّ على الفور يجري إلى غرفة المحقق وهو يقول بصوت عالٍ:

_ ماذا حدث؟ سيدي لقد تنازلنا عن قضيتنا... أنا من اشتريت كل ما سُرق... سأشتري لزوجتي أكثر منه... سأطلب منها أيضاً أن تتنازل عن جميع ما سرق لها أيضاً... أين ذهبتم بها... رد المحقق بلطف:

_ من حقكم التنازل ومن حق الدولة قطع دابر الشر عن المجتمع.

_ نعم يا سيدي... لا ننكر هذا ولكن الصلح سيد الأحكام... لا نريد من السارق شيئاً... ليكن من يكون.

_ اسمع لا تطل الحديث... أمامنا أعمال كثيرة، أنت لم يثبت عليك شيء وتستطيع الانصراف... أرسل محامياً يقف معها غداً، وهنا في قسم التحقيق عندها ستعلم بكل شيء... الآن تستطيع العودة إلى بيتك مصطحباً المرأة

العجوز... ولكن يا سيد بسام أنصحك بتكليف فرقة من المحامين وليس واحداً فقط... مع السلامة.

على أثر ما سمع من المحقق فقد بسام النطق بعد تلك العبارات الصاعقة التي فوجئ بها... لكنه أخذ يرجو منه أن يسمح له بمقابلتها... رد المحقق عليه:

_ كلا... لا يمكن الآن... فقط عندما ينتهي التحقيق... أخذ فؤاد يتساءل ويستعيد ماضي حياتهما وكيف تعرف عليها وكيف خطبها... وكيف تزوجها خلال أيام فقط دون أن يترك لنفسه فرصة لمعرفة الفتاة على حقيقتها، ويعض لسانه كيف لم يتروَ فترة كافية للتأكد من سلوكها... أخذ يتمتم:

_ ترى ما هي تلك الجريمة الهائلة التي اتضحت للمحقق بهذه السرعة وهل اعترفت غنوة بشيء...

قال الضابط إنها ستحتاج إلى فرقة من المحامين! لماذا؟ قتل بالجملة؟ إرهاب؟ خيانة عظمى؟! لكنني لم ألحظ عليها ما يريب خلال السنوات التي عشناها معاً... كل ما ساءني منها صداقات الهيبيز... أولئك الشباب أو الصبايا اللاتي لا يدل مظهرهم على أكثر من ميوعة ولا مسؤولية...

بماذا اعترفت له؟! ما الذي لا أعلمه عنها؟! هل وراء ذلك فرقة الصيّع نفسها الذين سبق أن دعتهم إلى بيتي وطردتهم منه؟ ... مضت على الحادثة

مدة ليست بالقصيرة لم تدُعهم بعدها! تُرى ماذا في سجلّها؟ رد على تساؤله بنفسه وهو يكاد يتفجر غيظاً:

_ بالأمس فقط تم التدقيق على اسمينا في مدخل المدينة أثناء مرورنا من الحاجز في الدخول والخروج! لو كان هناك ما تدان به، لألقي القبض عليها على الفور!! هناك شيء لا يمكنني معرفته! سأتصل بمحامي شركاتنا صاحب مكتب المحاماة الضخم والعريق جداً.

بالفعل قام بالاتصال بمحاميه الذي حضر على الفور، ودخل مباشرة إلى مكتب الضابط، حيث دار بينهما هذا الحديث:

_ سيدي... هل أستطيع أن أطّلع على محضر القضية؟

_ لا شك... تفضل...

كان المحامي يقرأ والذهول بادٍ في وجهه... عاد ونظر إلى الضابط وقال:

_ هل أستطيع الإفراج عنها بكفالة مالية؟

_ أستاذ أنتم تحفظون القوانين أكثر منا... أليس كذلك يا صديقي المحامي المحترم؟

_ أعتقد يحق لي مقابلتها... أتسمح لي بذلك؟

_ ما هو قانوني لا نستطيع أن نمنعك منه... والضبط الذي قرأته أكدته معلومات هاتفها...

خرج المحامي من مقابلة غنوة، وهو يتعثر بطريقه لحظة خروجه من غرفة التوقيف لشدة ما سمع من الغرائب منها... خلال الفترة هذه كان بسام

يتحرق على كرسيه بانتظار خروجه، ومعرفة السبب الذي احتجزت زوجته لأجله... ما إن وصل إليه حتى استقبله بالعديد من الأسئلة المتلاحقة:

_ ما الذي حدث؟ هل أخبرك الضابط عن السبب؟ هل قالت لك إنها بريئة... مؤكد أن هناك تشابه أسماء أو خطأ ما!

_ إن جميع ما اعترفت به يدينها... توكل على الله واذهب الآن... سأحاول جهدي مع القاضي للإفراج عنها بكفالة مالية، هذا إن لم أستطع الإفراج عنها بكفالة مكان إقامتها... القوانين ثغراتها أكثر مما تتصور! ولكن القضية كذلك كبيرة!

_ أخبرني... إن كان هناك ما يمس الشرف والكرامة، سأتخلى عنها وعن حريتها.

لم يرِد المحامي أن يشغل بال بسام أكثر من ذلك... فقال له بهدوء:

_ حتماً ستعرف كل شيء في حينه... اذهب الآن إلى عملك أو إلى بيتك، ونلتقي غداً في المحكمة لتكتب لي وكالة تسمح لي بالترافع بقضيتها... اللّٰهُمَّ إلا إن كنت تريد تكليف محامٍ آخر.

_ كلا بل إن مكتبكم سيتولى ذلك.

سنترك الماضي الآن والكل في محنته، ثم نقفز لنتابع مسألة حكاية التوءمين الأُخريين في مسيرة روايتنا التي نرويها، وما وصلت إليه العلاقة بين راضي وزوج خالته وابنتها سهاد وما تغير في أفكار أبيها نحوه... لذلك سنعود إليهم لنتابع جديدهم.

الفصل الثالث والعشرون

أملٌ جديد

بدأ راضي ينظر بعين الرضا لما يجري حوله فيما يخص علاقته بزوج خالته، وبالتالي ما عكس على حياته اليوم وضع سهاد نحوه والجديد فيه.
يفكر مستغرباً التحولات الجديدة، وكيف بدأت تنقلب الأحداث في حياته نحو الأفضل... أخذ يسأل نفسه:
_ هل يعقل هذا يا راضي؟ أبوها يعرض عليَّ الزواج من ابنته سهاد؟ لا أعلم كيف تتحقق آمالي ومُنى حياتي على طبق من ذهب؟ عروس، وعمل مستقبلي... دفعة واحدة... كنت أعلم أن المصائب تجر بعضها وتأتي تباعاً، ولكن أن تأتي السعادة دفعة واحدة هناك غرابة! يا الله كم أنت غريبة أيتها الأقدار! جئت لأتسول مشروع عمل! والآن أخرج بعروس وأضمن بشراكة عمل منذ اليوم... كم تحدث مفاجآت بحياة المرء لم يعمل لها حساباً! حُرّم عليها فيما مضى أن تكمل دراستها... لسبب غريب لأن والدها وجدها تقوم بإسعافي... ما أكثر العجائب فيك أيها الزمن!
أخيراً تعجبب عمه من صمت لسانه، وفكر بما يشغل عقله فقال:
_ ما بك يا راضي؟ تكلم... لقد كلمني والدك بالأمر واتفقنا على الخطبة... لأنني أعلم أن ابنتي ستكون أمانة في بيت مؤتمن...

بصمت لسانه وثرثرة فكره تمتم:

_ الله... الله، السعادة تجري نحوي... قسماً بالله لا أدري... هل أنا في حلم؟

ثم تكلم:

_ أنا تحت أمركما أنت وأبي... سعادة جاءتني فجأة فأخرست لساني

_ اسمع يا ولدي... وفكر معي... أريد أن أستشيرك... أفكر بمشروع استثماري لائق أنفذه في أراضي قريتنا... مع أننا بدأنا بالانتقال إلى المدينة بناء على طلب العائلة... خالتك أي حماتك، تريد أن ترتاح من جو القرية ومتاعبها، قررت أن تترك القرية، وتبتعد عن الدجاج والمزارع... ما يشغلني أن المشروع الذي أفكر به، سيضطرنا للعودة إلى منزلنا في القرية... كما تعلم أننا أجرنا جزءاً منه.

_ بالتوفيق... ولكن لماذا التصميم على إقامة المشروع في القرية يا عمي؟ وأنت تعرف القرية ومشكلاتها، من ماء وكهرباء وصعوبة في النقل والتنقل.

_ لهذا طلبت رأيك... ماذا تقترح أنت؟ تفضل وقدم ما تراه أفضل...

_ أفضل أن يقام المشروع في المناطق الصناعية حول المدينة، بذلك يكون لديك مجال أوسع في المجالات التالية... السهولة في التوزيع، والسهولة في نقل المواد من وإلى بأقل التكاليف... ثم السرعة في الوصول... وتصريف المنتجات فيما بعد سيكون أكثر والتكاليف أقل.

_ نعم أعلم أنك ذكي جداً وبهذا الحق معك... إنما فاتك أن اقتراحي يستند على توفير ثمن الأراضي التي سيقام عليها المشروع... أنت تعلم أننا نملك

أراضي زراعية واسعة في القرية هناك، وأنتم تملكون الكثير أيضاً، وهذا ما جعلني أفكر بهذا الاتجاه... أما هناك في المدينة سنضطر لشراء الأراضي بمبالغ عالية، أو لاستئجارها.

_ نعم أوافقك الرأي... ولكن بحسب رأيك، سنوفر في بند واحد... بينما حسب اقتراحي سنوفر في عشرات البنود، كما تكلمنا قبل قليل... إن كان في دفع أجور نقل المواد إلى هنا زائد أجور شركات الإنشاءات ومهندسي الصيانة، وتصليح الأعطال حين نستدعي المختصين من المدينة... سترى أن الفروق ستتلاشى بين هنا وبين توفير ثمن الأراضي وهذا سيكون في المرة الأولى... فكيف على مدى السنوات الطويلة؟ وسيتضح ذلك في الفارق الدائم في الأرباح.

_ كما تشاء، ومع أنني لست ضد فكرتك لكنني كنت أود أن أجرب هنا... كنت أتوقع أن تكون التكاليف كبيرة في البداية فقط... دعنا ندرس الأمر بدقة.

بعد دراسات جدية مطولة... تبين أن فكرة راضي هي الأصح لذلك بدأ أبو رامي يجهز للانتقال إلى المدينة بكامل أسرته بشكل نهائي، وكُلف راضي بالذهاب إلى المدينة للبحث عن أراضٍ لإقامة المشروع، ولم يطل الأمر كثيراً به حتى انطلق في مهمة البحث.

طبعاً فور وصوله لم يجد بُداً من النزول في أحد الفنادق، ثم البحث عن غايته ما بين السماسرة وتجار العقارات، ومكاتب البيع والشراء، وأخذ

يتجول بين الأراضي الزراعية يسأل أصحابها... عمّن يريد البيع أو التأجير... في النهاية وصل إلى غايته في منطقة تصلح لما جاء لأجله.

وتشاء المصادفة البحتة خلال تجواله في الشوارع في ذلك الوقت، أن يلتقي بعفاف أثناء خروجها من الفندق الذي نزلت فيه منذ وصولها إلى المدينة، ثم استمرت بالإقامة فيه بعد ذلك فيه بشكل دائم.

ما إن تقابلا حتى دار بينهما الحديث التالي:

_ الله... الله، يا عفاف ماذا تفعلين هنا؟ لقد علمت بزواجك ألف مبارك... أتمنى لك السعادة وقد سرني بحسب ما سمعت أن الرجل ثري جداً! هل هذا صحيح؟

_ نعم... أحببته وأحبني... وهل في ذلك ما يعيب؟

_ آسف لم أقصد... أين هو؟ وأين تقيمين؟

_ اشتريت شقة في المدينة دون كساء، وقد أنهيت كسوتها وبت على وشك الانتهاء من تأثيثها... وقريباً سننتقل إليها.

_ تنتقلان إليها؟ ألف مبارك.

_ نعم أنا وزوجي... ثم تنهدت... ثم قالت: المثل الشعبي المعروف (يَلّي مالو بخت لا يتعب ولا يشقى).

_ كلام كبير هذا... لماذا كل هذا التشاؤم؟

_ إنها حكاية طويلة يا ابن خالتي قصة طويلة تروي حكاية سعادة قصيرة... كان زوجي كريماً جداً معي... بعد زواجنا ذهبنا مباشرة لقضاء شهر عسل

في أجمل أماكن روما... وللأسف لم يمضِ عشرة أيام حتى ورد إلى زوجي اتصال من أبيه يدعوه للعودة فوراً إلى البرازيل، لمرض شديدٍ ألم به... لم يتأخر هو ولم أمانع أنا...

ذهب على إثر الدعوة للاطمئنان على والده، وكانت خطتنا سابقاً السفر معاً... ومن هناك أخبرني فيما بعد أنه استلم إدارة شركات والده مؤقتاً ولا يستطيع العودة لمرافقتي إلى هناك... فقد وجد أن وضع والده حرجاً جداً... ولكن لسوء الحظ... فقاطعها ممازحاً:

_ هرب منك؟ أم تغير عليك؟

_ لا هذا ولا ذاك... أخبرني أن والده يموت في الليل ويحيا في النهار... جلست أنتظر أن تصلني الفيزا كي ألتحق به، ولكن حتى وقت قريب كنت أعيش على أمل كاذب حتى بت لا أصدقه.

_ وأين تقيمين الآن؟

_ في أحد فنادق المدينة... ثم سكتت دون أن تخبره أين يقع الفندق، وقد بدا له أنها لا تريد أن تدله عليه أو تعطيه اسمه، لكنها قالت:

_ لن أعطيك العنوان كاملاً لأنك لا تستطيع أن تزورني فيه... أنا أقيم وحدي، وإدارة الفندق ستحرجك بطلب بيانات تثبت من خلالها صلة القربى بيننا وطبعاً لا يمكن أن تتحقق... عندها تساءل في نفسه ثم قال:

_ هل يعقل هذا الكلام؟ أف لماذا هذا التشديد؟

_ هذه شروط الإقامة المفردة للنساء فيه! وفيه مراقبة أمنية مستمرة.

_ فندق متشدد؟

_ بل هو أكثر من متشدد، لقد علمت من خدم الفندق أن مشكلات عديدة وقعت فيه من قبل، لذلك وضعوا شروطاً قاسية لإقامة طالبات المدارس والجامعات... وإقامة النساء بمفردهن فيه... حتى أنهم كتبوا على جناح النساء يافطة كبيرة تقول:

(ابنتي أنت في بيت أبيك... ربك سيحاسبنا... كوني أمينة على نفسك تصلحين بيتنا) لا شك أنك لم تتوقعها؟

_ غرائب وعجائب هذا الزمن!

_ لا تستغرب... أكثر المقيمات فيه آنسات ومعلمات مدارس، وطالبات جامعات جئن من القرى... وأرى أن الحق معهم... أنت تعرف المدينة، وكثرة أماكن اللهو فيها وبهارجها، بل ربما الدعارة.

_ المهم لم تخبريني هل عاد زوجك بعدها؟

_ هه زوجي... كنت أحمل اسمه فقط... أخبرتك منذ البداية أنه لا يستطيع الحضور بسبب إدارة أعمال شركات والده الكثيرة... أخبرتك أنه وعدني أن يرسل فيزا كي ألحق به، لكنه لم يفِ بوعده... المهم أخبرني لماذا أنت هنا؟

_ قبل أن أخبرك لدي سؤال لك، وإن كان لا حق لي فيه... هل أتكلم؟

_ أتوقع أنك ستسألني... هل أحبه؟

_ لماذا لم تتوقعي غير ذلك؟

_ سؤال اعتادت عليه النساء عندما يبدي الرجل شفقة نحو أنثى محطمة معنوياتها... لن أكذب عليك فأنت ابن خالتي وقد أحتاج يوماً لوقفة منك معي... بل ما أحوجني لها اليوم قبل الغد، وسأخبرك بها بعد قليلٍ.

_ أنا تحت أمرك... ولكن أراكِ تتهربين من الجواب؟!

_ كلا لا أتهرب إنما لا أحب أن أشكو همي لأحد... ما يخدمني أفعله... ومع هذا سأرد على فضولك:

هذا الشاب يوسف ضحيت بعلاقتي مع أهلي لأجله... هل يجوز له أن يتركني في اليوم السابع من شهر العسل ويرحل؟!

_ تقولين ذهب لسبب مهم (وبالوالدين إحسانا...) أليس كذلك؟

_ نعم وماذا تقول لزوجة ظامئة للسعادة... لقد أفقدني حقاً منحه الله لي؟ أتلومني؟ كان بإمكانه أن يزورني ولو مرة كل ثلاثة أشهر، أليس حقي؟ اليوم زاد عن سنة غيابه عني، وحتى القريب من الزمن... لا أسمع منه سوى اصبري... اصبري.

_ إنه زوجك... ناضلت بقوة حتى تزوجته...

قاطعته بسرعة قائلة:

_ اسمع يا ابن خالتي، إن زوجين من الجوارب أدفئ بهما قدميّ خير لي من زوج أدار ظهره لي ورحل...

فجأة علا وجهها الغضب، وتغير لونه وأخذت تهدد... سترى انتقامي منك يا يوسف... سيكون أبشع انتقام... ستريك الأيام.

_ كلا قد يصطلح الأمر فور عودته... وتعود المياه إلى مجاريها.

_ حلم إبليس في الجنة... انتهى المقال يا ابن الخالة، ولم يعد من قول يقال!

_ لا حول ولا قوة إلا بالله... زم راضي شفتيه ولم يعلق بكلمة... لكنه قال:

_ ما أسمعه لم أفهمه... لقد قلتِ قبل قليلٍ أنكما ستنتقلان إلى الشقة بلغة التثنية!

_ لا داعي أن تسأل أكثر إذا سمحت... عندها رفع حاجبيه وأطبق فمه، ولزم الصمت يفكر بما سمع، حتى سألته من جديد:

_ دعنا من هذا الموضوع... لم تقل لي أنت ماذا جئت تفعل هنا؟

_ لقد كلفني والدك بالبحث عن أراضٍ واسعة لإقامة شركة صناعية عليها...

_ شيء عظيم جداً... رائع أنك أقنعت والدي بترك القرية! لقد سمعت أنه اشترى شقة في المدينة هنا ولا أعرف أين هي... وسمعت أيضاً أنه وبقية أهلي سيقيمون فيها هنا في الشتاء، وفي الصيف يقيمون في القرية، فهناك الجو أنقى وألطف في الصيف، حقهم ذلك، فالشتاء قاسٍ جداً في قريتنا... ولكن لماذا سيشتري أرضاً هنا؟ هل سيبيع أراضيه في القرية؟

_ كلا بل ضرورة العمل لنجاح المشروع في المدينة، وربما يستأجره فقط.

_ الله... تتكلم بلغة التثنية... إذاً ستكون شريكاً له؟! وهو الذي كان يطلق عليك اسم الضائع... أنت رائع إذا تحقق حلمك! لكن ما نوع نشاط المشروع؟

_ أولاً سأكون بالدرجة الأولى صهركم... زوج سهاد أختك، ثم شريكاً لوالدك مستقبلاً... ثم احتمال أن يختص عمل الشركة ببعض أنواع الغزل والنسيج... مازلنا حتى الآن ندرس حاجة الأسواق... سأعود بعد أيام لمتابعة أمورها، لكن ما هي الخدمة التي طلبتِ أن أساعدكِ فيها؟

_ في البداية سأخبرك بسر يهمك أن تعرفه ظل مجهولاً عليك طيلة ما مضى من عمرك...

_ الله! الله! ماهو؟

_ ستعرفه... من المؤكد أنك لاحظت اهتمام والدي بك منذ الطفولة؟ ومساعدتك مادياً في تعليمك!

_ كلا ولكنني لم أستغرب... كنت أشعر أنه يحاول شراء أمن ابنته عن طريق حمايتي لها.

_ نعم... لكن ليس لهذا فقط... بل كان يعدّك زوجاً لإحدى ابنتيه.

_ الحمد لله لقد تم ذلك، وأنا الآن خطيب أختك سهاد...

_ يسعدني ذلك ولكن كنت أتمنى أن أكون أنا هدفك... للأسف أنا لم أرغب العلم منذ البداية، وجاءت ظروف المرض في طفولتي فعطلتني عن متابعة الدراسة.

_ لا عليك... قسمة ونصيب... لكل نصيبه... هل من خدمة أقدمها لك قبل عودتي إلى القرية؟

_ نعم ولا شك... وهي أكبر خدمة تقدمها لي هناك وليس هنا... أنا يا راضي بحاجة لمساعدة كبيرة منك.

_ تفضلي... إن كانت ضمن إمكانياتي.

_ أريدك أن تقنع أهلي بزيارتي لهم... أنت تعلم أن أبي غاضب عليّ جداً... كنت أتسقط أخبارهم أحياناً، عندما يسأل أحدهم عني، فيقولون لي: أنه لا يطيق حتى ذكر اسمي! أما أمي فلا أعتقد أنها ستحتاج إلى الكثير حتى تقتنع وترضى عليّ... إن كانت عاطفة الأب بحجم البحر، فعاطفة الأم أوسع من المحيط... عندها تنهد راضي قائلاً:

_ سليمة والحمد لله... هل تصدقين؟ لقد كدت أن أشرق بلعابي، خشيت أن يكون طلبك غير ذلك... أن تطلبي مني نقوداً... لأنني ما زلت أنهل من بحر والدك وكرمه، الرجل الذي غمرني بلطفه وكرمه، تحملني ما يقارب عقدين من الزمن... وسأعمل معه لأرد له الجميل وإن كنت أعجز عن تمامه.

أما طلبك هذا فسأعمل المستحيل لتحقيقه... ولكن لماذا لا تأتين معي إلى بيتنا بيت خالتك أم راضي؟ ثم نطلب من أبي وأمي أن يتوسطا بالأمر... تذهبين معهما وتعتذرين من أهلك، وسأطلب من والدي وخالتك أن

يعملا جهدهما لإنهاء تلك القطيعة بينك وبينهم... أهلك هذه الأيام ما زالوا في القرية.

_ أتمنى ذلك ولكن أخشى العواقب... لأن بعد الأسبوع المختصر لشهر العسل، عدت مع يوسف وأنزلني أمام بيت أهلي، وسافر هو... لكن لم أجرؤ في تلك اللحظة على قرع باب بيتنا... وتشاء المصادفة وربما حسن حظي أو سوءه، مرور سيارة أجرة، عائدة إلى المدينة بعد أن أنزلت أحد جيراننا في الحي قادماً من المدينة... عندها وجدت فرصتي لأنهي حرجي من الموقف المحتمل فعدت مع التاكسي إلى المدينة.

_ يا لكِ من جريئة! تذهبين مع سائق أجرة وحدك؟! والطريق طويل جداً يحتاج لأكثر من ساعة ونصف لقطعه، ويخترق أحراجاً وتلالاً!

_ لقد تصرفت... لا تخف عليّ... لقد جعلت السائق يهرب متنازلاً عن أجرته... ومع هذا تركت له أتعابه على مقعد السيارة... المهم سأحكي لك كل شيء فيما بعد... جرب أن تحل مشكلتي مع أهلي بما كلفتك به وهذا تلفوني سجله عندك.

بعد أيام عاد راضي إلى القرية، بعد أن بدأ بعمل الإجراءات المتعلقة بشركة والد عفاف من شراء للأراضي ومواد البناء يتابع الإجراءات متنقلاً بين القرية والمدينة، وقد آلى على نفسه أن يسعى لإنهاء الخلاف ما بين عفاف وأهلها...

بعد عودة راضي إلى القرية... حاول في البداية... قبل حديث الأعمال حاول إنهاء خلاف عفاف مع والدها ووسّط والده ووالدته (خالتها) بالأمر... بدأ الحديث أبو رامي:

_ عساك وفقت بمساعيك؟

_ نعم كما أخبرتك على الهاتف الأمور سهلة وبدأنا بالإجراءات... ولكن استعد لمفاجأة لا تتوقعها!...

_ اللّهُمَّ أجعلها خيراً.

_ وبدون مقدمات... قابلت عفاف مصادفة... سألتني عنك وعن أمها وأخوانها.

_ لا إله إلا الله... أسألك عن أعمالنا، وتجيبني عن عقوق عفاف وقلة أدبها؟! لا تذكر اسمها أمامي مطلقاً كان عندي ابنة وماتت...

رد أبو راضي بلهجة هادئة:

_ ابنتك سواء رضيت أم لا... ثم وجه الحديث إلى ابنه راضي:

_ هل قابلت زوجها؟ لقد سمعت أنه اتبع ديننا وآمن به.

_ كلا للأسف لم أقابله... أخبرتني أنه سافر هو إلى البرازيل بناء على دعوة أبيه المريض جداً لمتابعة أعمال شركاته ريثما يتماثل للشفاء... وهذا ما حصل، ولكن عفاف كلفتني أن أدعوكم للسُكنى في المدينة قربها... خاصة بعد أن علمت بالمشروع الذي سنقيمه هناك.

وكأن الأمر راق للأب قليلاً لكنه لم يظهر حماسة زائدة للفكرة... ربما تصنعاً أو أنه لا يريد إظهار تقبله للرضى على ابنته... ولا شك أنه ما زال يحمل في نفسه الحب لابنته، ولا يريد كشف ما في قلبه، وبالتالي يريد أن يتلافى أقاويل الناس بعودتها إلى حضن أهلها.

فقال وهو يظهر الضيق من الحديث حول ابنته:

_ دعك يا ولدي يا راضي من سيرتها واشرح لي عما استطعت عمله، من تقدم في تجهيز طلبات مشروعنا هناك.

وقف أبو راضي، ثم قاطعه قائلاً:

_ لا بل موضوع عفاف قبل البحث بأي موضوع آخر... اسمع يا أبا رامي... إن لم تنهِ الآن موضوع عفاف سأخرج من بيتك ولن أدوس فيه للأبد... الحمد لله الفتاة لم تزنِ... لم تكذب... لم تسرق... عملت بشرع الله حتى أنني سمعت أنها لم تسمح له بالدخول إليها حتى أُجري له الختان حسب الشريعة... أسألك بالله عليك أين الخطأ؟!

_ لكنها عملت ما برأسها ولم تطع والديها!

كان والدها يتمنى أن يراها قبل أن تلحق بزوجها لذلك صمت قليلاً ثم قال:

_ كما تشاء يا أخي، دعوها تعود إلى هنا.

فقال راضي:

_ لقد نسيت أن آخذ عنوان زوجها كي يساعدنا في جلب المعدات التي تحتاجها الشركة... وفي هذا فائدة كبيرة لنا... ويبدو أن راضي كان يجهل ما تغير بالعلاقة بين عفاف وزوجها.

أما فؤاد والدها فكان يدغدغ عواطفه ذكراها... بل يتمنى أن تتم عودة ابنته لأسرتها مع زوجها، ولكن صعب عليه أن تجرح كرامته! فقال:

_ اسمع يا راضي اذهب غداً أنت وأخوها رامي لتأتيا بها إلى هنا على أن لا أقابلها أنا...

فقال أبو راضي:

_ المهم أن تأتي إلى بيت أبيها وأمها، وبعدها لكل حادث حديث...

لا شك أن القارئ علم أن هذا كان بعيد سفر زوجها بأشهر... ولكن مع موافقة والدها أجلت موضوع عودتها إلى القرية حتى ينتقل أهلها إلى المدينة...

أضاف أبو رامي:

_ اشرح يا راضي إلى أين وصلنا بموضوع الشركة...

_ ساومنا على أرضٍ واسعة... سلمت الأوراق إلى محامٍ قدير لإنشاء العقود وكلفت معقباً للمعاملات بأمور التسجيل والمتابعة...

لكنني أجد من الأفضل لنا في البداية أن نحدد عمل المصنع بنوع معين من النسيج، ثم تطور نفسك مع الزمن

بدأ راضي يساعد عمه بتنفيذ هذا المشروع الكبير، والمشروع عبارة عن مصنع متكامل لصناعة السجاد الآلي...

وخلال أشهر بُدِئَ العمل في مراحل المشروع الأولية بسرعة...

سُلم مشروع الأبنية إلى إحدى الشركات الكبرى المعروفة... التي بدأت بالتنفيذ على الفور... من تركيب الأعمدة الحديدية للمستودعات، ثم أُنجزت مباني مكاتب الإدارة وغيرها من المنشآت الرئيسية...

هذا اليوم كان العمل قائماً في أسقف الصالات، حين جاء فؤاد وبرفقته ابنته سهاد بناء على طلبها، لزيارة مشروعه، وفي نفسها أن تجد فرصة لمقابلة خطيبها.

وبينما كان راضي يراقب بعض العمال الذين يعملون على الرافعة الكبيرة... رفعت أحد الجسور الحديدية الضخمة عن الأرض... ولم ينتبه المسؤول إلى أن الجسر يدور ببطء شديد جداً وهو مرفوع عن الأرض بشكل أفقي... فجأة صطدم طرفه برأس أحد المهندسين! مع وصول عمه تلك اللحظة... الذي أدخل ابنته إلى المكتب ريثما يعود مع راضي...

في تلك اللحظة اضطر لإسعافه بسيارة الإسعاف التابعة للشركة، ثم ركب عمه معه واتصل بسهاد طالباً منها البقاء في مكتب الشركة ريثما يعودان...

تبين لهم أن الحادثة تسببت بإصابة المهندس إصابة بالغة برأسه فقد معها الوعي... مما دعاهما لأن يتأخرا عن العودة، وسهاد تنتظر في مقر الشركة وحدها... وبدأ القلق والخوف يدب في نفسها...

لنترك الآن راضي وعمه يتابعان حالة المهندس المصاب، وننتقل الآن إلى ما تبقى من أحداث القصة التي فرضت نفسها على مسار الرواية ونتابع تطوراتها...أي بسام وغنوة...

بعد أن كنا تركنا غنوة محتجزة في المخفر بتهمة لم يصرح المحامي لزوجها ما اتهمت به.

البـــاب الثاني

نـهايـــة صفقـات

الفصل الرابع والعشرون

اعترافات هائلة

عاد بسام إلى البيت مع حماته وحيدين وبقيت زوجته موقوفة في النظارة بانتظار تحويلها إلى القاضي في اليوم التالي... في الطريق سأل حماته:

_ ما الذي كان يجري في غيابي يا أم غنوة... أجابت بصوت حزين:

_ لا تسألني يا ولدي... أنت تعلم أين أسكن في هذا البيت... إنها غرفة في القبو لا أصعد ولا أنزل لها إلا بإعجوبة... أنا وزوجي عمك، لا نعلم شيئاً عمّا كان يحدث في بيتكم... لا علم لنا بشيء مما يجري في شقتك أبداً.

_ قريباً ستعرفين كل شيء، وما سببته التربية السيئة وعدم المراقبة والتوجيه لابنتكم، وتركها تعيش على هواها... هيا انزلي إلى غرفتك... لكن أين بيت الرجل الذي أخذ الطفلين معه؟ قلتِ أنّك أرسلت الولدين مع جارنا سأذهب لأتي بهما إلى هنا الآن... أشارت إلى بيته... وقال: سأعتني بهما ريثما أبحث في المصيبة التي سقطت فيها بسببكم... خدعت بحلو لسانكم وكبر بيتكم... يالي من مغفل... وقعت حيث لا ينفع الندم!

ليت الأمر توقف عند السرقة والمسروقات، لكن أشك أنه تعداه إلى ما يمس الشرف والكرامة... ليت المحامي أخبرني ولو برؤوس أقلام عن تهمتها... يا إلهي... تبدو لي أنها متهمة بتهمة هائلة كما لمح لي الضابط!.

أخذ بسام الولدين وأعطاهما لجدتهما، ثم خرج... لم يطق الصبر على البقاء في القرية، بل أخذ يقود سيارته عائداً إلى المدينة والقلق يكاد أن يذهب بعقله، كان يتخوف من أن يُجر هو نفسه في القضية إلى ما ليس له يد فيه... كما يفكر بمستقبل طفليه وحالهما اليوم، وما سيعانيان من قهرٍ وذلٍ أمام زملائهما في الشارع والمدرسة...

بعد تفكير طويل، قرر أن يطوي القضية أمام الناس مهما كانت مفرزاتها، وما استطاع إلى ذلك!

ثم أخذ يردد بيتين يحفظهما جيداً لزهير بن أبي سلمى:

ستبدي لك الأيام ما كــنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لــم تبع له بتاتاً ولــم تضرب له وقت موعــد

ثم في النهاية سلم أمره لله وقال: غداً ستتضح القضية وغداً لناظره قريب...

قرر النوم في مكتبه، لكنه لم يغمض له جفن تلك الليلة، بل أخذ يتقلب في فراشه يفكر ويستعجل الصباح، كي يذهب لعله يصل إلى السبب الحقيقي الذي سجنت زوجته بسببه في نظارة المخفر، وما الذي كانت تفعله أو تدبره تلك الإنسانة... أهو ضده أو ضد من؟

أحياناً يُدخِل بعض التفاؤل الممزوج بالتمني ولكن الاستحالة تتغلب على ما راود عقله، ويُمني نفسه بشيء لا يصدقه، وقد لا يُعقل... ومع هذا يتساءل:

_ أيكون في الأمر تشابه أسماء؟ ولكن لا... لا مستحيل، هناك شيء فوق العادة... يا ترى على ماذا استند المحقق حتى تم له توقيفها؟ هل هناك شيء ما في سجل سوابقها؟ كلا... كلا سبق أن فُتح سجلها أكثر من مرة، وآخرها منذ وقت قريب! يا إلهي أرحني من هذا القلق العنيف... المريب.

بكّرَ بسام صباح اليوم التالي قبل نقلها إلى المحكمة... سأل الحارس:

_ هل أستطيع أن أقابل زوجتي لحظة، وفي الوقت نفسه وضع بيده سراً بضعة أوراق نقدية من الفئة الكبيرة.

لكن الشرطي نهره غاضباً وقال مشفقاً:

_ أنا أعرف لهفتك على زوجتك، الآن أسامحك... يجب أن تعلم في البداية؛ ليس كل إنسان يُشترى بالمال أعد نقودك إلى جيبك... ثم ما تطلبه مني ليس من اختصاصي... أنا حارس ليس أكثر.

_ أرجوك إن كنت تعلم من يُشترى بالمال هنا أخبرني حتى أغنيه... لينهي لي مشكلتي وأعرف سبب احتجازها.

_ اسمع... ورديتي ستنتهي في الثامنة، ثم نظر إلى ساعته وأتم كلامه... أي بعد أقل من ساعة... بقي على خدمتي سنة واحدة وأحال على المعاش... بعدها أصبح مدنياً مثلك... لا أريد أن أختمها بما لم أفعله خلال خدمتي

الطويلة لأكثر من ربع قرن. اسمع... سأخدمك مجاناً ببضعة كلمات... مما أخيراً ستعرفه فيما بعد... احمد ربك على أنك تقف أمامي، وتتكلم معي الآن وليس أمام المحقق... كما أنك لم تلقَ المصير نفسه.

_ يا إلهي هناك شيء يمسني شخصياً! حتى الضابط بالأمس قال تلك الكلمات... أترضى أن أقبل يدك حتى تخبرني ولو معلومة بسيطة؟

_ اذهب الآن بسرعة... لقد جاء من سيستلم مكاني، ومعه آخرون... ها هي السيارة توقفت الآن... ربما يفيدك أحدهم!

ما إن جلس المساعد الجديد خلف الطاولة، حتى سأله عن سبب توقيف زوجته منذ الأمس، وطلب منه أن يسمح له بمقابلتها.

_ أعطني اسمها... قال بينما كان يفتح الكمبيوتر... ثم نظر إليه وهو يقول:

_ قلت أنّها زوجتك؟ ... لقد سُمح لمحامٍ بمتابعة قضيتك، هل عملت له التوكيل اللازم؟ عاد وسأله:

_ هل أستطيع أن أسترد تلفونها الخاص... أجابه:

_ مستحيل... إنه محتجز ومغلق... اذهب بسرعة لعمل التوكيل لا تضيع وقتك... حتى يتمكن المحامي من متابعة القضية ويستطيع أن يدخل معها غرفة التحقيق... ومنه ستعلم كل شيء... أسرع.

خرج بسام وهو يضرب أخماسه بأسداسه دون أن يعلم حتى الآن شيئاً عما أدى لتوقيف زوجته...

ومع إنهاء معاملة التوكيل، ودخول المحامي غرفة التحقيق... جلس في الخارج ينتظر داعياً ربه أن تكون القضية بسيطة، وأن لا يكون لزوجته دور بارز إن كانت القضية صعبة... وبعد طول انتظار خرج المحامي وهو يقول له:

_ سنطعن أمام المحكمة بجميع الاتهامات... لا تخف... سأجد منافذ كثيرة، القوانين مطاطة... لكن اليوم ستبقى زوجتك في التوقيف حتى تحول غداً إلى القضاء... لا أخفيك القضية متشعبة جداً، أرجوك لا تسألني اليوم عن شيء... لقد طلبت استدعاء جميع من تبين لهم علاقة بالقضية...

_ أرحني بالله عليك ولو بلمحة...

_ غداً سأخبرك بكل شيء القضية ليست سهلة... أن تحتار الآن فيما لا تعلم خير لك من أن تعرف ما لا نستطيع تأكيده... ربما غداً أجد لك ما يمتص غضبك وحيرتك...

أيام طويلة والقضية تتأجل إجرائياً حتى تم البدء بالمحاكمة... والمحامي مصر على عدم توضيح أي شيء له مما في ملف زوجته!

في صباح اليوم المحدد للجلسة بكّرَ بسام بحضوره إلى المحكمة قبل نقل زوجته إليها، وكانت بعض الأخبار تسربت إلى أقارب غنوة لكنها متناقضة... لذلك وجد الكثير منهم... ينتظرون في المكان نفسه...

لم يمضِ القليل من الوقت حتى توقفت سيارة السجن؛ بدأ بالنزول منها بعض الشبيبة... عرفهم على الفور وعرف أحدهم بالذات... كان هذا الشاب

يتردد كثيراً على بيته أثناء وجوده في المنزل، بحجة أنه قريبها، وأن هذا الشاب كان مسافراً وعاد من بلاد الغربة.

الجميع في ترقب... الهرج قائم بين تلك المجموعة... خرج المحامي الآن... قفز الجميع نحوه يستفسرون ويسألون عمَّا جد في القضية... لم يجبهم إنما اقتاد بسام إلى سيارته وجلس معه فيها، يحمل بيده خلاصة التحقيق الأولي... حيث قال:

_ أمسك أعصابك يا بسام... الأخبار سيئة جداً، ولا بد لك من الاطلاع عليها أولاً وأخيراً.

_ حطمت أعصابي يا رجل... قل ما الأمر مهما كان مرعباً.

_ الموضوع أكثر من قضية أولاً: مخدرات... ثانياً: دعارة... ثالثاً: تخطيط بالقتل، ثم سرقة واحتيال... علمت بالأمس كل هذا ولكن لم أكن متأكداً أن زوجتك ضالعة فيها... ثم السرقة التي أبلغت عنها كانت بالاتفاق مع زوجتك! وكنت أنت معرضاً للقتل... لكن الله نجّاك من شرها وشر عصابتهم... لم يستطيعوا إنكار المكالمات والمسجات والصور في هاتفها وهواتفهم.

لقد اعترفت أثناء التحقيق بكل شيء... كما اعترف زبانيتها الذين اعتقلوا بالأمس بعد أن تم التحقيق معهم ... وقد أحيلوا جميعاً إلى القضاء... أخبرك الآن بذلك لأنك ستعلم أخيراً بكل شيء من خلال

جلسات القضاء المفتوحة... نظر إلى بسام الذي كان صامتاً بالكاد يتنفس لهول المفاجأة ... الذي قال:

_ أرجوك اسحب يدك من القضية... عارها على أهلها وأقاربها وهم أحرار بما سيتصرفون معها وبها.

_ كما تشاء ولكن لعلمك إن كلفني أحد منهم أن أتابع القضية سأفعل... القضية كبيرة وفيها شهرة لمكتبي وعمل جيد لفريق المكتب...

لم يرد بسام... بل نزل من سيارة المحامي متجهم الوجه... يلعن الساعة التي تعرف على غنوة اليوم، ويلعن قبلها عفاف وأمها اللتان كانتا سبباً لزواجه من غنوة، كرد فعل لموقف الأم حين طردته من بيتها وفسخت الخطبة.

ركب سيارته واتجه عائداً إلى قريته لا يعي الطريق لشدة حزنه... حتى دون أن يفكر حتى بالمرور إلى مقر عمله... في الطريق قرر أن يرحل من البلد، وأن يبيع كل ما يخصه في القرية ومكاتبه في المدينة، ثم يأخذ أهله وولديه ويرحل من البلد بالكامل... وأما غنوة فقد ترك أمرها بيد أقاربها والقضاء.

الفصل الخامس والعشرون

ماضٍ يرحل

نعود إلى سهاد التي ما زالت تنتظر عودة راضي وأبيها...
وللتذكير فقط: بعد أن أصرت سهاد على مرافقة والدها إلى مكان إقامة مشروعه حيث تعلم بوجود خطيبها معه، في المشروع الذي بدأ والدها بتنفيذه في المنطقة منذ مدة قريبة، وبمساعدة خطيبها راضي

جلست سهاد في المكتب تنتظر، وتحلم كفتاة نالت ما تمنت، وأوشكت أن تنهي عزوبيتها مع أنها كانت بين الحين والآخر تشعر بالخوف من رهبة المكان... لوجودها وحيدة داخل المكتب، تفكر بوالدها وخطيبها اللذين ذهبا مع المصاب إلى المستشفى... لا يوجد أحد تعرفه من بين العمال أو المهندسين... يطمئنها أنّ لا أحد قريب من مكانها، فجميع العمال يتفرقون بين منشآته!

تأخرا... طالت وحدتها في مكتب الشركة... لم يأتِ خطيبها، ولا عاد والدها... مع كل هذا كانت مطمئنة من خلال اتصال راضي قبل قليل عندما أخبرها أنهما ما زالا مع المهندس المصاب في المستشفى.

وجدتها فرصة للتفيكر فيما وصل إليه حالها اليوم وأخذت تستعيد ماضي حياتها... والظلم الذي حاقها وسبب إخراجها من المدرسة من قبل والدها، وأن السبب قيامها بعمل إنساني، ولا يستدعي هذا العقاب القاسي.

فهو واجب فرض عليها... تفكر كيف ضاعت فترة من صباها هباء...

لم تستفق من غفلتها إلا على قرع هادئ ولطيف على باب المكتب!

تبادر إلى ذهنها أن الطارق قد يكون خطيبها... ربما أرسله والدها أو جاء إليها من نفسه، بعد أن علم من والدها بوجودها وحيدة في المكتب... لكنها استبعدت الأمر في فكرها...

قالت بصوتٍ خائفٍ:

_ نعم... من أنت؟ المدير وصاحب الشركة مع المهندس المصاب في المستشفى، لكن المفاجأة حين رأت الباب يُفتح بهدوء، ثم يدخل منه شاب لم تعرفه لأول وهلة!

ودون انتظار باغتها بالحديث فجأة:

_ الله... الله... ما أجمل هذه المصادفة! ألست سهاد زميلتنا في المدرسة سابقاً؟

_نعم... عليكم السلام... أليس من واجبك أن تلقي السلام أولاً... تفضل!؟

_ أراك تجلسين وحدكِ؟!

عرفته... إنه سمير الذي عرفناه في بداية الرواية، أحد رفاقها في المدرسة، وهو الذي افتعل المشاجرة مع زميلها وابن خالتها راضي لأسباب ذكرناها في وقتها... ثم رأيناه يهدد بالانتقام من راضي.

رحبت به ببرود شديد، لكن مع ذلك ساورتها بعض الطمأنينة لأنها وجدت من تعرفه بين عمال الشركة:

_ يا إلهي... من أنت؟ سمير! سبحان الله... من كان يعاكس سميرة رفيقتنا في المدرسة والسكن! هل تزوجتما؟

_ نعم... أنا سمير نفسه... أنا مدير عمال الشركة المنفذة لأعمال تركيب الأسقف الحديدية في المشروع.

_ ما شاء الله تفضل بماذا أستطيع أن أخدمك... أظن أستطيع القول... باش مهندس لكن لم يحن الوقت لتتخرج من الجامعة؟! وللأسف لا أستطيع أن أطلب لك قهوة... هذه أول زيارة هنا لي ولا أعرف أحداً.

_ لا عليك أنت كريمة ومعفاة من القهوة... أما قولك أنا باش مهندس... من أين لحظي السيّئ أن أصل لهذا المستوى؟ لكنني أعلم أن المشروع لوالدك... رأيتك معه قبل قليل وجئت للسلام...

_ هو في الخارج وسيعود بعد قليل.

_ لا يهم عرفت أنك هنا... لمحتك حين كنت مع والدك... وجدتها فرصة للتعارف...

_ بماذا أخدمك... وقهقهت بأدب، ثم أردفت: لكنني لا أملك أي سلطة هنا، وعلى هذا لن أستطيع أن أقدم لك أية خدمة... وكأن صاعقت ضربت برأسها حين سمعته يقول:

_ أريدك أنت... لا تخافي... شرعاً بما أحل الله.

_ لا أدري ما نوع هذا المزاح... ثم هل ترى أن هذا المكان هوالمناسب لطلب يدي؟.

_ كلا... أعلم هذا... أريد موافقتك أولاً... بعدها أخطبك من والدك حسب العادات والتقاليد.

أجابته ضاحكة ظانة أنه غير جاد أو يمزح؛ وتستغرب هذا الطلب المفاجئ البعيد عن المنطق:

_ كل شيء قسمة ونصيب... أنا مخطوبة إن كنت لا تعلم... إلى زميلنا راضي ابن خالتي... وإن كنت لا ألبس خاتم خطبة في إصبعي... يبدو لي أنك تمزح أليس كذلك؟! أجاب بفظاظة بعد أن عرف أنها على حساب عدوه راضي:

_ حسنٌ... كنت أظنك مازلت بدون خطبة... لكن هل فسخ الخطبة يكلف أكثر من كلمة لا أريدك.

_ أعتقد أن هذا الموضوع لا يجوز المزاح فيه.

_ ومن قال إنني أمزح الآن؟ نعم ربما كنت أمزح في البداية، لكن أنا الآن جاد فيما أقول، بعد أن عرفت من هو خطيبك!

حاولت تلطيف الموقف بقولها:

_ لكن أظن أنك مرتبط؟

لكنه لم يرد!

بدأ الرعب يدب بنفسها عندما أخذت تنظر إليه... وتشاهد تقلصات وجهه، والجدية تظهر واضحة على ملامحه...

ما زال الشك يساورها أن يكون جاداً فيما يقول، خاصة عندما يعود للابتسام أحياناً، ومع ذلك قلبها لم يطمئن... فهي وحيدة ولا يوجد من تستنجد به...

لكن طبعها الهادئ وتجارب الحياة تعلمت من خلالهما الصبر وحسن التصرف في هذه المرحلة من العمر، لا تريد أن تتعجل باستغاثة، تعرف سلفاً أن لا جدوى منها... لا أحد قريب من المكان يسمعها... فكرت بسرعة... إن أضاعت بعض الوقت، ربما يأتي والدها، أو خطيبها... لذلك قررت أن تجاريه في الكلام، تأمل إن تأخرت عودة والدها أو خطيبها، أن يتصادف مرور أحد من العمال الموزعين في أنحاء الشركة... إذاً لا بد من مسايرته... هي وحدها في المكتب بعيدة عن ورش العمل، والعمال الذين يتوزعون بين المنشآت في أرجاء الشركة؛ حتى وإن استنجدت فلن يسمعها أحد، بالإضافة إلى أنه قد يستفزه الموقف إن رآها تستغيث... ربما يعجل بتنفيذ ما لم يكن ينوي عليه.

اطمأنت قليلاً... حتى الآن لم تبدر منه أية حركة غريبة حتى هذه اللحظة... ما زال يتكلم وهو جالس في مكانه، وأكثر لهجته تكاد أن تكون أمنيات، وأقرب للدعابة، هذا ما صوره لها عقلها... لهذا حاولت تلطيف الجو بينهما... ردت ممازحة بلطف شديد على طلبه:

_ كان غيرك أشطر... فاز راضي... حصانه سبق حصانك... ما إن سمع كلمة راضي حتى جُنَّ جنونه وقال:

_ أفهم ما قولين! تعنين راضي عدوي؟

_ منذ فترة تقدم راضي لخطبتي، ووافق الأهل على زواجنا.

_ أنت تمزحين أليس كذلك؟ لا أرى ما يدل على الجدية في كلامك... أين خاتم الخطبة؟

_ لم نعلن الخطبة حتى الآن، وسيتم ذلك مع افتتاح هذا المشروع.

_ولكن ما علاقة المشروع بالخطبة؟

_ ألا تعلم أن المشروع منذ اليوم شراكة بين والدي وراضي... وهو الآن الشريك الأول، وهو مشرف المشروع كله... فقال ساخراً:

_ الله... الله! ما هذه المصادفة؟ ولكن من أين لهذا الرقيع المال ... الباش مهندس؟ هل سطا على بنك؟ أم باع بقرات أبيه؟ يبدو أنني أعمل تحت يد هذا التافه... عدوي!

_ كلا لا هذا ولا ذاك... إنه يساعد والدي بعلمه وعمله، فهو قدير ناجح وسيتخرج من الكلية بامتياز... ووالدي ربما يشاركه بماله... ثم أرادت أن تغير الحديث... سألته:

_ أين سميرة التي كنت تطاردها؟

_ لا أعلم... ربما تزوجت من غيري بعد أن تركت الدراسة، ولم أعد أعرف عنها شيئاً... أنا لم أكمل الثانوية...

_ أنا أيضاً كذلك تركت المدرسة... وكنت أنت السبب في هذا...

_ أرأيتِ لمَ كنت سبباً لتركك الدراسة؟! أترين كيف ساقتنا الأقدار كي نلتقي معاً بعد تلك المدة... أليست هي إرادة الأقدار لنكون أسعد زوجين؟

كان لا بد لسهاد من الصبر ومجاراته في كل ما يقول... خشية أن يقوم بالاعتداء عليها بالقوة.

فقالت وهي تتصنع الابتسام:

_ ولكن لمَ لا تكون هذه المصادفة كي تحضر حفل زفافي على راضي...

حاولت من جديد أن تغير الحديث لعله يهدأ... لكن بالمناسبة كيف تكون مديراً لمشروع دقيق كهذا... ولا تحمل شهادة هندسية أو أية شهادة عليا؟ أرادت ممازحته وتغيير الموضوع بشكل نهائي... أعتقد أن المهندس الذي أصيب قبل قليل قد أصيب بسبب نقص الخبرة في مهندسيكم؟

_ كلا... قدره ليس أكثر... صحيح أنا مدير الشركة وصاحبها هذه التي تعمل عندكم ويعمل تحت أمرتي ثلاثة مهندسين أكفاء... لقد ورثتها عن أبي...

لكن، ألا ترين النصيب والحظ ماذا يفعل؟ أصيب المهندس كي نلتقي! وأن الله جعل من تلك الحادثة سبباً ليجمع قدرنا ومصيرنا... كي نكون لبعضنا، أليست هي الحقيقة؟

_ ولكن أنا مخطوبةٌ كما قلت لك.

_ قلتِ لم يتم ذلك بعد، ولا أعتقد أن ذلك سيتم.

بدأ يتقدم صوبها، ثم جلس على كرسي، وأخذ يزحزحه قليلاً ويقترب من المقعد الذي تجلس عليه، حتى أصبح قريباً منها!

مع ذلك حافظت على هدوئها... أرادت أن تمتص تسرعه فسألته:

_ ما بك هل أزعجك المقعد؟ كان لا بد لها من إظهار بعض الشجاعة والهدوء، وإن كان الخوف جعلها تسمع دقات قلبها بأذنيها وأصبح الوضع مرعباً... قالت له بلطف وكأنها تتجاهل نيته:

_ تفضل واجلس خلف الطاولة، على كرسي المدير؛ أنت مدير كما تقول، ربما ترتاح عليه أكثر.

_ نعم... ولكن أرتاح قربك أكثر، ثم نهض واقترب منها... وجلس على المقعد المزدوج نفسه الذي تجلس عليه، حينذاك أكدت أن نواياه تحولت إلى نوايا شيطانية... أمسكت أعصابها بشدة، وتظاهرت من جديد بالهدوء التام... حاولت تناسي نظراته النارية التي بدأت تتجه نحو الأماكن الحساسة في جسدها.

أخذ الرعب والفزع يفقدانها السيطرة على أعصابها... زاد على ذلك حين بدأ يتململ ويقترب نحوها ببطء! علمت بذكائها أن الشاب تورط، وأصبح في وضع لا يمكن معه التراجع إلّا بعد الوصول إلى غايته، وقد يتعرض للفضيحة دون أن يفوز بشيء... وبما أن فكرته جاءت مصادفة دون دراسة أو تخطيط، لذلك توقعت سهاد أن تتطور الأمور إلى الأسوأ الآن.

فجأة... نظر إليها بتمعن وتظاهر بالكلام، وفي الوقت نفسه مد يده ليطوقها من خصرها.

تأملت مرعوبة يده التي كانت تقترب نحوها بهدوء وتردد... أصيبت بما يشبه الهستريا... قفزت من مكانها بسرعة، نحو خلف طاولة المكتب لتتخذ منه حماية لها من أي هجوم أرعن مفاجئ يقوم به... نظرت حولها... عندها أحست ببعض الراحة لسلامة موقفها.

شعرت أنها أصبحت محمية من عدة اتجاهات... من الأمام طاولة المكتب، ومن الخلف الجدار الذي خلفها، ومن جانبها الجدار الجانبي الثاني... نظرت بسرعة من النافذة علّها تجد أحداً ينجدها ... لم ترَ أحداً قادماً.

وضعت يدها على مزهرية من البورسلان كانت تزين سطح الطاولة... أرادتها سلاحاً تدافع عن نفسها به... لكنه كان أسرع منها... لم يمهلها حتى تحملها.

قفز عن يمينها... بسرعة البرق أمسك بفستانها من أعلى الصدر... شده بقوة وهو يقول:

_ لن تكوني لذلك المتسول راضي أبداً سأنتقم منه بك الآن... لكن يبدو أن يده أصابت طوقاً من القماش كان يزين ياقة فستانها... حين سحبه بأقصى قوته جر صدر الفستان! ومع أنه منعه من تنفيذ غايته... إلّا أن ما حدث تقطعت بضعة أزرار من صدر الفستان.

لم يظهر من مفاتنها سوى القليل، القليل... لكنها كانت كافية لتزيد من هيجانه وتزيد من ورطته.

لم يعد يغامر بالانسحاب أبداً... فالأمر كان نوعاً من الانتقام من عدو توعده قبل زمن ولم يكن يحبه، بينما كان هو في الحقيقة بعد أن علم بعلاقتها براضي، لا يريد أكثر من تنفيذ مأربه بتعطيل زفافها من عدوه القديم، لكن الآن تورط، وأصبح يتصرف كالمجنون، دون وعي... أهم غاية لديه الخلاص بنتيجة من هذا الموقف ومن الفتاة التي بدأت تأخذ عقله... هنا تطور تفكيره إلى الأسوأ... أي منع خصمه من الحصول على سُهاد ولو أدى ذلك إلى قتلها... نعم كانت الورطة كبيرة جداً... لم يعد بإمكانه التراجع... غدا كالثور الهائج...

في اللحظة نفسها تمكنت سُهاد من رفع المزهرية بكلتا يديها... أنزلتها بقوة على قمة رأسه... بضربة وضعت كل جهدها فيها.

سقط سمير دون حراك! نظرت إليه وهي ترتجف رعباً، ووضعت كفها على فمها... تجمدت عواطفها وشلَّت حنجرتها... ظنت أنه مات على إثر ضربتها بينما كان هو في الحقيقة فاقداً للوعي... أخذت تحدق بجثته المكومة على

الأرض، وتبكي بحرقة مرعوبة من منظرها ومنظر الدماء التي ما زالت تنزف من رأسه وأنفه وفمه.

حارت ماذا تفعل الآن... صدر ثوبها ممزق... لا بد لها الآن من الخروج بأي شكل من المكان للاستنجاد... أمامها جثة لابد من العبور من فوقها... لا تجرؤ على إزاحته عن طريقها أو القفز من فوقه.

نعم أمامها الآن رجل تعرف أنه ميت! لا يتحرك... نظرت إلى الدماء التي تنزف من رأسه... فطنت إلى أيام كان ترى فيها الجزار يذبح ضحية العيد... كان النزيف يتوقف بعد موت الخروف بلحظات... بينما ترى أمامها الدماء ما زالت تتسرب بتباطئ، إذاً لا بد أن القلب ما زال يدق... ثم ها هو النزيف قد خف، وتقلصت قسمات وجهها وهي تراه بدأ الآن يتململ... نقلت نظرها إلى النافذة... صاحت بملء صوتها:

راضي... راضي... أبي... لقد رأت الفرج قادماً نحوها، مما خفف من رعبها قليلاً ... لقد رأت سيارتهما قادمة من بعيد... لكن أمامها جريمة. يبدو أن الصرخة أيقظت المغمى عليه؛ الذي هبَّ واقفاً وضرب بيده على الطاولة فصدمت فتاحة الرسائل (أداة تشبه السكين) وكانت هي أول ما طالتها يده... صاح وهو يرمي بنفسه عليها والأداة موجهة إلى صدرها:

_ لن تكوني لغيري... لن تكوني... ضربها بقوة جسده المنهك... لم تكن الطعنة قاضية مع أنها اخترقت صدرها في مكان يبدو أنه ليس شديد الخطورة، بينما كان هذا المجهود آخر لحظة في دنياه... سقط هو على إثرها

فوق الأرض ميتاً. يبدو أن المجهود الذي بذله أثر فيما تبقى به من حياة... وفي اللحظة نفسها دخل والدها يرافقه خطيبها... وانتهت المشكلة التي قدر الله لها أن تعاني منها ساعة من الزمن...

انتُزعت المدية من صدرها في المستشفى، وعاشت بعد علاج طال أشهراً... أما سمير فانتزعه موت زؤام واستقبله ظلام لا نور بعده.... وتخرج راضي من جامعته فيما بعد، كما تنبأت له سهاد وأصبح شريكاً بعلمه وشهادته في الشركة.

الفصل السادس والعشرون

عفاف ثالثاً

بعد اللقاء الذي تم بين يوسف والشخص الذي عرف فيه أنه من أقارب عفاف، ولم تكن بينهما معرفة مسبقة وكان قد تزامن هذا اللقاء مع افتتاح الشركة التي قامت بين راضي وزوج خالته والد سهاد، وكانت مصادفة أن سبب وجود الرجل هو سكناه في المدينة نفسها وهو يتردد على هذا المقهى، ويجهل مكان العمارة التي اشترت فيها عفاف الشقة، لذلك اعتذر له عن معرفة مكانها، ونصحه أن يسأل في المحلات التي لا تخلو منها أي عمارة.

طبعاً الفكرة موجودة في رأس يوسف الذي شكره وقام لمتابعة بحثه.

مشى يوسف يفكر بالسبب الذي جعل عفاف لا ترد على اتصاله وتغلق هاتفها مباشرة بعد المسج الذي أرسله في الصباح من المطار ليبشرها بوصوله!

توقف أمام أول عمارة على الشاطئ، وهو يتأفف من هذه المهمة الصعبة ويتمتم:

_ الشاطئ طويل جداً والعمارات متراصة عليه... ثم خلفها أيضاً عدة صفوف من العمارات... كيف لي أن أصل إلى هدفي بهذة الطريقة؟!

سأل أول شخص شاهده يخرج من باب إحدى العمارات... أجابه الرجل:

_ لا علم لي والمهمة صعبة، إذا لم يكن لديك عنوان رسمي أو رقم العمارة حتى تصل غايتك... ولكن عليك بحراس العمارات، فكل عمارة لا بد من وجود حارس لها... ربما يعرف الحارس السكان المقيمين في البناء... عليك بهم.

انتقل يوسف إلى العمارات واحدة تلو الأخرى حتى دَبَّ اليأس في قلبه... في الوقت نفسه يحاول الاتصال مجدداً برقم زوجته متمنياً أن تكون قد فتحت جهازها... لكن للأسف دون جدوى، الجهاز مغلق كالعادة.

وما زاد من حيرته وقلقه أنه لا يعرف السبب... ولا يعرف مكان إقامتها، والمشكلة أن هاتفها قبل ساعات كان يعمل! أهم ما يشغل فكره الآن هاتفها الذي أُغلق فجأة لسبب يجهله! وأخيراً وبعد أن أتعبه السير على قدميه منذ الصباح وأضناه التعب... توقف أمام إحدى العمارات يستبدل بطارية هاتفه التي نفذت شحنتها.

انتبه إلى أن بواب عمارة كان جالساً في ظل شجرة وارفة على كرسي أمامها، وأمامه كرسي آخر فارغ... على الفور توجه نحوه وجلس على الكرسي الفارغ قبل أن يستأذنه بالجلوس، ثم بدأ يخلع الحذاء من قدميه... تفاجأ به الحارس وقال:

_ تفضل... ماذا تريد؟

سكت يوسف لحظات، وقد ظهرت علامات الإعياء في وجهه، وأصبح يسمع صوت أنفاسه اللاهثة... حين لم يعطِ الحارس جواباً على سؤاله، كرر الحارس السؤال نفسه، فقال:

_ أبحث عن سيدة تسكن هنا... اسمها عفاف.

ضحك الحارس وهو يقول:

_ العمارة مؤلفة من عشرات الشقق، وهل تظنني أقرأ الوجوه أم هويات جميع السكان؟! والأغرب أنك تسأل عن اسم امرأة... يا إلهي كم أنت لطيف... وبسيط أيها الرجل! حقيقة، أنا لا أجلس طويلاً أتابع المسلسلات... هل هي ممثلة مشهورة؟ أم مطربة؟ أم مسؤولة كبيرة في الدولة حتى تُعَرَّف باسمها!

_ كلا... كلا امرأة عادية اشترت شقة في إحدى العمارات على هذا الشاطئ.

_ على الأقل كان عليك أن تسألني عن أم فلان... زوجة فلان... أمّا اسم امرأة عادية، فهذا شيء مستغرب وبصراحة لم يسبق لي سماع الاسم... آسف لن أستطيع أن أخدمك بشيء... وقف يوسف بعد أن أراح قدميه قليلاً... وعندما همَّ بالذهاب لمواصلة البحث ناداه الحارس قائلاً:

_ انتظر... انتظر يوجد في مكتب العمارة جدول بأسماء جميع السكان وهواتفهم... قد يفيدك، وذهب ليجلب السجل.

بحثا معاً في جميع الأسماء... لكن لم يجدا اسم عفاف بين السكان.

فقال:

_ ربما الشقة باسم زوجها هل تعرف اسمه؟

_ نعم ربما؟ وهو أنا يوسف... كررا البحث لكن دون فائدة... عندها عاد للجلوس على الكرسي... تبعه بعد قليل الحارس وبيده كوب من الشاي وتمتم مشفقاً وهو يهز رأسه:

_ ربما هذا الرجل مصاب بنوع من الهلوسة... أو أنه مخمور تاه عن شقته، وعن زوجته... ناوله كوب الشاي وهو يقول:

يبدو أن الشمس أثرت فيك... بَرِّد عرقك يا أخي... الجو حار جداً وكوب الشاي الساخن يعطيك برودة... عليك أن تتوقف الآن عن السير لأنه صعب جداً في مثل هذا الجو... أرح نفسك قليلاً... لماذا لا تتصل بتلفونها الخاص؟ أظنك لا تعرفه أيضاً! أليس كذلك؟.

صمت يوسف طويلاً دون أن يرد... لكنه قال بنفسه:

_ يبدو أن الرجل استخف بعقلي! ولكن لمَ لا أشركه بسري؟ قد يفيدني من حيث لا أتوقع، وبعد أن تردد قليلاً، قرر أن يسأله بطريقة أكثر صراحة، وهو يقول في نفسه: وما المانع؟ رُبَ ضارة نافعة تفيدني بالوصول إلى غايتي:

_ اسمع يا أخي وبدأ يحكي له سبب بحثه عنها وجهله سبب إقفال هاتفها!

فقال الحارس:

_ حكاية غريبة... لكن الشيطان لم يمت.

_ ماذا تقصد؟

_ ربما أحبت غيرك وكانت تخدعك بكلامها المعسول؟!

_ لا أعتقد... والله أعلم ما الذي جرى لها؟!

_ هيا قم نغير مكانينا، لقد وصلت الشمس إلينا... هيا ننتقل إلى الظل، وتمتم بعبارات مفهومة... أعد الاتصال من جديد ربما فتحت تلفونها الآن... وفعلاً بعد ثوان من سماع هاتفها يستقبل المكالمة، عاد وأُغلق من جديد! كرر الاتصال عشرات المرات... لكن دون جدوى، وكالعادة، الجهاز مغلق أو خارج منطقة الاتصال... عندها أكد أن هناك شيئاً ما يدور في الخفاء دون علمه... ما أن رأى الحارس تجهم وجهه... سأله:

_ ماذا أيضاً مغلق؟ ثم زمّ شفتيه بحركة تظهر استغرابه... ونظر إلى صاحبه الذي رآه يغمض عينيه قهراً! دون أن يرد على سؤاله... ثم دخل بعدها في سبات وهو مسند ظهره على الكرسي، استمر فترة قصيرة...

لكنه فجأة ارتجف كأرنب جفل حين سمع هسيس خطوات ثعلب ماكر يترصده، فقال يرد على محدثه:

_ نعم... نعم! ما زال مغلقاً... لقد شعر قبل ثوان بحركة أقدام تطرق الرصيف خلف كرسيه، ترافقها قهقهات ناعمة ليست جديدة عليه... وقبل أن تتجاوزه تنشق عطراً يعشقه وذكّره بمن كانت تستخدمه... رفع نظره عن شاشة الهاتف بهدوء، وهو ينوي أن يكرر الاتصال برقم زوجته من

جديد... تمتم مستغرباً؟! وهو يدير وجهه قليلاً نحو مصدر الصوت وقال مدهوشاً:

_ يا إلهي!! رائحة عطرها... بل صوتها... بل رنين ضحكاتها!... أليست عفاف التي تتأبط ساعد هذا الرجل الضخم؟!!

كانت تبدو بجانبه كظبي ولد حديثاً يرافق وعلاً سمّنه كثر التراخي والخمول بكرشه المتهدل، الذي يكاد أن يحتاج لعربة تحمله ليجره أمامه!

تأمل الرجل فبدا له أنه يدّعي عظمة تعود عليها، بسيجاره الكوبي الذي يقبض عليه بأسنانه، وقد عبقت في المكان رائحة التبغ الفاخر، وحين تكلم نقله إلى زاوية فمه:

_ كيف حالك يا شعبان؟ ويقصد الحارس.

تابع سيره وكأنه مسؤول ترافقة حاشية لحفل افتتاح أحد المشاريع... يطوق عنقها بيده فتبدو كأنها فرس تنوء بحملها...

شك يوسف بما يرى أمامه! وتوقع أن يكون عقله قد صور له شكلها لكثرة ما تخيلها اليوم أثناء بحثه عنها! ولكثرة ما رافقه شكلها أثناء سفره!

تأوه... تنحنح بقوة... وقف مذهولاً... لم تلتفت نحوه! بل ربما لم تلحظه بسبب سعادتها الظاهرة برفيقها هذا... صمت ولم ينبس بعدها بحرف واحد، ولم يتكلم سوى بقلبه وهو يتساءل عن صدق ما رأى...

إلى أن دخل الاثنان العمارة، وهو يتمعن بمظهرها من الخلف وأناقتها المبالغ فيها ومشيتها... ردد بعقله ضحكاتها وصوتها مقارناً بما سمع قبل قليل عندما كانت تحادث رفيقها وتقهقه! قال في نفسه:

_ هل أنا غبي لهذه الدرجة؟! إنها هي... وهل أكذّب نظري أو سمعي؟ إنها هي... عفاف!

نظر إلى الحارس وسأله:

_ هل تعرف مَن هذان الاثنان؟

_ لا تسأل يا سيدي... أفضل!

_ أف لماذا؟! وهل في السؤال ما يغضب؟

_ كلا يا سيدي ليس فيه ما يغضب... بل فيه ما يرعب!

_ الله! وما الذي يرعب فيه؟!

اقترب منه حتى كاد أن يلصق فمه بإذنه وقال:

_ هل قرأت عن الشيطان؟ إنه الشيطان نفسه... ولكن الشيطان أرحم منه لأنه يوسوس، ثم يترك لك الخيار لتعمل بعقلك، بينما هذا يوسوس ويعمل بنفسه! ثم ألا ترى سيجاره الضخم؟ وجيب سترته المنفوخ؟! كل هذا ولم يوحِ لك بشيء ما؟

_ لا والله، لكنني أرى فيه رجلاً يشبه غيره من الأثرياء... إما أن يكون تاجراً يتحكم بأرزاق الناس أو ثرياً يتفاخر بماله وينظر بدونية لمن هو أقل

منه ثراء! ولكن هل تعلم قرابة التي تسير معه وهما يتضاحكان... وكأنهما عروسان في شهر العسل؟

_ أتدري يا صاحبي... بالله عليك الأفضل ألّا تسألني... أرجوك، ولكن كان يجب أن تعرف من هو عندما رأيته... فهو ممن لا يحب ذكر اسمهم بالخير أبداً.

_ يا ساتر وكيف سأعرفه من الوهلة الأولى؟

_ ألم ترَ كيف يتصنع بمشيته! وجاكيته المائل إلى جهة واحدة.

_ هههه رجل أمن... وما الذي يخيفك منه؟

_ بل فيه ما يرعب... إنه أحد مسؤولي الأمن، ويقال في عمارتنا... أنه سرق في العام الماضي زوجة أحد مرؤوسيه... ثم وظفها في مكتبه مدة، ثم لا أحد يعلم أين ذهبت... منذ فترة لم أعد أراها... ومنذ أشهر أصبحت أرى هذه الدمية الرائعة معه... آسف عذراً... أرجوك زلة لسان انسَ ما سمعت بالله عليك...

_ لا تخف يا صديقي أفدني أكرمك الله... إن لي حاجة به... لا تخف... لا يقطع الرأس سوى من ركّبه (الله جل جلاله) في أي دور يسكن؟

_ نعم... ولكن هذا لا يعرفه!

_ من؟ لا يعرف من؟ لا تخف.

_ هذا الرجل لا يعرف الله! أؤكد لك...

_ أخبرني أين يسكن؟ ولا تخف لن يعلم أنك من أخبرني.

_ وعد؟؟ إنه يسكن الدور الثالث... الشقة الثالثة عشرة **13** اسمع يا أخي أرجوك أن تذهب على الفور... لقد سرقت مني ما لا أجرؤ على البوح به، وورطتني بما لا أريد!

_ لا عليك، ثم نهض واتجه إلى داخل العمارة... بينما الحارس ينظر إليه فاغراً فمه! ويقول:

_ إلى أين؟ إلى أين؟ ارجع بالله عليك... وأخذ يلطم بيديه الاثنتين على رأسه وبيده عقب سيجارته التي تناثر رمادها على رأسه وثوبه.

أخذ يوسف يصعد درجات المبنى ببطء شديد! يتمنى أن تطول أكثر، وأكثر... أن تتطاول حتى السماء لعلّه يستعيد هدوء فكره المشوش... قلبه يخفق بشدة بينما عقله يعمل بخوف وقدماه تسيران بتردد... يحاول ويحاول أن يكذّب ما رأت عيناه! لكن عقله يأبى أن يطيع... إنها زوجته... هي، هي، يعود ليعاتب أقداره ويقول:

_ يالها من زيجة ملوثة... أشبه بزوبعة تهب، ثم ترحل وتترك عوالقها في الجو... بل هي سحابة صيف ليس إلا... ثم يخرج من واقعه وينسى عمن يبحث... يلهيه عقله المحارب على حلبة الماضي... لكنه يستفيق على آلام قدميه التي كلت من الطرق...

يلملم مصيبته... ويقارن الفارق بينها وبين عفاف... إنه لا يتعدى لون الشعر... عفاف التي كانت تحمل اسمها أدباً وثوباً... ثم ينظر إلى الجدران ساخراً ليسألهم:

_ أعكستم اسم عفاف في فضاء المكان؟ أعاد صدى صوتها إليكم؟ هل نظرتم إلى مفاتنها؟. عفافي لم تلبس عندي سوى ما احتشم من الثياب... أبداً! إنها ليست هي... حقاً كانت تبرز مفاتنها أمام عاشقها ولكن ليس إلى هذه الصورة... هل عفاف هذه هي أخت سهاد حقاً؟ ثم يجيب نفسه: كلا... كلا... صحيح الأب واحد والأم نفسها، ولكن بطن المرأة بستان يلد الورد والشوك... هذا ما كان يدور في رأس يوسف وهو يصعد الدرجات الموصلة إلى الشقة رقم ثلاثة عشر... ثم يردد غاضباً كلمة... أيتها الخائنة!

يستعيد مرآها قبل لحظات... وهي تسير بفستان يكشف من مفاتنها الكثير، ولطالما تمنى خلال الأيام التي قضياها معاً، أن تتحرر قليلاً من الأزياء المحتشمة، التي تغطي كامل الجسد كالتنورة المكسي أو البلوزة والبنطلون... لكنها كانت ترفض بحجة: إلى من سأبرز مفاتني وهي بين يديك؟! ومع أنه كان يعيش في أوربا وأمريكا وهناك حريات لا يمكن مقارنتها بالشرق.

ترد عليه بما يسعده:

_ أنا اليوم زوجة ولست صبية تتفاخر بمفاتنها.

لم يكد يوسف أن يصل إلى منتصف الدرجات، حتى لفت نظره في الأسفل باب المصعد يفتح ويخرج منه الرجل في الأسفل.

هو نفسه الذي كان يسير مع زوجته... ارتاح قليلاً لهذا الوضع... ستكون مقابلته لعفاف وحدهما، أفضل من أن يكون هذا الرجل بالذات معها، كان يعمل حساباً لمنظر الرجل الذي أرعب حارس العمارة... يدعو ربه أن يكون مخطئاً في ظنه... قبل اليوم كان متأكداً من أن زوجته عفاف لن تخونه أو تغدر به... لولا الغرابة الآن فيما رأى.

وصل إلى باب الشقة المطلوبة... الباب ما زال مفتوحاً، ها هي تتراجع بجسدها إلى الوراء دون أن تدير وجهها إلى الداخل... ها هي تتراجع إلى الداخل وترسل قبلة براحة يدها إلى صاحبها الذي ما زال في بهو العمارة الواسع بعد خروجه من المصعد... لقد كانا يتبادلان إشارت الوداع بالتلويح بكفيهما، وهو يلوح جسده مع يده حتى يكاد أن يهوي!

تنبهت المرأة إلى يوسف وهو يصعد الدرج... كذبت ناظريها لحظة... لكن ما شاهدته رأته حقيقة، ما أثار رعبها... فركت عينيها... توقفت عن السير لحظة إلى الخلف قبل أن تستدير لدخول الشقة وتحاول إغلاق بابها عليها.

تراقبه وقد صعد الدرجات الأخيرة، وأوشكت أن تدوس قدمه بسطة الدرج أمام باب شقتها ارتجفت لحظة! يبدو أنها لم تستطِع أن تغلق الباب مباشرة بل أمسكت به، وأخذت تتراجع وتدفعه ببطء شديد إلى الأمام... ربما لم يتضح لها شكل يوسف تماماً، وأرادت هي أن تتأكد من أن الرجل هو يوسف

زوجها السابق... لكنها تشك بما رأت، تتمنى بسريرتها أن لا يكون هذا الرجل الذي تراه الآن هو زوجها السابق... لحظات وسرت قشعريرة باردة في بدنها، ثم أخذت تهتز أوصالها عندما سمعته يقول:

_ أنت؟ سبحان الله؟! ثم صمت وحملق بوجهها محدقاً به... ورفع حاجبيه يبدي دهشة مصطنعة ساخرة! لكنه أردف باسماً متجاهلاً ما كان يعتمل في نفسه من غضب... فقد صور له عقله أن الرجل قد يكون قريبها... خالها... عمها، ردد بسرعة: عفاف... عفاف... يا إلهي كلّت قدماي وأنا أبحث عنك، وعن شقتنا التي اشتريتها في غيابي... أهذه هي؟؟ لماذا لم تصفي لي المكان جيداً؟ لكن من هذا الرجل الذي كان معك؟! هو عمك؟ ليس أحد أخويك لأنهما ما زالا في سن المراهقة.

كم تمنى يوسف وتضرع لله أن تقول له هو خالي أو عمي أو... أي إنسان من أقاربها، أو حتى جدها... لكن الصدمة كانت قوية إلى درجة جعلته يحتمي من السقوط مستنداً إلى جدار قريب منه، وهو يسمعها تقول:

_ إنه زوجي...

عاد وتمالك نفسه وقال ساخراً وهو يتظاهر أنه يظنها تمزح:

_ زوجك!... هل هذا معقول... أتمزحين؟ لقد أباح الشرع للرجل أربع... ولم أسمع أنه أباح للمرأة أكثر من زوج واحد... بأي دين هذا؟

لم تجد من الكلام ما تبرر به موقفها... لكنها أردفت:

_ نعم لقد حصلت على حكم بطلاقي منك... بعد هجرك لي أكثر من سنة... أتظن أنني من حجر، وليس لدي رغبات؟ أم فاقدة الشعور والأحاسيس... أتعتبر أن زواجنا هو زواج حقيقي...

أسبوع واحد فقط وتركتني أعاني القهر والحرمان... أنا امرأة يا يوسف... زوجة أحتاج إلى كل ما شرعه الله لأنثى متزوجة، من حب وحنان ووصال... أمشي بحماية زوجي، أضحك، أبتسم، أُحبّ، أنتشي بقوانين السماء.

_ ولكن لماذا تركتني على جهلي كل تلك المدة... أعيش أحلاماً جميلة؟ لماذا لم ترسلي لتخيّريني بين العودة أو الطلاق؟ بدلاً من زواجك وأنت على ذمة رجل آخر.

_ ههه... ههه، ومن قال لك أنني ما زلت على ذمة رجل آخر؟ لا رجل لي سوى الرجل الذي كان معي قبل قليل... لا بد إنك رأيته وهو ينزل من المصعد في بهو العمارة.

_ لم أسمع بزواج مثل زواجك بهذا الشكل... لا زواج متعة ولا مسيار ولا سبايا؟ أنت مازلتِ على ذمتي!

_ كلا... بل زواج رسمي... انتظر قليلاً حتى ترى عقد زواجي منه ووثيقة طلاقي منك.

_ معقول هذا؟! ولكن ما السبب؟

_ أسباب كثيرة... أهمها إهمالك لي أكثر من سنة.

_ أرسلت لك أموالاً طائلة خلال السنة... كما أعطيتك قبل سفري مبلغاً يكفيك لأكثر من سنة وأعطيتك لأهلك مثله كي لا تكوني عالة عليهم...

لم يعد يحتمل الموقف!

لم يدعها تكمل، بل وجّه لكمة بقبضة يده وضع كل ما فيها من قوة...

أصابعه كادت أن تتكسر حين أصابت باب الشقة من الخارج بعد أن تنبهت إلى حركته فأغلقته في وجهه في اللحظة نفسها... ما سبب له آلاماً مبرحة نتيجة اصطدام قبضته بالباب...

نادته محذرة من خلف الباب:

_ اذهب من هنا قبل أن أتصل بالشرطة وأجمع عليك سكان العمارة أنا لا أعرفك... أنت تريد الاعتداء علي!

أفاق يوسف من ذهوله... ربما كانت آلام يده هي من أعادته إلى الحقيقة والأمر الواقع... نعم كان بإمكانها أن تفعل ما تشاء، وتلم عليه ما هبَّ ودبَّ من البشرية، ومن مدّعي نصرة الشرف... وستنتصر في البداية عليه ويصدقها الجميع... لا أحد يعرفه هنا وسيكون معتدياً في نظر الجميع، سيقع في مأزق لا يرحم... جُنَّ جنونه... نزل الدرج وهو يمسك قبضة يده

اليمنى بقبضته اليسرى لشدة الألم... وجد الحارس ما زال جالساً في مكانه... ما أن رآه هذا حتى هب واقفاً يسأله:

_ ماذا فعلت فوق؟

_ ستعلم قريباً عندما تجدهما في السجن... وتركه يقف مذهولاً... غادر المكان وهو يفكر بخيانتها وكذبها.

الفصل السابع والعشرون

ذكرياتٌ لحياةٍ مقلقة

لم تفارقه ذكريات الموقف المر الذي قابلته به ذلك اليوم عندما قرع الباب متلهفاً، وكان يريد أن يفاجئها بوصوله... لكن المفاجأة كانت له فعلاً! حين أخبرته بطلاقها منه، وزواجها من أحد المسؤولين.

وقبل أن نكمل على ماذا انتهت قصتهما علينا العودة إلى بعض التفاصيل التي سبقت هذا الفصل والعودة إلى الوراء قليلاً... إلى حيث أنزل يوسف زوجته أمام بيت أهلها في القرية... وعادت مباشرة إلى المدينة لخوفها من الدخول إلى بيت أهلها... ربما كان خوفاً من أسرتها وحياء من معارفها وجيرانها لذلك عجلت بالمغادرة من هناك...

قلنا إنها وصلت إلى الفندق وقررت في ذلك الوقت الإقامة فيه... تنتظر عودة زوجها من البرازيل... حين ذهب لمعالجة والده ومراقبة مشاريعه الكثيرة... وللتذكير فقط... قلنا سابقاً إن يوسف وأسرته أصلهم من القرية نفسها التي تعيش فيها أسرة عفاف، ولكن والده سافر قبل عقود إلى

البرازيل وأسس هناك العديد من الشركات، ومع الوقت اكتسب هو وأولاده الجنسية البرازيلية.

أقامت عفاف في الفندق إقامة طويلة وكانت الاتصالات بينها وبين زوجها أو حسب ما كانت تسميه (زوج الأسبوع) لا تنقطع طيلة الفترة الأولى، وخلال تلك المدة لم يغير من أسلوب حبه أو عواطفه نحوها... كانت في البداية تمازحة بقولها في بداية كل اتصال (أهلاً بزوج الأسبوع... حياتي يا أسبوع...) وغيرها من العبارات التي تضمها هذه العبارة الساخرة...
في الوقت نفسه كان يرسل لها بشكل دائم مبالغ كبيرة، مكنتها من شراء شقة كستها وأثثتها بأفخر الأثاث.
بعدها تركت الفندق وقامت بالانتقال إلى الشقة بعد حوالي عدة أشهر أو أقل من سنة من سفر زوجها... خلال تلك المدة حصلت أحداث جذرية غيرت من عواطف عفاف نحو يوسف، لا بد لنا من إعادة رسم تلك الأحداث للقارئ... فرضت المشاغل الكبيرة على يوسف أن يباعد بين اتصالاته والسبب معروف... صحة والده، ومتابعة أمور شركات والده الكثيرة، مما جلب الفراغ لقلبها، وأصبحت كقصبة في مهب الريح... تنجر مع من يستطيع العزف على أوتار قلبها...

تعرفت عفاف أو ربما هو من تعرف عليها... تعرفت على رجل يدعى بدران، جذب اهتمامها الشديد في الفندق الذي كانت تقيم فيه، وكان هذا الرجل يتردد عليه يومياً... لكنها لم تكن تعلم سبب وجوده الدائم فيه! سألت بعض نزلاء الفندق الذين تحفظوا جميعاً على التفاصيل... يكتفون بالقول أنه رجل أمن مكلف بمراقبة الفندق، ومراجعة سجلات النزلاء... الداخلين والخارجين، والزوار... بدأت عفاف تشعر بميل شديد إلى هذا الرجل... وكدوحة ظامئة تظلل واحة جفَّ ماؤها، تنادي أقرب غيمة مارة فوقها لتهطل مزنها وتروي عطشها، وخلاصة القول، أنها حاولت جذب انتباهه، وحاول هو جذب انتباهها أيضاً.

في البداية أوحى لها بعزوبيته بعدم وجود ما يدل على أنه رجل متزوج أو مرتبط بأخرى، والدليل أنه كان يحاول إثارة انتباهها بعدم وجود خاتم بإصبعه اليمنى أو اليسرى...

بدأ الرجل يحاول التقرب منها لغاية لم تظهر لها في البداية.

مع أنها في الوقت نفسه كانت تنتظر الفرصة كي يكلمها... أعجبتها شخصيته وأناقته وأسلوب كلامه...

إلى أن جاء عصر ذات يوم... عادت من الشقة التي كانت تقوم بإكسائها لتريح أعصابها، مما كانت تعاني من متاعب العمل والعمال... جلست عصر ذات يوم وحيدة على شرفة الفندق...

أغمضت عينيها تفكر بما آل إليه مستقبلها، وحظها الأسود الذي كان يحاربها مذ كانت طفلة... في المدرسة... مع الخطيب الأول بسام... معركتها مع الشرع... يوسف... تعنت والديها... حظ صديقاتها اللاتي نجحن بتكوين أسر سعيدة... إلخ.

بدأت الدموع ترشح من عينيها المغمضتين وقلبها المتهالك... سمعت حركة بسيطة قربها! فتحت عينيها... شعرت بظل يحجب بعض الضوء عنها... ارتجفت وهي تسوي جلستها بحركة سريعة مفاجئة؛ لتخفي فتنتها التي كانت تظهر وهي تضع رجلاً على رجل... ومع صوت هامس يبسمل تمتمة قربها، ثم يعتذر همساً:

_ آسف يا آنسة أيقظتك من أفكارك! الدنيا لا تساوي ما ليس لنا فيه إرادة حتى نبكيها لا شيء يستحق دموعك، أتسمحين لي بالجلوس؟

_ تفضل... وما يمنع؟

تعددت اللقاءات... وتقاربت القلوب... وبدأ القلب المتعطش للحبّ يذوب أمام رقة الكلام العاطفي... خلال أسابيع من المعرفة بينهما بدأت الحواجز تتحطم، والقلوب تخفق باتجاه جديد... وكان هذا اللقاء بما حمل من آمال وأحلام جديدة مستبدلة:

_ ... ليس لدي ما أخفيه... الإنسان عواطف تحزنه الذكريات وتبكيه المصائب... أبكي ما يبكيه الغني والفقير، والكريم والبخيل في آن واحد... أبكي السعادة المفقودة! أجاب برقة شديدة:

_ من منا يا آنسة ليس لديه ما يُبكيه؟

_ مدام إذا سمحت... أنا متزوجة وخاتمي خلعته... إنه يضايقني أثناء العمل.

_ تشرفت بك يا سيدتي... حتماً السماء اليوم بائسة ومظلمة!... سوت من جلستها وهي تنظر إليه مستغربة ومتسائلة عن سبب هذه الجرأة فقالت:

_ ألغاز أم غزل مبطن؟ لم أفهم! ما دخل السماء بزوجي أو بخاتمي؟

_ نعم جلوسك على الشرفة سيُخفي القمر نفسه ويتوارى خلف الغيمة الأولى غيرة من صفحة وجهك.

_ الله... الله... ما هذه الجرأة التي تقرع بابي بها، يا شاعر الغزل... ولكن وقت الغزل انتهى.

_ وهل لمثل هذا الجمال أن يُهمل؟

_ أرجوك أنا لا أحب ما ترمي إليه... القلب مغلق، ومفتاحه بيد حبيب العمر.

تصنع أنه لم يفهم ما كانت ترمي له وقال:

_ أتدرين أنّ القمر ليس لديه إحساساً بما يرى... ولماذا يصفرّ أحياناً... طبعاً حسداً منك.

_ يا إلهي ما أرق كلامك... لكن القمر الآن يتوشح بغيمة سترته...

_ يالها من محظوظة تلك الغيمة التي تنار بهذا القمر...

تنهدت تنهيدة أودعتها كل ما في قلبها من حرمان وحرقة حوالي سنة، وهي بعيدة عن زوجها... ذكرها أسلوبه الرقيق بأسلوب يوسف زوجها، أخذت تتمتم في محاولة لتهدئة الموقف، فكانت تلاطفه قائلة:

_ أخجلتني برقة كلامك... لكن البحر هائج... لا يصلح لرسو سفنك... لا تتعب نفسك... ثم تركت الشرفة دون أن تبدي تذمراً من حشريته، ودخلت بخطوات هادئة إلى صالة الفندق... انتظر قليلاً يفكر... إنها لم تنهره! لم تطلب منه السكوت، أو تطلب منه أن يرحل... عاد يتصور كيف كان موقفها... الابتسامة ترافق وجهها عندما قامت... إذاً الصيد جاهز... عندما وصل إلى تلك النتيجة؛ دخل وهو يتحاشى النظر إليها مباشرة والابتسامة ظاهرة لا تفارق محياه... ويتمتم بما في نفسه:

_ رميت سنارتي وتوشك أن تصيد... امرأة محرومة... نقود... شقة... صبا وجمال يسحر العقل... زوج قد يعود وقد لا يعود، ومن لا يغامر لا يفوز...

جلس على أقرب طاولة من طاولتها... وجهه نحوها... نظره معلق بسقف الصالة... نظرت إليه تبسمت، وأشارت له بيدها تدعوه، بكلمات ناعمة:

_ لماذا تجلس وحدك؟ تفضل.

جلس على الطاولة أمامها مباشرة... الآن بدأت العلاقة تأخذ مساراً جديداً ربما لم يتوقعه بهذه السرعة... لم يمضِ على تعارفهما أيام قليلة، سألها:

_ هل لي أن أعرف أم ماذا يقال لك؟

_ هه... هه أم أسبوع!

_ اسم غريب... أول مرة أسمع به!

_ حقاً؟! دعنا من هذا... اسمي عفاف المحطمة... جميل هذا الاسم أليس كذلك؟

_ عفاف... يا له من اسم راقٍ يفتخر به وأحبه!

_ ليس إلى هذه الدرجة... حسناً سأخبرك ببعض خصوصياتي... لم أدرس سوى الابتدائية أيضاً في المنزل... تزوجت من غير ديني... لكنني جلبته إلى ديني... هربت من غضب أهلي علي... لأنني خرجت عن إرادتهم...
والأنكى من ذلك زوجي لم يبقَ معي أكثر من أسبوع! ثم أنت ترى أعيش وحيدة... لا أم... لا أب... لا أسرة... ثم لا زوج ولا صديقة.

_ لا حول ولا قوة إلا بالله... يتيمة الأبوين وأرملة؟! ما أقسى الزمن! أتقبلين بي صديقاً؟

_ لست يتيمة الأبوين بل هاربة منهما! ثم أن الأرملة أفضل مني... أمرها محسوم، من حقها أن تتزوج... على العموم أتشرف بصداقتك ولكن تعرف شروط هذا الفندق على النساء العازبات!

_ لا عليك سأتصرف... من خلال سلطتي... هنا لن يمنعنا أحد من اللقاء... سأكون لك بديلاً لكل ما حُرِمتِ منه... أنا الأب والأم والأخ... ووو سكت...

_ يسعدني أن أجد صدراً حنوناً يفتح لي قلبه... لماذا لم تكمل؟! ثم ماذا؟

_ زوجاً وسيفتح لك مصراعي باب قلبه إن شئتِ... أنا أرمل وليس عندي أولاد... هنا ضحكت وقالت:

_ لكنني على ذمة رجل آخر؟!

_ لا عليك الأمر أبسط مما تتصورين...

_ لا... لا... لا أريد أن أقع في خطيئة... أحبُّ زوجي ولا أود استبداله.

_ لم أقل غير هذا...

طبعاً في الطبيعة لا يمكن وضع العصفور أمام القط... ولا الدجاجة أمام الثعلب... تطور الأمر بينهما بحكم إقامتها الدائمة في الفندق، ووظيفته فيه... بحكم كل ما عرفنا... كانت لقاءاتهما يومية... إلى أن جاء اليوم الذي وصل فيه الثعلب المكار إلى غايته... فقال مداعباً:

_ أقدار ظالمة يا عفاف... أنت في عز الصبا بلا زوج... وأنا في عز شبابي بلا زوجة... توفيت زوجتي في عز صباها بحادث مؤلم كنت سببه... نذرت على نفسي أن لا أخونها بالزواج من غيرها.

_ يا إلهي أما زال في الدنيا مثاليات؟! لكنك مخطئ... عملك هذا لا يعيد القدر إلى الوراء.

_ أين أجد مثلها حتى أنساها.

_ الدنيا مليئة... ابحث تجد.

_ أووووه... بحثت كثيراً لم أجد سوى طامعة بزوج بأي ثمن، أو أرملة تبحث عن زوج بأية وسيلة.

سكتت قليلاً وقد صور لها الموقف زوجها الذي قصر بحقها، وتركها نهباً للحرمان... تنهدت بحرقة، وتدحرجت على خديها دمعتان... اقترب بسرعة من وجهها وهو يخرج منديلاً من جيبه ويقول:

_ أوه... حرام أن تلامس تلك الدرر الأرض، ومسحهما بسرعة عن خديها؛ لم تعترض... ثم قال أليس حراماً أن نعيش في هذه الدنيا عطاشاً والماء يفور من نبعين زُلالاً... أتتزوجينني يا عفاف؟

_ سبق وقلت لك أنني على ذمة رجل...

خفق قلبه... شعر أنه وصل... لن تمانع ها هي لانت له فقال:

_ خلقت القوانين لإسعاد البشر أولاً... أنا أعلم أنه يحق لك طلب الطلاق بسبب هجرانه لك مدة طويلة... لا عليك... لدي محامٍ يتكفل بجميع الإجراءات... ومأذون نستدعيه ليكتب كتابنا هنا.

راق لها الأمر تبسمت وقالت:

_ حقاً... لكن أريد أن يعقد قراننا عند كاتب عدل في المحكمة... بعد حصولي على وثيقة طلاق رسمية من زوجي يوسف، ثم وثيقة زواج بيننا... أوراق رسمية... أقصد هذا.

_ ومن قال غير هذا؟! سترين بنفسك... ليس عند مأذون فقط... بل بطلاق مُسبب بقضية رسمية وزواج شرعي عن طريق المحكمة، ويوثقان فيها... أليس هذا ما تودين...

_ نعم... بلى ولكن كيف وأنا متزوجة وعلى ذمة رجل!

_ لا عليك المحامي جاهز والقاضي لديه قوانين... سندّعي على زوجك بحقيقة هجرانه لك وعدم تأمين سكن ومصاريف معيشة... وبعدم معرفتك لعنوانه... المحامي الخاص سيتصرف بالأمر... المهم أنك عملت الصواب، الدنيا لا تدوم وكل يوم لا نتمتع به يذهب من عمرنا... أنت لا عليك من جميع الأمور الجانبية.

الفصل الثامن والعشرون

حقٌ مكتسب

تم زواج عفاف من السيد بدران، وهو الرجل الذي شاهده يوسف فيما بعد... وأصبح زوج عفاف الثاني، بعد علاقة حبّ لم تطل أكثر من شهر واحد فقط... تم الزواج بعد ذلك بحفلٍ بسيطٍ في أحد الفنادق، بعد أن سلّم لها محاميه وثيقة طلاقها غيابياً من يوسف، ممهورة ومختومة عن طريق المحكمة، وبعدها أحضر كاتب عدل قانونيّ بَصَمَا على دفتره أمامه وأمام شاهدين.

وتم قرانهما على يده... وأخبرها بعد عدة أيام أنه قام بستجيل زواجهما في المحكمة الشرعية بصورة نظامية... وسلّمها وثيقة الزواج ممهورة أيضاً بالأختام والتواقيع النظامية بيدها... وعندما سألته:

_ لماذا لم تطلب المحكمة حضورنا معاً... أجاب:

_ لا داعي لأن بيانات كاتب العدل كافية وموثقة ومدعمة بالشهود... وكلانا عمل التوكيل للمحامي

لنعد الآن إلى الوراء قليلاً نستكمل تفاصيل ما اكتشفه يوسف زوجها السابق... قلنا أنّ يوسف زارها ومنعته من الدخول إلى شقتها... وهددته بزوجها الجديد وبفضيحته أمام الجيران! وأنه يحاول الاعتداء عليها وكنا قد علمنا أنه وضع ثقته فيها كزوجة وأمواله معها كربة بيت مدبرة... واليوم اكتشف زواجها من الرجل الآخر... اتهمها بالعبث، والتلاعب بأتعابه والزواج من آخر... وهي على ذمته... لكنها أثبتت له بصورة قطعية طلاقها منه وزواجها من السيد بدران شرعاً عن طريق وثائق رسمية مختومة، لكنه لم يطّلع عليها!

هنا لم يجد يوسف بداً من تكليف محامٍ لمتابعة القضية أمام المحاكم...

ذهب محاميه إلى المحكمة للبحث في سجلات المحكمة، عن الدعوى التي أقامتها عليه في قضية طلاقها منه بأسباب قد تأخذ بها المحكمة مثل هجر الزوجة، وعدم إرسال مصاريف لها خلال أكثر من سنة، وبعد البحث والتدقيق من قبل محاميه، لم يجد أي أثر لكل ما قال له يوسف في سجلات المحكمة، لا طلاقها منه، ولا زواجها من بدران، بل وجد أنها ما زالت في عصمة زوجها الأول يوسف... عندها قرر المحامي الذهاب إليها ليتطلع على ما لديها من وثائق أعلمه يوسف بوجودها معها...

ذهب مستغلاً فرصة عدم وجود زوجها الجديد في الشقة... قرع الباب، وما إن فتحت له حتى أبرز بطاقته النقابية وقال:

_ أتسمحين لي بالدخول... أنا محامٍ مكلف من السيد يوسف زوجك...

لم تدعه يكمل بل قاطعته على الفور:

ـ زوجي هو السيد بدران وذاك طليقي!

_ نعم كما تشائين...

ولكن كي لا نطعن بصحة أوراقك، وتجري إلى محاكم وجلسات. أريد أن أتأكد لأقنع طليقك يوسف كما تدعين.

سمحت له بالدخول وما إن جلس على الطاولة حتى ألقى مفاجأته الأولى:

_ سيدتي... أنتِ في سجلات المحكمة مازلتِ زوجة يوسف...

اطلعت عليها بنفسي، لذلك إذا أمكن أن تطلعيني على الوثائق التي لديك فهذا لصالحك، وهنا نستطيع أن نحسم الأمر... الأفضل أن نتأكد من صحة الأوراق التي معك... قبل أن نتخذ بحقكما الإجراءات القانونية... لقد أقام عليك زوجك يوسف دعوى زنى ونصب واحتيال.

جُنَّ جنونها عندما سمعت أنها ما زالت على ذمة يوسف... أخذت تلطم على وجهها وهي تجري نحو خزانتها... بعد قليلٍ عادت تحمل ورقتين، أرتهما له من بعيد ورفضت أن تسمح له أن يمسكهما.

_ لا تخافي يابنتي... أنا محامٍ وأريتك هويتي.

_ أخشى أن تأخذهما وتذهب...

_ ليس لي مصلحة لي بذلك... ولن أستفيد منهما بشيء... بإمكانك استخراج غيرهما من المحكمة إن كان لهم سجلات حقيقية... ثم أخرج عدة أوراق أمامها من حقيبته... ثم قال بهدوء شديد:

_ أريد فقط مقارنة الوثائق... لأن الأوراق التي لديك على ما أظن، مزورة بل أرى أن ذلك مؤكد... دبَّ اليأس والخوف في قلبها، رمت الوثيقتين على الطاولة أمامه... دقق فيهما جيداً لحظات... وفي الوقت نفسه أخذ ينظر إلى ورقة أخرى أمامه كان يقارن بينها وبين أوراقها... لم تستطِع الصبر حتى يتكلم، بل أخذت تستعجله وهي ترتجف رعباً:

_ ماذا رأيت؟ ماذا؟ قل لي!

قام عن كرسيه وهو يهز رأسه ويبتسم بهدوء، بينما كانت فرائصها ترتعد وترتجف بشكل واضح إلى أن سمعته يقول:

_ سيدتي لقد تعرضتِ إلى خدعة كبيرة! أنت بحكم القانون...

أولاً: امرأة زانية، وذاك الذي يدعي أنه زوجك الجديد إنسان مزوّر!

وثانياً: أنت ما زلت على ذمة زوجك الأول... كما هو موثق في المحكمة.

_ صرخت بعنف وهي تبكي وتقول... ماذا أفعل؟ أرشدني.

الموضوع خاص بكما... ولكن وجهة نظري أنك ستقضين زمناً خلف القضبان... طالما هو ليس زوجك قانوناً أو شرعاً ويعاشرك معاشرة الأزواج... ستنظر إليه المحكمة على أنه عشيقك وتمارسان الرذيلة معاً وأنت في الوقت نفسه متزوجة من آخر... وهو متزوج من اثنتين زواجاً شرعياً وما زالتا في عصمته.

وثالثاً: ستحاكمان أيضاً بتهمة النصب والاحتيال... لقد ادعى يوسف زوجك عليكما سرقة أمواله وإنكارها، وكُلفت من قبله بمتابعة جميع قضاياه.

_ يا إلهي ماذا تقول؟ جنون هذا! ثم تحول كلامها إلى ما يشبه الهستريا، لكنها عادت إلى واقعها بسرعة!

_ كما تسمعين... توقعت أن تكوني أذكى من ذلك... ألم تسأليه لماذا لم يستخرج لكما بطاقة عائلية، ولماذا لم يبدل لك بطاقتك الشخصية حسب القانون بحيث يذكر فيها أنك متزوجة من بدران بدلاً من يوسف؟.

_ دائماً كنت أسأله... يتصل أمامي بشخص لا أعرفه، ثم يقول لي... قريباً... قريباً... سأقتله إن كان هذا،

لكنه لم يدعها تكمل بل قاطعها قائلاً:

_ أرجوك لا تكملي تهديدك أمامي... أنا محامٍ ولا أستطيع إنكار شهادتي يوماً... سيدتي يبدو لي على ما أعتقد أنك في ورطة مع هذا الرجل... تمتع بك عدة أشهر وأنت غافلة... كما أنك أنت نفسك لم تحفظي الأمانة التي أوكلها لك زوجك الحقيقي... تمتعتما معاً بأموال زوجك يوسف الذي وضع ثقته فيك... ومارستما الرذيلة بعقد زواج مزور لا أساس له... يبدو لي أن المأذون أيضاً لم يكن حقيقياً...

_ بل حقيقي شيخ له لحية ومعه دفتر كبير... إلخ

_ سيدتي أموركما الخاصة لا علاقة لي بها... لكنها وجهة نظر أعتذر عنها!
أعاد المحامي لها أوراقها وخرج...
وما أن قابل موكله حتى أخبره بما توصل إليه في القضية، فقال:
_ تم تزوير وثيقة الطلاق، ثم بعدها تزوير وثيقة الزواج بالاتفاق مع أحد المحامين ممن باعوا ضمائرهم، بالتواطئ مع من ظنته زوجاً حقيقياً لها، ومساعدة شهود زور اشتراهم بماله وأرعبهم بسلطته... ويبدو لي أن التزوير تم بدون علمها، ولكن هذا لا يعفيها من المسؤولية والعقاب.
_ رأيك القانوني والشخصي إذاً؟
_ كمحامٍ متابعة القضية في المحاكم... حتى تستعيد حقوقك.
_ وأعيدها إلى بيتي؟!!! لا يمكن.
_ لم أقل هذا... سأحاول تسوية القضية بينكم بالتراضي.
_ دعها اليوم وأنا من سيذهب إليها، ثم أخبرك بما سيجد معي... لكن دعني اتشفى قليلاً بتلك الخائنة.
_ حافظ على هدوئك هناك... وخذ معك أي شخص تثق به، ربما تحتاجه كشاهد.
عاد يوسف في اليوم التالي ليخبرها بأنه تأكد من عدم صحة زواجهما، وهددها بما لديه من وثائق ثابتة ومن إيصالات وعقد زواج وتسجيلات كاملة على هاتفه للمحادثات والمسجات المتبادلة بينهما، والتي تثبت تزوير الحقائق... أخبرها أنها تعتبر الآن زانية في نظر القانون والشرع... وأنه

سيحرك الدعوى التي بدأ محاميه بها... وهي عبارة عن دعوى زنى ونصب واحتيال عليها وعلى عشيقها، وأنه الآن جاء يعرض عليها تسوية، تغني الجميع عن الفضائح التي ستطالها وتطال أهلها...

بالشروط التالية:

أولاً: تعيد نقل ملكية الشقة لاسمه، وتعيد له جميع الأموال التي أرسلها... عندها يتركها تذهب في سبيلها...

ثانياً: يقوم بتطليقها وبالمقابل تتنازل عن أي تعويض أو نفقة...

تم الاتفاق بينهما على هذا، وخلال تم له ما أراد.

لكن محاميه فيما بعد، أصرّ على الاستمرار بدعوى الزنى والنصب والاحتيال... ليدخلها وعشيقها السجن... وهذا ما كان.

تمت بعون الله تعالى

المحتويات

إهداء.....5
مقدمة..... 7
الباب الأول.....11
زخارف الحياة.....11
الفصل الأول.....12
الفصل الثاني 30
الفصل الثالث 40
الفصل الرابع 47
الفصل الخامس.....54
الفصل السادس.....58
الفصل السابع 77
الفصل الثامن.....86
الفصل التاسع 97

الفصل العاشر 105
الفصل الحادي عشر.....121
الفصل الثاني عشر 130
الفصل الثالث عشر 142
الفصل الرابع عشر 147
الفصل الخامس عشر 158
الفصل السادس عشر 175
الفصل السابع عشر 182
الفصل الثامن عشر.....189
الفصل التاسع عشر 195
الفصل العشرون 199
الفصل الواحد والعشرون.....207
الفصل الثاني والعشرون.....219
الفصل الثالث والعشرون 227

البـــاب الثاني.....243
نـهايــة صفقـات.....243
الفصل الرابع والعشرون 244
الفصل الخامس والعشرون.....251
الفصل السادس والعشرون.....263
الفصل السابع والعشرون.....278
الفصل الثامن والعشرون 288
المحتويات 295

ومن الرماد ما يكوي

رواية

جهاد نصر مقلد " نبيل "

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com